

تفسير الفاسي
المسكت

مخازن التلاويك

تأليف علامه الشكام

محمد جمال الدين الفاسي

ونف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(تادم الكتاب والسنة)

بمجددنا عبد الباقا

كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ
[٣٨ / س / ٢٩]

تفسير الفاسمي

المسكبي

محاسن التاويك

تأليف علامة الشكامة

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ ١٨٦٦ - ١٩١٤ م

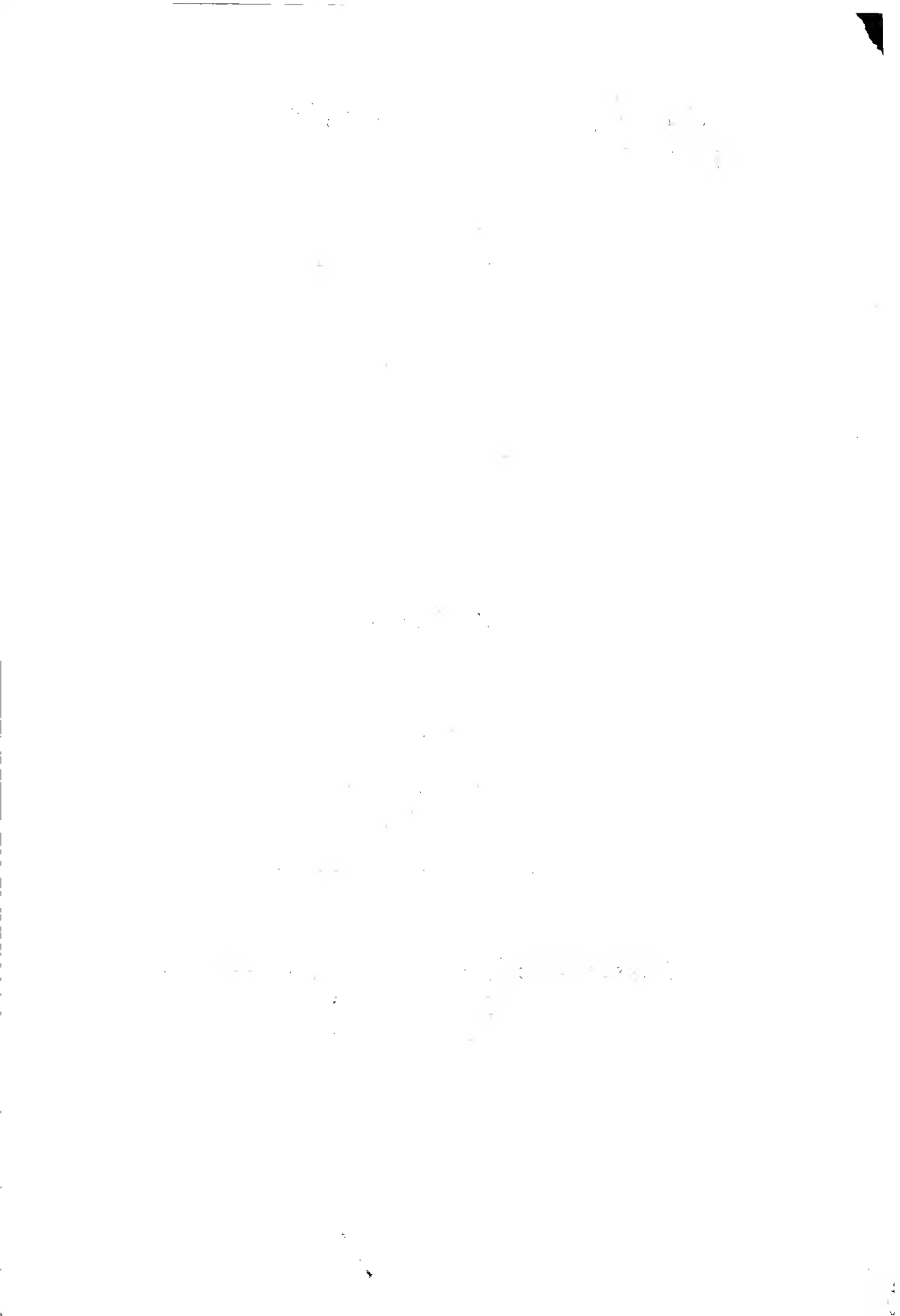
الجزء الرابع عشر

وفيه تفسير سور : (من سبأ إلى الجاثية)

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

محمد زكي عبد الباقى

عيسى البباني الحلبي وشركاه



كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأئمة شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصي جميع الناشئة
الإسلامية ، التي تريد أن تفهم الشرع
فهماً ترتاح إليه ضمائرهما ، وتنمقده عليه
خناصرها ، ألا تقدم شيئاً على قراءة
تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي »
جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣ هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيتام ،
والمجدد لعلوم الإسلام ، محيي السنة
بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب
والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال
بين هدى السلف ، والارتقاء المدني
الذي يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البيطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالمعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء
مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . ونذر جداً أن ترى كتاباً ، في خزائنه
الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليلات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول
الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية في المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٤ - سُورَةُ سَبَأٍ

سميت بها لتضمن قصتها آية تدل على نعيم الجنة في السعة وعدم الكلفة والخلو عن الآفة، وتبذلها بالنقم، لمن كفر بالمنعم.. وهذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايي . وهي مكية . واستثنى منها^(١) (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) الآية . وروى الترمذي^(٢) عن فروة بن مسيك المرادي قال : أتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ! ألا أقاتل من أدبر من قومي ؟ الحديث . وفيه : وأنزل في سبأ ما أنزل . فقال رجل : يا رسول الله ! وما سبأ ؟ الحديث . قال ابن الحصار : هذا يدل على أن هذه القصة مدنية . لأن مهاجرة فروة بعد إسلام ثقيف سنة تسع .

قال : ويحتمل أن يكون قوله (وأنزل) حكاية عما تقدم نزوله قبل هجرته . أفاده في (الإتيان) وآيها أربع وخمسون .

(١) [٣٤ / سبأ / ٦] .

(٢) أخرجه في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣٤ - سورة سبأ ، ١ - حدثنا أبو كريب

وعبد بن حميد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَخِرَةِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » خلقاً وملكاً ، وتصرفاً بما شاء « وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَخِرَةِ » أى فى النشأة الآخرة . قال الشهاب : السموات والأرض عبارة عن هذا العالم بأسره . وهو يشتمل على النعم الدنيوية . فعلم من التوصيف بقوله (الَّذِي) الخ ، أنه محمود على نعم الدنيا . ولما قيد الثانى بكونه فى الآخرة ، علم أن الأول محله الدنيا فصار المعنى : أنه المحمود على نعم الدنيا فيها ، وعلى نعم الآخرة فيها . أو هو من باب الاحتباك . وأصله : الحمد لله الخ فى الدنيا ، وله ما فى الآخرة والحمد فيها . فأثبت فى كل منها ما حذف من الآخرة . وقوله (وَلَهُ الْحَمْدُ) معطوف على الصلة ، أو اعتراض ، إن كانت جملة (يَعْلَمُ) حالية (وَهُوَ الْحَكِيمُ) أى الذى أحكم أمور الدارين ودبرها بحكمته « الْخَبِيرُ » أى بخلفه وأعمالهم وسرائرهم ، ثم ذكر مما يحيط به علماً قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا ، وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ)

« يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ » أى من الأمطار والمياه والكنوز والدقائق والأموات « وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا » أى من الشجر والنبات وماء العيون والغلة والدواب « وَمَا يَنْزِلُ

مِنَ السَّمَاءِ » أى من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والملائكة والمقادير « وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا » أى من الملائكة وأعمال العباد « وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ » أى لمن تاب من المؤمنين وقام بواجب شكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ ، لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى مشركى مكة « لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ » أى ساعة الجزاء ، إنكاراً لها « قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ » أى الساعة . رد لكلامهم وتأكيدهما تقوه ، بالبين بالله عز وجل « عِلْمُ الْغَيْبِ » بالجر صفة ، والرفع خبر محذوف . وقرئ (علام) بالجر . وفى هذا التوصيف تقوية للتأكيده . لأن تعقيب القسم بجلال نعوت القسم به ، يؤذن بفخامة شأن القسم عليه وقوة إثباته وصحته . لما أن فى حكم الاستشهاد على الأمر . لا سيما إذا خص من الأوصاف ماله اختصاص بهذا المعنى . فإن قيام الساعة من مشاهير الغيوب وأدخلها فى الخفية ، وأولها مسارعة إلى القلب ، إذا قيل عالم الغيب « لَا يُعْزِبُ » أى لا يغيب بضم الزاى وكسرها « عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ » أى فالجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء وإن تنهى فى الصغر . فالعظام وأجزاء البدن ، وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت . ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، لسعة علمه وعظم قدرته ، جل شأنه .

لطائف :

الأولى - عامة القراء على رفع (أَصْغَرُ) و (أَكْبَرُ) وفيه وجهان : أحدهما الابتداء

والخبر (إِلَّا فِي كِتَابٍ) والثاني النسق على (مثقال). وعلى هذا فيكون قوله (إِلَّا فِي كِتَابٍ) تأكيداً للنفي في (لَا يَعْزُبُ) كأنه قال : لكنه في كتاب مبين . ويكون في محل الحال .
وقرأ بعض السلف بفتح الراءين . وفيه وجهان : أحدهما - أن (لا) هي لا التبرئة . بنى اسمها معها . والخبر قوله (إِلَّا فِي كِتَابٍ) . والثاني - النسق على (ذَرَّةٍ) لامتناعه من الصرف .
الثانية - يشير قوله تعالى (وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ) إلى أن (مِثْقَالٍ) لم يذكر للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب أيضاً .

الثالثة - قال الكرخي : فإن قيل فأى حاجة إلى ذكر (الأكبر) فإن من علم الأصغر من الذرة لا بد وأن يعلم الأكبر ؟ فالجواب : لما كان الله تعالى أراد بيان إثبات الأمور في الكتاب ، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت فيه الصغائر لكونها محل النسيان .
وأما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته ، فأعلم أن الإثبات في الكتاب ليس كذلك .
فإن الأكبر مكتوب فيه أيضاً . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)
« لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » علة لقوله تعالى (لَتَأْتِيََنَّكُمْ) وبيان لما يقتضى إتيانها من جزاء المحسن والسيء « أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » أى عيش هنيء فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ)
« وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا » أى بالطمع فيها ونسبتها إلى السحر والشعر وغير ذلك « مُعْجِزِينَ » أى مقدرين الغلبة والعجز فى زعمهم الفاسد وظنهم الباطل « أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ » وهو أسوأ العذاب و (مِّن) للبيان « أَلِيمٌ » بالرفع صفة (عذاب) ،

وبالجرّ صفة (الرجز). قراءتان. وقد جوز في قوله (وَالَّذِينَ سَعَوْا) أن يكون مبتدأ، وجملة (أُولَٰئِكَ..الخ) خبره وأن يعطف على (الَّذِينَ) قبله . أى ويجزى الذين سعوا . ويكون جملة (أُولَٰئِكَ) التى بعده مستأنفة ، والتى قبله معترضة . وفى التعبير عن طعنهم وصدّهم بالسعى ، تمثيل لحالهم . فإن المكذب آت بإخفاء آيات بينات ، فيحتاج إلى السعى العظيم والجدّ البليغ، ليرّوج كذبه لعله يعجز التمسك به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ

وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

[٧] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ

كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

[٨] (أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ، بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ)

« وَيَرَى » أى يعلم « الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ

وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » أى دينه وشرعه « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى من

قريش « هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ » يعنون النبی ﷺ « يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ

مُمَرِّقٍ » أى فرقتم كل تفريق ، بحيث صرتم تراباً ورفاتاً « إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ *

أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى فيما قاله « أَمْ بِهِ جِنَّةٌ » أى جنون تخيل به ذلك. فرد تعالى

عليهم مانعاً به سوء حالهم بقوله « بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ

الْبَعِيدِ » أى المتناهى أمره . فإن من يدعى إلى الصلاح والرشاد؛ وبند الهوى والفساد، فيرمى

الداعى بالفرية والجنون ، كمغرّق فى الجهالة. ومبعد أى بعد فى الضلالة. ثم أشار إلى تهويل

تلك العظيمة التى تفوها بها ، وإنها موجبة لنزول أشد العذاب ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ،
 إِن نَّشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ،
 إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ)

« أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نُخَسِّفْ
 بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ » أى : أعموا فلم ينظروا إلى السماء
 والأرض ، وإنهما حينما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم ، محيطتان بهم ، لا يقدر أن
 ينفذوا من أقطارها وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله عز وجل ، ولم يخافوا أن يخسف
 الله بهم أو يسقط عليهم كسفاً لتكذيبهم الآيات ، وكفرهم بالرسول ﷺ وبما جاء به ،
 كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة . أفاده الزمخشري . و (الكسف) بسكون السين ، بمعنى
 القطع ، إما جمع كسفة ، أو فعل بمعنى مفعول ، أو مخفف من المصدر . وقرأ حفص (كسفاً)
 بالفتح « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما يدلان عليه من
 قدرة الله « لَآيَةً » أى دلالة واضحة « لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ » أى راجع إلى ربه مطيع له .

فإن شأنه لا يخلو من الاعتبار في آياته تعالى ، على أنه قادر على كل شيء من البعث ونشر الرميم
 كما قال تعالى ^(١) (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
 بَلَىٰ) وقال تعالى ^(٢) (لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِن أَكْثَرَ
 النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ثم أخبر تعالى عما آتى داود وسليمان من الفضل والملك وسعة السلطان
 ووفرة الجند وكثرة العدد والعدد ، بركة إنا بهما وقيامهما بشكر الرب تعالى ، عِدَّةً للنبي
 صلى الله عليه وسلم وأتباعه النبيين الشاكرين بنيل مثل ذلك ، وتذكيراً بقدرة الله على كل شيء ،
 فقال تعالى :

(١) [٣٦ / يس / ٨١] . (٢) [٤٠ / غافر / ٥٧] .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ، يٰجِبَالُ اَوْبِىْ مَعَهُ وَالطَّيْرَ ، وَاَلْنَا لَهُ اَلْحَدِيدَ)

[١١] (اَنْ اَعْمَلَ سَبِيْعَتٍ وَقَدِرَ فِى السَّرْدِ ، وَاَعْمَلُوْا صٰلِحًا ، اِنِّىْ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيْرٌ)

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يٰجِبَالُ اَوْبِىْ مَعَهُ » اى رَجِىْ مَعَهُ التَّسْلِيْحَ

و (يٰجِبَالُ) بدل من (فَضْلًا) اَوْ من (ءَاتَيْنَا) بِتَقْدِيْرِ قَوْلِنَا ، اَوْ قُلْنَا يٰجِبَالُ اَوْبِىْ مَعَهُ

« وَالطَّيْرَ » بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ ، عَطْفًا عَلَى لَفْظِ الْجِبَالِ وَمَحَلِّهَا . وَجُوزَ انْتِصَابِهِ مَفْعُولًا مَعَهُ

وَأَنْ يَعْطِفَ عَلَى (فَضْلًا) بِمَعْنَى وَسَخَّرْنَا لَهُ الطَّيْرَ . قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : فَإِنْ قُلْتَ اَى فَرْقَ بَيْنَ

هَذَا الْفَرْقِ وَبَيْنَ أَنْ يُقَالَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ، تَأْوِيْبُ الْجِبَالِ مَعَهُ وَالطَّيْرَ ؟ قُلْتَ : كَمْ بَيْنَهُمَا !

أَلَا تَرَى مَا فِيْهِ مِنَ الْفَخَامَةِ الَّتِى لَا تُخْفَى ، مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى عِزِّ الرُّبُوبِيَّةِ وَكِبَرِيَاءِ الْإِلَهِيَّةِ ،

حَيْثُ جَعَلْتَ الْجِبَالُ مَنْزِلَةَ مَنْزِلَةِ الْعُقَلَاءِ الَّذِينَ إِذَا أَمَرَهُمْ أَطَاعُوا وَأَذَعَفُوا ، وَإِذَا دَعَاهُمْ سَمِعُوا

وَأَجَابُوا ، إِشْعَارًا بِأَنَّهُ مَا مِنْ حَيَوَانَ وَجَادٍ وَنَاطِقٍ وَصَامِتٍ ، إِلَّا وَهُوَ مُنْقَادٌ لِمُسَيِّئَتِهِ غَيْرَ مُتَمَنِّعٍ

عَلَى إِرَادَتِهِ . انْتَهَى . « وَأَلْنَا لَهُ اَلْحَدِيدَ * اَنْ اَعْمَلَ سَبِيْعَتٍ » اى دَرُوعًا وَاسِعَاتِ

« وَقَدِرَ فِى السَّرْدِ » اى اقْتَصَدَ فِى نَسِجِ الدَّرُوعِ لِتَنْتَاسِبَ حُلُقُهَا « وَاَعْمَلُوْا صٰلِحًا »

اى وَقُلْنَا لَهُ وَلَآئِلُهُ ذَلِكَ « اِنِّىْ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيْرٌ » اى فَأَجَازِيْكُمْ بِهِ .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[١٢] (وَلِسُلَيْمٰنَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ، وَاَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ،

وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِاِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ

عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيْرِ)

« وَلِسُلَيْمٰنَ » اى وَسَخَّرْنَا لَهُ « الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ » اى جَرِيْهَا بِالْغَدَاةِ

مَسِيرَةِ شَهْرٍ ، وَجَرِيْهَا بِالْعَشِيِّ كَذَلِكَ . وَالرِّيحُ الْهَوَاءُ الْمُسَخَّرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . وَيُطْلَقُ بِمَعْنَى

النصرة والدلالة والغلبة والقوة، كما في القاموس « وَأَسْلَمْنَا لَهُ وَ عَيْنَ الْقَطْرِ » أى النحاس المذاب. أى أجرينا له ينبوعه لكثرة ما توفر لديه منه من سعة ملكه « وَمِنَ الْجِنَّةِ » أى الشياطين الأقوياء « مَنْ يَعْمَلْ بَيْنَ يَدَيْهِ » أى من رفيع المباني وإشادة القصور وغيرها « بِإِذْنِ رَبِّهِ » أى بأمره تعالى « وَمَنْ يَزِغْ » أى يعدل « مِنْهُمْ » عَنْ أَمْرِنَا نَذِقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ » أى النار. ثم فصل ما ذكر من عملهم بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَأَلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ، أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) «يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ» أى مساكن ومجالس شريفة أو مساجد «وَتَمَثِيلٍ» أى صور ونقوش منوعة على الجدر والسقوف والأعمدة، جمع (تمثال) وهو كل مرسوم على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان . ولم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرما . قال السيوطى فى (الإكليل) : قال ابن الفرس : احتجبت به فرقة فى جواز التصوير، وهو ممنوع فإنه منسوخ فى شرعنا « وَجِفَانٍ كَأَلْجَوَابِ » أى وضخاف كالجوابى وهى الحياض الكبار . و (الجفان) جمع جفنة وهى كالصحفة والقصة ، ما يوضع فيه الطعام مطلقا . وقيل الجفنة أعظم القصاع . ثم يليها القصعة وهى ما تشبع عشرة . ثم الصحفة وهى ما تشبع خمسة . ثم الميكة وهى ما تشبع ثلاثة أو اثنين . ثم الصحيفة « وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ » أى ثابتات على الأنافى، لا تنزل عنها أعظمها « أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا » أى قيل لهم : اعملوا لله واعبدوه على وجه الشكر لنعمائه . وفيه إشارة إلى أن العمل حقه أن يكون للشكر لا للرجاء والخوف . كما أن فيه وجوب الشكر . وأنه يكون بالعمل ولا يختص باللسان . لأن حقيقة صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله . وداود عليه السلام قد يدخل هنا فى (آله) فإن آل الرجل قد يعمه « وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » أى المتوفرون على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه ، أكثر أوقاته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

« فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ » أى على سليمان « الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ » وهى الأرضة « تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ » أى عصاه التى ينسأ بها ، أى يطرد ويؤخر « فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ » أى الشديد من الجرى على رسمه لهم ، والدأب عليه ، لظنهم إياه حياً .

ثم بين تعالى من أخبار بعض الكافرين بنعمه ، إثر بيان أحوال الشاكرين لها ، ما فيه عظة واعتبار ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ، جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)

« لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ » اسم لأبى قبيلة . وقد قرئ بمنع الصرف على أنه اسم لها « فِي مَسْكَنِهِمْ » أى فى مواضع سكنهم ، وهى باليمن يقال لها (مَأْرَب) كمنزل من بلاد الأزد ، فى آخر جبال حضرموت . وكانت فى الزمن الأول قاعدة التبابعة ، فإنها مدينة بلقيس ، بينها وبين صنعاء نحو أربع مراحل . وقرئ (مَسَاكِينِهِمْ) « ءَايَةٌ » على قدرته تعالى ومجازاته المسىء « جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ » أى جماعتان من البساتين عن يمنى بلدهم وشمالها . أو لكل واحد جنتان عن يمنى مسكنه وشماله : قيل لهم « كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ » أى بصرف ما أنعم به عليكم إلى ما خلق لأجله . ثم بين ما يوجب الشكر المأمور به ، بقوله سبحانه « بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ » أى لطيفة جميلة مباركة لاعاهاة فيها « وَرَبٌّ غَفُورٌ » أى لمن شكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ)

« فَأَعْرَضُوا » أى عن الشكر « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ » أى سيل الأمر العرم ، أى الصعب والمطر الشديد - أو الوادى - أو السَّكْر الذى يحبس الماء - أو هو البناء الرصين المبني بين الجباين لحفظ ماء الأمطار وخزنها . وقد ترك فيه أثقاب على مقدار ما يحتاجون إليه فى سقيهم . فلما طغوا أهلكتهم الله بخراب هذا البناء ، فانهاى عليهم تيار مائه ، فأغرق بلادهم وأفسد عمرانهم وأرضهم . واضطر من نجا منهم للنزوح عنها . كما قال تعالى « وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ » أى ثمر مرّ ، أو بشع لا يؤكل « وَأَثْلٍ » شجر يشبه الطرفاء من شجر البادية لا ثمر له « وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ » وهو شجر النبق . أى قلة لا تسمن ولا تنقى من جوع . فهذا تبديل النعم بالنقم ، لمن لم يشكر النعم ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ، وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

« ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ » أى بشكر النعم ، أو باتباع الرسل وتكذيب الحق والعدول إلى الباطل . ثم بين تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهنى والبلاد الآمنة والقرى المتواصلة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ظَهْرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ، سِيرُوا فِيهَا لِيَالٍ وَأَيَّامًا آمِنِينَ)

« وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا » أى بالزروع والثمار وحسن العمران وهى

قري بصنعاء كما قاله مجاهد وسميد بن جبير ومالك وغيرهم «قُرِي ظَهْرَةً» أى متواصلة، يرى بعضها من بعض لتقاربها . فهي ظاهرة لأعين الناظرين . أو ظاهرة للمسافرين لا تبعد عن مسالكهم «وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ» أى جعلنا بين قراها مقادير متساوية . فمن سار من قرية صباحاً وصل إلى أخرى وقت الظهيرة والقيولة . ومن سار بعد الظهر وصل إلى أخرى عند الغروب، فلا يحتاج لحل زاد ولا مبيت فى أرض خالية ، ولا يخاف من عدو ونحوه «سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأيَّامًا ءَامِنِينَ» أى لا تخافون فى الليل أو النهار . أو وإن تطاول أمد سفركم فيها وامتد، فلا ترون إلا الأمن . والأمر على تقدير القول بلسان المقال بواسطة نبي ونحوه، أو بلسان الحال . كأنهم لما تمكنوا منه جعلوا مأمورين به . فالأمر للإباحة . وفى (فى) إشعار بشدة القرب ، حتى كأنهم لم يخرجوا من نفس القرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

« فَقَالُوا » أى بلسان الحال والميل إلى المبالغة الشيطانية « رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » أى فاستعدوا اضلالهم وكفرهم لأن تجعل أمكنتهم تعمل فيها الطغى والرواحل ، لتباعد ما بينها وبين ما يسيرون إليه . وحصل ذلك بما بدلوا به من بلادهم الحسنة « وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » أى حتى حل بهم ما حل « فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ » أى يتحدث الناس بهم ويتعجبون من نبئهم وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والعيش الهنى « وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ » أى فرقناهم كل تفريق ، حتى اتخذهم الناس مثلاً مضروباً . يقولون (تفرقوا أيادى سبأ ، وذهبوا أيدي سبأ) بألف مقصورة . قال الأزهري : العرب لا تهتم سبأ فى هذا الموضع ، لأنه كثر فى كلامهم فاستثقلوا فيه الهمز ، وإن كان أصله مهموزاً . والذهاب معلوم . والأيادى جمع أيد . والأيدي جمع يد . وهى بمعنى الجارحة ، وبمعنى النعمة ، وبمعنى الطريق ، وهو المراد .

قال في التهذيب : قولهم ذهبوا أيدي سبأ ، أي متفرقين . شبهوا بأهل سبأ لما مرقهم الله في الأرض كل ممزق . فأخذ كل طائفة منهم طريقاً على حدة . و (اليد) الطريق . يقال : أخذ القوم يد بجر .. فقيل للقوم إذا ذهبوا في جهات مختلفة (ذهبوا أيدي سبأ) أي فرقهم طرقهم التي سلكوها ، كما تفرق أهل سبأ في مذاهب شتى .

قال ابن مالك : إنه مركب تركيب خمسة عشر ، مبنياً على السكون . وفي (زهر الأكم ، في الأمثال والحكم) أن سبأ كانت أخصب بلاد الله . كما قال تعالى (جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ) قيل كانت مسافة شهر للراكب المجد . يسير الماشي في الجنان من أولها إلى آخرها لا يفارقه الظل مع تدفق الماء وصفاء الأنهار واتساع الفضاء . فكثروا مدة في أمن لا يعاندهم أحد إلا قصموه . وكانت في بدء الأمر تركبها السيول . فجمع لذلك حمير أهل مملكته وشاورهم . فاتخذوا سداً في بدء جريان الماء ورسفوه بالحجارة والحديد ، وجعلوا فيه مخارق للماء . فإذا جاءت السيول انقسمت على وجه يعممهم نفعه في الجنات والمزروعات . فلما كفروا نعم الله تعالى ، ورأوا أن ما حكمهم لا يبيده شيء ، وعبدوا الشمس ، سلط الله على سدّهم فارة تخرقه . وأرسل عليهم السيل فزرقهم الله كل ممزق . وأباد خضراءهم . وتبددوا في البلاد . فلحق الأزديمان . وخزاعة بطن مرة . والأوس والجزرج ييثرب . وآل جفنة بأرض الشام . وآل جذيمة الأبرش بالعراق .

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس ؛ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو ؟ أرجل أم امرأة ؟ أم أرض ؟ قال ﷺ : بل هو رجل ولد له عشرة . فسكن اليمن منهم ستة . وبالشام منهم أربعة . فأما النعمانيون فذحج وكندة والأزد والأشعرى وأنمار وحمير . وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان . قال ابن كثير : وإسناده حسن إلا ابن لهيعة .

وروى الإمام أحمد أيضاً عن فروة بن مسيك رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ! أقاتل بمقبل قومي مدبرهم ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم . فقاتل بمقبل قومك مدبرهم . فلما وليت دعاني فقال : لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام . فقلت :

يا رسول الله ! أرايت سبأ ؟ أو أدٍ هو أو جيل أو ما هو ؟ قال ﷺ : لا ، بل هو رجل من العرب ولد له عشرة . فتيامن ستة ، وتشاءم أربعة . تيامن الأزد والأشعريون وحير وكندة ومذحج وأنمار - الذين يقال لهم بجيلة - وخثعم . وتشاءم لحم وحذام وعاملة وغسان . قال ابن كثير : حديث حسن . وإن كان فيه أبو حباب السكبي ، وقد تكلموا فيه . ورواه الحافظ ابن عبد البر في كتاب (القصد والأمم بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم) عن تميم الداري : أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ؟ فذكر مثله . وقال ابن كثير : فتوى هذا الحديث وحسن .

وذكر علماء النسب ، منهم محمد بن إسحق اسم سبأ ، عبد شمس بن يشجب بن يعرب ابن قحطان . وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ في العرب وكان يقال له الرائش . لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه . فسمى الرائش . والعرب تسمى المال ريشاً وریشاً . وذكروا أنه بشر رسول الله ﷺ في زمانه المتقدم . وقال في ذلك شعرا :

سيملكُ بعدنا مَلِكٌ عَظِيمٌ	نبيٌّ لا يَرْخُصُ في الحَرامِ
ويملكُ بعده منهم ملوكٌ	يدينوه القِيَادَ بكل راي
ويملكُ بعدهم منا ملوكٌ	يصير الملكُ فينا بانقسامِ
ويملكُ بعد قحطان نبيٌّ	بَقِيَ مُتَحَنِّتٌ خَيْرُ الأَنامِ
يسمى أحمدًا . ياليت أني	أعمرُ بعد مبعثه بعامِ
فأعضده وأحبوه بنصري	بكل مُدَجِّجٍ وبكل رامِ
متى يظهرُ فكونوا ناصريه	ومن يَلْقَهُ يَلْقَهُ سَلامِ

ذكر ذلك الهمداني في كتاب (الإكليل) . واختلفوا في قحطان . فقيل : إنه من سلالة إرم بن سام نوح . وقيل : من سلالة عابر وهو هود عليه السلام . وقيل : إنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام . وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النمرى في كتاب (الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواه) .

قال ابن كثير : ومعنى قوله ﷺ في سبأ : كان رجلاً من العرب ، يعنى العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام من سلالة سام بن نوح . وعلى القول الثالث . كان من سلالة الخليل عليه السلام ، وليس هذا بالمشهور عندهم . والله أعلم .
ولسكن في صحیح البخاری^(١) أن رسول الله ﷺ مرّ بنفرٍ من أسلم ينتضلون فقال : ارموا ، بنى إسماعيل ! فإن أباكم كان رامياً . وأسلم قبيلة من الأنصار . والأنصار أوسها وخزرجها من عرب اليمن ، من سبأ ، نزلت يثرب ، لما تفرقت ، كما مر .
(ثم قال) : ومعنى قوله ﷺ : ولد له عشرة أى كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن . لا أنهم ولدوا من صلبه . بل منهم من بينه وبينه ، الأبوان والثلاثة ، والأقل والأكثر . كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب « إنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى فيما ذكر من قصتهم ، وما حل بهم من العقمة والعذاب ، وتبديل النعمة وتحويل العافية على ما ارتكبوه من الكفر والآثام « لَا يَتَّي » أى لعباء عظيمة « لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » أى شأنه الصبر عن الشهوات والهوى والآثام ، والشكر على النعم . قال الأعرابي من قصيدة .

ففي ذاك للمؤتى أسوةً ومأربُ عفى عليها العرمُ
رُخامٌ بنته لهم حميرٌ إذا جاء موارده لم يرمِ
فأروى الزروع وأعنا بها على سعة ماؤهم إذ قسِمَ
فصاروا أيادي ما يقدر ن منه على شربِ طفلٍ فطمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَرِيْقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(١) أخرجه في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٧٨ - باب التحريض على الرمي ، حديث رقم ١٣٨٧ عن سادة بن الأكوع .

[٢١] (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ
مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ، وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)

« وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ وَ قَالَ الزُّخْرِيُّ : قَرِئٌ (صدق) بالتشديد
والتخفيف . ورفع لفظ (إبليس) ونصب (الظن) فن شدد ، فعلى : (حق عليهم ظنه ، ووجده
ظنه صادقا) أى صدق بمعنى حق مجازا . لأنه ظن شيئا فوقع لحقيقته . وقوله (أو وجده ظنه صادقا)
فإن العرب تقول صدقتك ظنك . والمعنى أن إبليس كان يسوّل له ظنه شيئا فيهم . فلما وقع
جعل كأنه صدقه . اه شهاب .

ومن خفف فعلى (صدق في ظنه ، أو صدق يظن ظنا) نحو فعلته جهداً . أى (ظنه) منصوب
على الظرفية بنزع الخافض . وأصله (في ظنه) أى وجد ظنه مصيبا في الواقع ، (فصدق) حينئذ
بمعنى أصاب ، مجازا . أو منصوب على أنه مصدر لفعل مقدّر . كفعلته جهداً ، أى وأنت
تجهد جهداً . فالمصدر وعامله في موقع الحال . اه شهاب .

وبنصب (إبليس) ورفع (الظن) فن شدد فعلى (وجد ظنه صادقا) . ومن خفف ،
فعلى (قال له ظنه الصدق حين خيله إغواؤهم) برفع (إغواؤهم) على الفاعلية . أو نصبه على
الحذف والإيصال ، وفاعله وضمير الظن . أى خيل له إغواءهم . اه شهاب . يقولون
صدقك ظنك .

وبالتخفيف ورفعهما ، أى على إبدال الظن من إبليس ، بدل اشتغال . اه شهاب . على
(صدق عليهم ظن إبليس) . انتهى .

وذلك إما ظنه بسبأ حين رأى انهما كهم في الشهوات ، أو ببني آدم حين رأى ماركب
فيهم من الشهوة والغضب .

« فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَرِيْقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ
مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ » أى ما كان له عليهم من تسليط واستيلاء

بالوسوسة والاستفواء ، إلا لفرض صحيح وحكمة بينة . وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها . وعلل التسليط بالعلم . والمراد ما تعلق به العلم . قاله الزخشرى . يعنى أن العلم المستقبل المعلن به هنا ، ليس هو العلم الأزلى القائم بالذات المقدس ، بل تعلقه بالمعلوم فى عالم الشهادة الذى يترتب عليه الجزاء بالثواب والعقاب . فالمعنى ما سلطناه عليهم إلا ليعبر من كونه الغيب ما علمناه ، فتظهر الحكمة فيه ويتحقق ما أردناه من الجزاء أو لازمه ، وهو ظهور المعلوم . ويجوز أن يكون المعنى : لنجزي على الإيمان وضده . كذا فى (العناية) « وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ » أى رقيب قائم على أحواله وأمره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ، لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ)
« قُلِ » أى للمشركين ، إظهاراً لبطلان ما هم عليه وتبكيتهما لهم « ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ » أى زعمتموهم آلهة « مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ » أى من خير وشر ونفع وضر « فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ » أى شركة ، لا خلقاً ولا ملكاً ولا تصرفاً « وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ » أى معين يعينه على تدبير خلقه ، قال الزخشرى : يريد أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية . فكيف يصح أن يدعوا كما يدعى ، ويرجوا كما يرجى ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ، قَالُوا الْحَقُّ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)
« وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ » أى من المستأهلين لمقام الشفاعة ،

كان النبيين والملائكة . وهذا تكذيب لقولهم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله « حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ » أى كشف الفزع عن قلوب الشافعين والشفوع لهم ، بكلمة يتسكلم بها رب العزة ، فى إطلاق الإذن ، تباشروا بذلك « قَالُوا » أى سائلا بعضهم بعضا « مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ » أى قال القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى « وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ » أى ذو العلو والكبرياء . ليس للملك ولا نبي أن يتسكلم إلا بإذنه ، وأن يشفع إلا لمن ارتضى . قال ابن كثير : هذا أيضا مقام رفيع فى العظمة . وهو أنه تعالى إذا تسكلم بالوحي ، فسمع أهل السموات كلامه ، أرعدوا من الهيبة ، حتى يلحقهم مثل الغشى . قاله ابن مسعود رضى الله عنه ومسروق وغيرهما .

قال الزمخشري : فإن قلت : بم انصل قوله (حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ) ولأى شيء وقعت (حتى) غاية ؟ قلت : بما فهم من هذا الكلام ، من أن ثم انتظارا للإذن وتوقعا وتمهلا وفزعا من الراجين للشفاعة والشفعاء ، هل يؤذن لهم أولا يؤذن . وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملى من الزمان وطول من التربص . ومثل هذه الحال دل عليه قوله عز وجل ^(١) (رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا * يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) أى : وإذا كانت الشفاعة لمن أذن له بهذا الحال ، عظمة وسموا من ذى الجلال ، فأنى ينالها جحد لا يعقل ، لاسيما وهو عدو للكبير المتعال ، فتبين كذبهم فيهم أنهم شفعاء ، وحرمانهم من مقامها ، بأجلى بيان وأفصح مقال . وفى الآية تأويل آخر . وهو أن معنى قوله تعالى (حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ) أى عن قلوب المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا تنبهوا مما كانوا فيه من الغفلة فى الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة ، قالوا ماذا قال ربكم ؟ ف قيل لهم الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا . قال مجاهد : (حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ) أى كشف عنها الغطاء يوم القيامة . وقال الحسن : أى كشف عما فيها من الشك والتكذيب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم :

(١) [٧٨ / النبأ / ٣٧ و ٣٨] .

هذا عند الموت ، أقرّوا حين لا ينفعهم الإقرار . واختار ابن جرير^(١) القول الأول ، وهو أن الضمير عائد إلى الملائكة .

قال ابن كثير : وهذا هو الحق الذي لا مصرية فيه . لصحة الأحاديث فيه والآثار ، أى ولورود ما يؤيده في آية أخرى ، والقرآن يفسر بهضه بعضا وذلك في قوله تعالى^(٢) (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَتْهُم مِّنْ خَشِيَّتِهِمْ مُّشْفِقُونَ) نعم ، النظم الكريم لا يأبى ما ذكره ، إلا أن مراعاة الأشباه والنظائر هو العمدة في باب فهم التأويل ، ما وجد إليها سبيل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلِ اللَّهُ ، وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أمر بتبكيث المشركين بحملهم على الإقرار بأن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فيهما . وقوله « قُلِ اللَّهُ » أى الذى تعترفون بأنه هو الخالق . كما قال تعالى^(٣) (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، فَسَمِعُوه لَوْلَا اللَّهُ) أى حينئذ قامت الحجة عليهم منهم .

« وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » أى وإن أحد الفريقين من الموحدين ، الرازق من السموات والأرض بالعبادة ، ومن الذين يشركون به الجماد الذى لا يوصف بالقدرة على ذرة ، لعل أحد الأمرين من الهدى أو الضلال .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٢ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٨] . (٣) [١٠ / يونس / ٣١] .

قال الزمخشري : وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موالٍ أو منافٍ قال لمن
خوَّط به : قد أنصفك صاحبك . وفي درجته بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ ، دلالة
غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ، ومن هو في الضلال المبين . ولكن التعريض
والتورية أفضل بالمجادل إلى الغرض ، وأهم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفلّ شوكته
بالمهونة ، ونحوه قول الرجل لصاحبه : علم الله الصادق مني ومنك . وإن أحدنا لكاذب .
ومنه بيت حسان ^(١) :

أتهجوه ولست له بكفء فشرُّكما لخيركما الفداء

انتهى .

قال الفاسر : وهذا تفسير مذهب واقتناع مستمذب ، رددته على معنى فزاد رونقاً بالترديد .
واستعادته الخاطر ، كأنني بطيئ الفهم حين يفيد . ولا ينبغي أن ينكر بعد ذلك على الطريقة
التي أكثر تعاطيها متأخرو الفقهاء في مجادلاتهم ومحاوراتهم . وذلك قولهم : أحد الأمرين
لازم على الإبهام . فهذا المسلك من هذا الوادي غير بعيد ، فتأمله ، والله الموفق . انتهى .
قال الشهاب : وهذا فن من فنون البلاغة يسمى (الكلام المنصف) . وقيل إن الآية
على اللف والنشر المرتب . ونظر فيه بأنه لو قصد اللف بأن يكون على هدى راجعاً لقوله (وَإِنَّا)
و (أَوْ فِي ضَلَالٍ) راجعاً لـ (إِيَّاكُمْ) كان العطف بالواو لا بأو . وكونها بمعنى الواو كما
في قوله :

سَيِّانٍ كَسْرُ رَغِيْفِهِ أَوْ كَسْرُ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهِ

(١) من قصيدته التي مطلعها :

عَفَتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءُ إِلَى عِذْرَاءٍ مَنَزَلُهَا خَلَاءُ

يهجو بها أبا سفيان ، وكان هجاء النبي ﷺ قبل إسلامه .

(ذات الأصابع والجواء : موضعان بالشام بأكناف دمشق . وعذراء : موضع على بريد

من دمشق . وعفت : درست) .

بعميد جداً . إلا إنه قيل : لو جعل فيه إيماء لذلك لم يبعد . وإيثار (على) في الهدى و(في) في مقابله ، للدلالة على استعماله صاحب الهدى وتمكفه وإطلاعه على ما يريد ، كالواقف على مكان عال ، أو الراكب على جواد . وانفهام الضال في ضلاله حتى كأنه في مهواة مظلمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ » أى قل لهؤلاء المشركين :

لا تسألون عما أجرمنا من جرم وركبنا من إثم ، ولا نسأل نحن عما تعملون من عمل . قال ابن كثير : معناه التبرى منهم . أى لستم منا ولا نحن منكم . بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده وإفراد العباد له . فإن أجبتهم فأنتم منا ونحن منكم وإن كذبتهم ففحن براء منكم وأنتم براء منا . كما قال تعالى ^(١) (وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) وكنه قوله ^(٢) (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) السورة . انتهى .

وما ذكره معنى دقيق ، قل من يتفطن له ، أسميه التفسير بالأشياء والنظائر . وهو حل آية موجزة أو مجملة على آية تشبهها مطولة أو مبينة . ولا يدرك هذا إلا الراسخ في فن التأويل ، الولع بتدبر التنزيل ، ومن لطائف الآية ما ذكره الزمخشري والمتنصف ، من أن هذا القول أدخل في الإنصاف من الأول . حيث أسند الإجرام إلى النفس ، وأراد به الزلات والصغائر التي لا يخلو عنها مؤمن . وأسند العمل إلى المخاطبين ، وأراد به الكفر والمعاصي والكبائر . فعبر عن الهفوات بما يعبر به عن العظام . وعن العظام بما يعبر به عن الهفوات ، التزاماً للإنصاف . وزيادة على ذلك ، أنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي ، الذي يعطى تحقيق المعنى . وعن العمل المنسوب إلى الخصى بما لا يعطى ذلك . والله أعلم .

(١) [١٠ / يونس / ٤١] . (٢) [١٠٩ / الكافرون / ١ - ٣] .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٢٦] (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)

« قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا » أى يوم القيامة فى صعيد واحد . « ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ »
أى يقضى بالعدل . لأن أحد فريقينا على هدى والآخر على ضلال . فيتين يومئذ المهتدى منا
من الضال ، ويجزى كلا بعمله ، كما قال تعالى ^(١) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَخُونَ *
فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بَيِّنَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) ولهذا قال سبحانه
« وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ » أى الحاكم العادل العليم بالقضاء بين خلقه ، لأنه لا تخفى عليه خافية ،
ولا يحتاج إلى شهود تعرفه الحق من المبطل .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٢٧] (قُلْ أَرُونِى الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا ، بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« قُلْ أَرُونِى الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ » أى جعلتموها لله أنداداً ، وصيرتموها له
عدلاً . قال أبو السعود : أريد بأمرهم بإراءة الأصنام ، مع كونها بمرأى منه عليه الصلاة
والسلام . إظهار خطئهم العظيم وإطلاعهم على بطلان رأيهم . أى أرونيها لأنظر بأى صفة
ألحقتهموا بالله الذى ليس كمثل شئ فى استحقاق العبادة . وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إزام
الحجة عليهم . وقد جوز العرب فى (رأى) هنا أن تكون علمية متمدية بهمزة النقل ، إلى
ثلاثة مفاعيل : ياء المتكلم والموصول وشركاء . وعائد الموصول محذوف . أى ألحقتهم . وأن
تكون بصرية تعدت بالنقل لاثنتين : ياء المتكلم والموصول ، و (شركاء) حال . ولا ضعف

(١) [٣٠ / الروم / ١٤ - ١٦] .

في هذا كما قاله ابن عطية . بل فيه توبيخ لهم ، إذ لم يرد حقيقة . لأنه كان يراهم ويعلمهم . فهو مجاز وتخييل . والمعنى : ما زعمتموه شريكاً إذا برز للعيون وهو خشب وحجر ، تمت فضيحتكم . وقوله تعالى « كَلَّا » ردع لهم عن المشاركة ، بعد إبطال المقايضة « بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » أى الموصوف بالغلبة القاهرة والحكمة الباهرة . فإين شركاؤكم التى هى أخس الأشياء وأذلها ، من هذه الرتبة العالية . والضمير إما لله عز وعلا ، أو للشأن . قاله أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى وما أرسلناك إلا لإرسالة عامة لجميع الخلائق من المكلفين . تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار ، كقوله تبارك^(١) وتعالى (قُلْ يَسْأَلُهَا النَّاسُ أَتَى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)^(٢) (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) .

(وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أى فيحملهم جهلهم على ما هم فيه من الغي والضلال كقوله عز وجل^(٣) (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)^(٤) (وَإِنْ تُطِيعِ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) قال ابن عباس - فيما رواه ابن أبى حاتم - إن الله تعالى فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا ابن عباس ! فبِمَ فضله الله على الأنبياء ؟ قال رضى الله عنه : إن الله تعالى قال^(٥) (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٨] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ١] . (٣) [١٢ / يوسف / ١٠٣] .

(٤) [٦ / الأنعام / ١١٦] . (٥) [١٤ / إبراهيم / ٤] .

يَلْسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) ، وقال للنبي ﷺ (١) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ)
فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس .

قال ابن كثير : وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنهما قد ثبت في الصحيحين .
رفعه عن جابر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ (٢) : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من
الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل
من أمتي أدركته الصلاة فليصل . وأحللت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي . وأعطيت الشفاعة .
وكان النبي يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة . وفي الصحيح أيضا (٣) : أن رسول الله
ﷺ قال : بعثت إلى الأسود والأحمر . قال مجاهد : يعني الجن والإنس . وقال غيره : يعني
العرب والعجم اه . والتحقيق في معنى عموم إرساله وشمول بعثته ، هو بحيثه بشرع ينطبق
على مصالح الناس وحاجاتهم أينما كانوا ، وأي زمان وجدوا ، مما لم يتفق في شرع قبله قط .
ولهذا ختمت النبوات بنبوته ﷺ ، كما تقرر في موضعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)

[٣٠] (قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَغْفِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْدِمُونَ)

» وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٨] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٧ كتاب التيمم ، ١ - باب قول الله تعالى فلم تجدوا ماء

فتيمموا ، حديث رقم ٢٣٩ ، عن جابر بن عبد الله .

(٣) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٣ عن جابر

ابن عبد الله (طبعنا) .

لَا تَسْتَخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ » يعنون بالوعد المُنذر به استهزاء ، كقوله تعالى (١) « يَسْتَعِجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ » وقوله (٢) « وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ أَضْطُغِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » وهو ما نزل قبل القرآن من كتبه تعالى « وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ » أى يتجادبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم . ثم أبدل من (يَرْجِعُ) قوله « يَقُولُ الَّذِينَ أَضْطُغِعُوا » وهم الاتباع « لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا » وهم قادتهم وسادتهم « لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ أَضْطُغِعُوا أَنَحْنُ صَدَدٌ نَّكُمُ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ، بَلْ كُنْتُمْ شُجْرَمِينَ)

« قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ أَضْطُغِعُوا أَنَحْنُ صَدَدٌ نَّكُمُ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شُجْرَمِينَ » أى نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنادعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التى جاءت بها الرسل لشمهوتكم واختياركم لذلك .

(١) [٤٢ / الشورى / ١٨] . (٢) [١١ / هود / ١٠٤ و ١٠٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ، وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى مكرهم فيهما وإغراؤكم وتمنيئكم لنا « إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا » أى نظراء وآلهة معه « وَأَسْرُوا » أى الجميع من السادة والأنباع « النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا » وهى السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم « هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى بأعمالهم كل بحسبه . للقيادة عذاب بحسبهم . وللأنباع بحسبهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

[٣٥] (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » أى زعموا أنه أكرمهم الله بذلك فى الدنيا ، فلا يمدبهم فى الآخرة على تقدير وقوعها . وتوها بأنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم . ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم . وقد أبطل الله تعالى حسابهم ذلك بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أى يضيق عليه حسب ما اقتضته حكمته ومشيتته في عباده ، من يجب ومن لا يجب ، وهو أعلم بمقتضياته وشؤونه . فلا يقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب ، اللذين مناطهما الطاعة وعدمها . ولذا قال « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » ذلك . فيزعمون أن مدار البسط الكرامة ، والتضييق الهوان . ويجهلون أن مناط الفوز والقرب منه تعالى ، إنما هو الكمال النفسية . وذلك بصدق الإيمان وحسن الانباع . كما قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَضْعِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ)

« وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ » أى بالمزية التي تقربكم قربة . فـ (زُلْفَىٰ) محلها النصب « إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَضْعِ » أى الثواب المضاعف « بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ » أى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ومن نظائر الآية قوله تعالى ^(١) (أَيْحْسِبُونَ أَنَّكُمْ مُّبْدَهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) وقوله سبحانه ^(٢) (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَهُمْ بَهَا فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٦ و ٥٥] . (٢) [٩ / التوبة / ٥٥] .

وَهُمْ كَافِرُونَ) . وروى الإمام أحمد^(١) ومسلم^(٢) عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)

« وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا » أى بالصدقة عنها والظعن فيها « مُعْجِزِينَ » أى قاصدين المعاجزة والمغالبة والقهر « أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ » أى فى عذاب جهنم محضرون يوم القيامة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (قُلْ إِنْ رَّبِّي يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ،

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

« قُلْ إِنْ رَّبِّي يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ » أى يعوضه . فإن بمابيع خزائنه لا تنضب . وسجائب أرزاقه سحابة الليل والنهار « وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » أى أعلاهم . لأنه خالق الرزق وخالق الأسباب التى ينتفع بها المرزوق بالرزق . روى أبو يعلى عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض . يعرض الموسر على ما فى يده حذار الإتقاق . ثم تلا هذه الآية (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) وقال مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه الآية (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ) إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٨٥ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه فى : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٣٤ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ)

[٤١] (قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ » قال الزمخشري : هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار ، وورد على المثل السائر (إياك أعني واسمعي يا جارة) ونحوه قوله تعالى^(١) (أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ) وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزّهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير . والغرض أن يقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا . فيكون تقريرهم أشد ، وتعيرهم أبلغ ، وخجلهم أعظم ، وهوانهم أزم . ويكون اقتصاص ذلك لطفاً لمن سمعه ، وزاجراً لمن اقتص عليه . انتهى .

وتخصيص الملائكة ، لأنهم أشرف الأنداد عند مشركي العرب . ولأن عبادتهم مبدأ الشرك وأصله . لزعمهم أن الأوثان على صور الهياكل العلوية المقربة . فتسكون شفعاء لهم . وقوله تعالى (أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ) أي : أباذنكم كان ذلك . كما قال تعالى^(٢) (أَأَنْتُمْ أَضَلُّتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ) وكما يقول تعالى لعيسى عليه السلام^(٣) (أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ) وهكذا تقول

(١) [٥ / المائدة / ١١٦] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ١٧] .

(٣) [٥ / المائدة / ١١٦] .

الملائكة (سُبْحَانَكَ) أى تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله (أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ) أى أنت الذى نواليه من دونهم ، إذ لا موالاة بيننا وبينهم . فنبرأ إليك منهم . بينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار ، براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم . وقولهم (بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ) أى الشياطين ، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلواهم . والضمير الأول فى قولهم (أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) الإنس أو المشركين . والأكثر بمعنى الكل .
والثانى للجن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا) وَتَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ

« فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا » أى لأن الأمر كله فيه لله . لأن الدار دار جزاء وهو المجازى وحده . قال أبو السعود : وهذا من جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتعزّة والتبرؤ عما نسب إليهم الكفرة . يخاطبون بذلك على رؤوس الأشهاد ، إظهاراً لمعجزهم وقصورهم عند عبادتهم ، وتنصيصاً على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية « وَتَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا » وهم المشركون « ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » ثم بين جملة أخرى من كفرانهم بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَإِذَا تَتَلَا عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَافُؤٌ مُفْتَرًى ، وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

« وَإِذَا تَتَلَا عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا » يعنون رسول الله ﷺ « إِلَّا رَجُلٌ

يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا «أَيُّ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ» إِلَّا إِلَهٌ أَنْفَكْهُ مُفْتَرًى، وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ)

« وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ » أَيْ

ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبيا قبل محمد ﷺ . وقد كانوا

يودون ذلك ويقولون : لوجاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكننا أهدى من غيرنا . فلما من الله

عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه . ثم هددهم سبحانه بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا

رُسُلِي، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

« وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أَيْ مِنْ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ كَمَا كَذَّبُوا

« وَمَا بَلَغُوا » أَيْ هَؤُلَاءِ « مِعْشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ » يَعْنِي أَوْلَئِكَ، مِنَ الْمَالِ وَبَسْطَةِ الْمُلْكِ وَالْعِمْرَانِ

وَالْمَدِينَةِ « فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » أَيْ عِقَابِي وَنِكَالِي وَانْتِقَامِي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ، أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلٍ مُنْقَذَةٍ أَوْ مِمَّا يَخْلُكُكُمْ مَتَّعَيْنًا، أَمْ تَتَفَكَّرُونَ،

مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ، إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

« قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ » أَيْ بِخِصْلَةٍ وَاحِدَةٍ إِنْ فَعَلْتُمُوهَا أُصَبِّتُمْ

الْحَقُّ وَقَدْ فُسِّرَ بِقَوْلِهِ « أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلٍ مُنْقَذَةٍ أَوْ مِمَّا يَخْلُكُكُمْ مَتَّعَيْنًا » أَيْ قِيَامًا خَالِصًا لِلَّهِ بِإِعْجَابَةٍ

ولا مراعاة، اثنين اثنين وواحدًا واحدًا «ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا» أى فى أمره ﷺ وما جاء به من الهدى والإصلاح وتهذيب الأخلاق، ورفع النفس عن عبادة ما هو أخط منها من الأوثان، إلى عبادة فاطر الأرض والسموات، واتباع الأحسن، وبند التقاليد، وإنزال الرؤساء إلى مصاف المرؤوسين رغبة فى الإخاء والمساواة، إلى غير ذلك من محاسن الإسلام وخصائصه المعروفة فى الكتب المؤلفة فى ذلك. وقوله تعالى «مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جَنَّةٍ» أى جنون. مستأنف منبه لهم على أن ما عرفوه من راحة عقله كاف فى ترجيح صدقه. فإنه لا يدعه أن يقصدى لادعاء أمر خطير وخطب عظيم من غير تحقق وثوق ببرهان. فيفتضح على رؤوس الأشهاد، ويلقى نفسه إلى الهلاك. فكيف وقد انضم إليه معجزات كثيرة؟ وجوز كون الجملة معلقة عنها. لقول ابن مالك: إن (تفكر) يعلق حملاً على أفعال القلوب. والتعبير عنه ﷺ: (صاحبهم)، للإيماء أن حاله معروف مشهور بينهم. لأنه نشأ بين أظهرهم معروفًا بقوة العقل ورزاة الحلم وسداد القول والفعل. «إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» وهو عذاب الآخرة والمآل.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٧] (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

[٤٨] (قُلْ إِنْ رَبِّى يَقْذِفْ بِالْحَقِّ عَلَ لُغَيْبٍ)

[٤٩] (قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ)

«قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ» أى أى شئ سألتم من أجر على الرسالة فهو لكم. والمراد نفي السؤال رأساً. وإحماض النصيح كفاية، لأن ما يسأله السائل، يكون له. فجعله للمستأول عنه، كفاية عن أنه لا يسأل أصلاً. و (ما) على هذا شرطية. وجوز كونها

موصولة مراداً بها مسائلهم ^(١) (مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا) وقوله ^(٢) (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ) واتخاذ السبيل إليه تعالى منفعتهم الكبرى . وقرباه عليه السلام قرباهم . وجوز أيضاً كونها نافية . وقوله (فَهُوَ لَكُمْ) جواب شرط مقدر . أى فإذا لم أسألكم فهو لكم « إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ » أى يرمى به الباطل فيدمغه ويذهقه . أو يرمى به فى أقطار الآفاق ، فيكون وعدا بإظهار الإسلام وإعلاء كلمة الحق « عَلَّمُ الْغُيُوبِ * قُلْ جَاءَ الْحَقُّ » أى ظهر ، وهو الإسلام ومحاسنه « وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعْمِدُ » كناية عن زهوق الباطل ومحو أثره . مأخوذ من هلاك الحى . فإنه مادام موجودا، إما أن يبدىء فعلا أو يعيده . فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة . ثم شاع ذلك فى كل مذهب ، وإن لم يبق له أثر، وإن يكن ذا روح . وجوز كون (ما) استفهامية منتصبة بما بعده . أى : أى شىء يقدر عليه .

تنبيه :

فى (الإِ كليل) : فى الآية استحباب هذا القول عند إزالة المنكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ، وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ رَبِّي ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)

« قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ » أى عن الطريق الحق « فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي » أى لأن وبال ذلك عائد عليها، أو على ذاتي، لا على غيري « وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ رَبِّي » أى من الرشد والحق المبين « إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ » فإن قيل : مقتضى المقابلة مع الجملة قبلها، أن يقال (وإن

(٢) [٤٢ / الشورى / ٢٣] .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥٧] .

اهتديت فإنما أهتدى لها) فلم عدل عنها إلى ما ذكر ؟ قيل : إن المقابلة تكون باللفظ وتكون بالمعنى . وما هنا من الثانى . بيانه أن النفس كل ما عليها فهو بها ، أى : كل ما هو وبال عليها ، وضار لها ، فهو بسببها ، ومنها . لأنها الأمانة بالسوء . وكل ما هو لها مما ينفعها ، فبهداية ربها وتوفيقه إياها .

وهذا حكم عام لكل مكلف . وإنما أمر رسول الله ﷺ أن يسند ذلك إلى نفسه . لأن (الرسول) إذا دخل في عمومه ، مع علو محله وسداد طريقته ، كان غيره أولى به . أشار لهذا ، الفاضل ابن الأثير في (المثل السائر) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرْعَوْنُ فَلَا قُوَّةَ وَأَخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ)

« وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرْعَوْنُ » أى هؤلاء الكذوبون عند الموت أو البعث أو ظهور الحق وسلطانه ، ودخولهم تحت أمره « فَلَا قُوَّةَ » أى لهم ، بهرب أو التجاء . إذ لا وزر لهم ولا ملجأ « وَأَخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ » أى من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا . أو من الموقف إلى النار إذا بعثوا . أو ظفر بهم بسهولة بعد تعذره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ ءِىَ لَهْمُ التَّنَافُسِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ)

« وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ » أى بمحمد ﷺ ، أو القرآن « وَأَيُّ لَهْمُ التَّنَافُسِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ » أى : ومن أين لهم تناول الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم ، لأنهم صاروا إلى الدار الآخرة ، وهى دار الجزاء ، لا دار الابتلاء . أو : لأنهم آمنوا بلسانهم ولم يدخل الإيمان قلوبهم ، أى (على تفسير (إِذْ فِرْعَوْنُ) بظهور الحق عليهم فى حياتهم . اه منه) قال الزمخشري : التناوش والتناول ، أخوان . إلا أن التناوش ، تناول سهل لشيء قريب .

يقال : ناشه ينوشه ، وتناوشه القوم . ويقال تناوشوا في الحرب . ناش بعضهم بعضا . وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون . وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت ، كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا . مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة ، كما يتناوله الآخر من قيس ذراع ، تناولا سهلا لا تعب فيه . انتهى . أى ففيه استعارة تمثيلية . شبه إيمانهم حيث لا يقبل ، بمن كان عنده شيء يمكن أخذه . فلما بعد عنه فرسخا ، مديده لتناوله . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ)

« وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ » حال أو معطوف أو مستأنف . والأول أقرب . « وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ » أى يرجون بالظن فيتكلمون بما لم ينشأ عن تحقيق من أقوالهم الباطلة . كقولهم : ساحر وشاعر وجنون وما نحن بجمعين . ونحو ذلك . فكله مقذوف من جهة بعيدة ، لا قرب لمصدقها بوجه ما .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ

كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ)

« وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ » أى من تقع الإيمان يومئذ ، والفجأة به من النار . أو من أن يدال لهم الأمر . لأنه جاء نصر الله والفتح « كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ » أى بأشباحهم من كفره الأمم « إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ » من (أرابه) أوقعه في ريبة وتهمة . فالهمزة للتعدية . أو من (أراب الرجل) أى صار ذاربية . وهو مجاز ، إما بتشبيه الشك بإنسان ، على أنه استعارة مكنية وتخييلية . أو على أنه إسناد مجازي ، أسند فيه ما لصاحب الشك ، للشك ، للمبالغة . أفاده الشهاب .

تنبيه :

فى الإكليل ؛ قال ابن الفرّس : احتج بهذه الآية بعض المفسرين ، على أن الشاك كافر .
وردّها على من زعم أنه ليس بكافر ، وأن الله لا يعذب على الشك . انتهى .
وعن قتادة : إياكم والشك والريية . فإن من مات على شكٍ بُعث عليه . ومن مات
على يقين بُعث عليه .
أحياناً الله وبعثنا على اليقين ، إنه أرحم الراحمين ، وولى المؤمنين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٥ - سُورَةُ فَاطِرٍ

سميت بذلك لما جاء فيها من خلق الملائكة ، وجعلهم ذوى أجنحة متنوعة في العدد ، الدالّ على عجيب صنعه تعالى وباهر قدرته .

وقال المهايى : سميت بها لاشتمالها على بيان تفصيل رسالتهم ، من جهة أخذهم الفيض عن الله ، وإيصاله إلى خلقه ، من جهة أو جهتين أو ثلاث أو أكثر . ليشعر أن الرسالة العامة لهم ، إذا كانت كذلك ، فكيف الرسالة الخاصة ؟ مثل إنزال القرآن . فيجوز أن يكون له جهات كثيرة .

وقد روى أنه كان لجبريل ستمائة جناح . انتهى .

وتسمى هذه السورة سورة (فاطر) لذكر هذا الاسم الجليل والنعمة الجليل في طليعتها . وهذه السورة ختام السور المفتحة بالحمد ، التي فصلت فيها النعم الأربع ، التي هي مجامع النعم . لأن نعم الله تعالى قسمان : عاجلة وآجلة . والعاجلة وجود وبقاء ، والآجلة كذلك إيجاد مرة وإبقاء أخرى . كما بينه الرازى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ

مُتَنِيٍّ وَوُثِّلَتْ وَرُبْعٌ ، يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٢] (مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ

مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى مبتدئها ومبدعها من غير سبق مثل

« جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مُتَنِيٍّ وَوُثِّلَتْ وَرُبْعٌ » أى ذوى أجنحة

متعددة متفاوتة فى العدد ، حسب تفاوت ما لهم من المراتب . ينزلون بها ويعرجون

أو يسرعون بها . وفى الصحيح ^(١) أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة أسرى به ،

وله ستائة جناح . ولهذا قال سبحانه « يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ » أى يزيد فى خلق

الأجنحة وغيره ما يشاء ، مما تقتضيه حكمته « إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا يَفْتَحُ

اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ » أى نعمة سماوية كانت أو أرضية « فَلَا مُمْسِكَ لَهَا » أى لا أحد

يقدر على إمساكها « وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد إمساكه

« وَهُوَ الْعَزِيزُ » الغالب على كل ما يشاء « الْحَكِيمُ » أى فى أمره وصفه .

(١) أخرجه البخارى فى : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ٧ - باب إذا قال أحدكم آمين

والملائكة فى السماء ، حديث ١٥٢٦ ، عن ابن مسعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ » أى إنعامه لتستدلوا بها على وحدته فى ألوهيته . لأنه المنفرد بإرسالها وحده . ولا يصح لمن انفرد بالإنعام أن يشرك معه غيره . لأنه كفران له موجب لغضبه . وهذا ما أشار له بقوله تعالى « هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » أى المطر والنبات « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ » أى تصرفون عن التوحيد الواجب - لأنه مقتضى شكر النعم - إلى الشرك والكفر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

« وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » فىجازى المكذب وشيعته بالخزى وظهور الحق عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى ما وعد به من جزائه بالثواب إن صدقتم فى الاتباع . وبالعقاب ، إن عصيتم « فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » أى بأن يذهلكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها ، عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله « وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ » أى الشيطان . وقرئ بالضم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

«إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ» أى باتباع الهوى والركون إلى الدنيا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

[٨] (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) «الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ» * أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا» أى : فمن حسن له عمله السيئ ، بأن غلب هواه على عقله ، حتى انعكس رأيه فرأى الباطل حقا والقيبح حسنا ، كمن لم يزين له ، بل هدى فعرّف الحق وميز الحسن من السيئ ؟ فخذف الجواب لدلالة قوله :

« فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » أى إلى الإيمان واتباع الحق . وجوز

أن يكون تقديره : أفمن زين له سوء عمله ، ذهبت نفسك عليهم حسرة ، بقوله تعالى « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ » أى فلا تهلك نفسك حزنا على ضلالهم وعدم اتباعهم لك « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » أى فيجازيهم عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُشِيرُ سَحَابًا فَمَسُقْنَهُ إِلَى الْبَلَدِ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَلِكَ النُّشُورُ)

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُشِيرُ سَحَابًا فَمَسُقْنَهُ إِلَى الْبَلَدِ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَلِكَ النُّشُورُ » أى مثل إحياء الموات ، إحياء الأموات . وكثيرا ما يستدل تعالى على العباد بإحيائه الأرض بعد موتها ، ليعتبر المرتاب في هذا . فإنه من أظهر الآيات وأوضحها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ)

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ » أى الشرف والرفعة « فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا » أى فليطلبها من عنده ، باتباع شريعته ، وموالاته أنبيائه ورسله ، والتأسي بهم في الصلاح والإصلاح ، والصبر والثبات ، وإطراح كل ملامة رغبة في الحق وعملا بالصدق . وهذا كآية^(١) (الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئْتَهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) وكآية^(٢) (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ » وهو الداعي إلى الحق والإصلاح ، والمنبه على سبل الضلال والفساد « وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » أى يرفع الكلمُ العمل الصالح ، على أن يكون المستكن للكلم . إشارة إلى أن العمل لا يقبل إلا بالكلم المؤثر في إبلاغ دعوة الخير . والضمير المستتر للعمل ، والبارز للكلم . أى يكون العمل

(١) [٤ / النساء / ١٣٩] . (٢) [٦٣ / المنافقون / ٨] .

الصالح موجبا لرفعها وقبولها لأنه يحققها ويصدقها ، كما قال تعالى عن شعيب عليه السلام^(١) (وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَحَاْلِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ « أَى الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الْمَفْسَدَةِ لِصَلَاحِ الْأُمَّةِ وَقيامِ عَمَرَانِهَا » لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبَوَّرُ « أَى يَضْمَحَل . لَأَن الْحَقَّ يَعْلُو وَلَا يَعْلَى عَلَيْهِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ ، وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ، إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

«وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا» أَى ذَكَرْنَا وَإِنَّا ، لَطَفًا مِنْهُ وَرَحْمَةً « وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ » أَى مِنْ أَحَدٍ . وَإِنَّمَا سَمِيَ مُعَمِّرًا لِما يُوَوَّلُ إِلَيْهِ . أَى وَمَا يَمُدُّ فى عَمْرٍ أَحَدٍ « وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ » وَهُوَ عِلْمُهُ تَعَالَى الَّذى سَبَقَ ، يَبْلُغُ أَصْلَهُ إِلَيْهِ « إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » أَى : الْحَفْظُ وَالزِّيَادَةُ أَوْ النِّقْصُ ، سَهْلٌ . لَشُمُولِ عِلْمِهِ وَعَمُومِ قُدْرَتِهِ .

لطيفة :

الضمير فى (عمره) للمعمر قبله . باعتبار الأصل المحوّل عنه . لأن الأصل (وما يعمر من أحد) كما ذكرنا . أَوْهُوَ عَلَى التَّسَامُحِ الْمَعْرُوفِ فِيهِ ، ثِقَةً فى تأويله بِأَفْهَامِ السَّامِعِينَ : كَقَوْلِهِمْ (لَهُ عَلَى دَرْهَمٍ وَنُصْفِهِ) أَى نِصْفُ دَرْهَمٍ آخَرٍ . أَوْ لِلْمُنْقُوصِ مِنْ عَمْرِهِ لَلمعمر ، كما فى الوجه السابق . وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يَصْرَحْ بِهِ فى حُكْمِ الْمَذْكُورِ ، كما قِيلَ (وَبُضْداها تَبَيَّنَ الْأَشْيَاءُ) فَيَعُودُ

الضمير على ما علم من السياق . وقد أطال بعضهم الكلام في ذلك . ومحصله ، كما ذكره الشهاب ، أنه اختلف في معنى (مُعَمَّرٌ) فقيل : المزداعمره . بدليل ما يقابله من قوله (يُنْقَصُ) الخ . وقيل (من يجعل له عمر) . وهل هو واحد أو شخصان ؟ فعلى الثانى هو شخص واحد . قالوا مثلاً : يكتب عمره مائة ثم يكتب تحته مضى يوم ، مضى يومان ، وهكذا . فكتابة الأصل هى التعمير . والكتابة بعد ذلك هو النقص . كما قيل :

حياتك أنقاسٌ تعدُّ فكلاما مضى نفسٌ منها انتقصت به جزءاً

والضمير فى (عمره) حينئذ راجع إلى المذكور . والمعمّر هو الذى جعل الله له عمراً طال أو قصر . وعلى القول الأول هو شخصان . والمعمّر الذى يزيد فى عمره . والضمير حينئذ راجع إلى (معمر آخر) إذ لا يكون الزيد من عمره مقوصاً من عمره . وهذا قول الفراء وبعض النحويين . وهو استخدام أو شبهه به . انتهى .

ثم أشار تعالى لآيات أخرى من آيات قدرته ووحدانيته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ

أَجَاجٌ ، وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا ،

وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ » أى شديد العذوبة « سَائِغٌ شَرَابُهُ وَ

وَهَذَا مِلْحٌ أَجَاجٌ » أى قوى الملوحة « وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا » يعنى السمك

« وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا » أى زينة تتحلّون بها . كما قال تعالى ^(١) (يَخْرُجُ مِنْهُمَا

الذَّوْبِيُّ وَالْمَرْجَانُ) . « وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرَ » أى تمخر الماء وتشقه بجرها

« لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » أى بالتنقل فيها « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ)

« يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » يعنى مدة دوره ، أو منتهاه ، أو يوم القيامة « ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ » أى فأتى يستأهلون العبادة . و (القطمير) لفافة النواة . وهو مثل فى القلة والحقارة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ، وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشْرِكِكُمْ ، وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

« إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ » لأنهم جاد « وَلَوْ سَمِعُوا » أى على الفرض « مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ » أى لعدم قدرتهم على النفع « وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشْرِكِكُمْ » أى يقرون ببطلانه ، وأن لا أمر لهم فيه « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » أى لا يخبرك بالأمور الخبير . مثل خبير عظيم أخبرك به . وهو الحق سبحانه . فإنه الخبير بكنه الأمور دون سائر الخبيرين . والمراد تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم ، ونفى ما يدعون لهم من الإلهية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ » أى رحمته وعنايته ولطفه وإمداده فى كل

لحمة ونفس . وسرُّ وصل الآية بما قبلها من التمسك بالأنداد ، لتذكيرهم بالالتجاء إليه تعالى ، والتضرع والابتهاال إذا مسهم الضر وأخذت البأساء بمخائقتهم . فإنهم يشعرون من أنفسهم دافعا إلى سؤاله لا مردَّ له . وحائثا إلى اللجأ إليه لا صاد عنه . كما بين في غير آية . مما يدل على أنه تعالى هو الحقيق بالعبادة ، لغناه المطلق ، كما قال « وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » أى المحمود لنعمه التى لا تحصى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

[١٧] (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

« إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ » أى بممتنع . قال الزخشرى : وهذا غضب عليهم ، لا تخاذلهم له أندادا ، وكفرهم بآيه ، ومعاصيهم . كما قال ^(١) (وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَلَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِلْهِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ

شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يُحْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

« وَلَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى لا تحمل نفس آثمة « وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى إثم نفس أخرى ، بل إنما تحمل وزرها الذى اقترفته ، لا تؤخذ نفس بذنب نفس . كما تأخذ جبارة الدنيا الولى بالولى والجار بالجار ، ولا يرد آية ^(٢) (وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ لَا مَعَ أَثْقَالِهِمْ) لأنها فى الضالين المضلين ، وأنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم . وذلك كله أوزارهم ، ما فيها شىء من وزر غيرهم .

(١) [٤٧ / محمد / ٣٨] . (٢) [٢٩ / العنكبوت / ١٣] .

« وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ نَفْسٍ أُثْقَلَتِهَا الْأَوْزَارُ » إِلَىٰ حِمْلِهَا « أَىٰ إِلَىٰ حَمْلِ بَعْضِ أَوْزَارِهَا لِيُخَفَّفَ عَنْهَا » لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ « أَىٰ لَمْ تَجِبْ وَلَمْ تُفْتِ بِحَمْلِ شَيْءٍ » وَلَوْ كَانَ « أَىٰ المدعو المفهوم من الدعوة » ذَا قُرْبَىٰ « أَىٰ ذَا قَرَابَةٍ مِنَ الدَّاعِي ، مِنْ أَبٍ أَوْ وَلَدٍ أَوْ أَخٍ . وَهَذَا قَطْعٌ لِأَطْمَاعِ انْتِفَاعِهِمْ بِقَرَابَتِهِمْ وَغَنَائِهِمْ عَنْهُمْ . وَأَنَّهُ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ، وَأَنْ كُلَّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهين . ثُمَّ بَيْنَ مَنْ يَتَعَطَّ وَيَتَذَكَّرُ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ « إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ » أَىٰ تَطَهَّرَ مِنْ أَوْضَارِ الْأَوْزَارِ « فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ » وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ)

« وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ » مثل للكافر والمؤمن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ)

« وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ » مثل للحق والباطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُّ)

« وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُّ » مثل للثواب والعقاب و (الْحَرُّ) الريح الحارة بالليل ،

وقد تكون بالنهار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ،

وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّنْ فِي الْقُبُورِ)

« وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ » تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أى: ما يستوى أحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله ومعرفة تنزيله ، وأموات القلوب. لغلبة الكفر عليها حتى صارت لا تعقل عن الله أمره ونهيه، ولا تعرف الهدى من الضلال «إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ» أى يوفقه لفهم آياته والاتعاظ بعظاته «وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ» أى: كما لا يقدر أن يسمع من في القبور كتاب الله ، فيهديهم به إلى سبيل الرشاد ، فكذلك لا يقدر أن ينتفع بمواعظ الله وبيان حججه ، مَنْ كان ميت القلب عن معرفة الله وفهم كتابه وواضح حججه. وهذا ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات ، وإشباع في إقناطه عليه الصلاة والسلام، من إيمانهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ)

«إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ» أى ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر. فَإِنْ كَانَ الْمُنذَرُ مِمَّنْ يَسْمَعُ الْإِنذَارَ نَقَعَ . وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَصْرِيِّينَ فَلَا عَلَيْكَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ)

«إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ» أى وما من أمة من الأمم الدائمة بجملة ، إلا مضى فيها نذير من قبلك ينذرهم على كفرهم بالله ، ويزيح عنهم العلل كما قال تعالى ^(١) (إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) وكتوبه سبحانه ^(٢) (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) .

(١) [١٣ / الرعد / ٧] . (٢) [١٦ / النحل / ٣٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)

«وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ» أى : وإن يكذبوك لم يستجيبوا لك ، فلا تبال بهم وتأس عن كذب من الرسل السالفة . فقد جاءهم بالآيات والحوارق المحسوسة على صحة نبوتهم ، وبالصحف المرشدة لهم إلى مسالك الفلاح والنجاح ، وبالكتاب المنير لمن تدبره وتأمله ، أنه الحق الناطق بالصواب والصدق . وليس المراد أن كل رسول جاء بجميع مآذ كر ، حتى يلزم أن يكون لكل رسول كتاب ، بل المراد أن بعض الرسل جاء بهذا وبعضهم جاء بهذا . وجوز أن يراد بالجميع واحد ، والعطف لتغاير الأوصاف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

«ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» أى إنكارى بالعقوبة . وفيه مزيد تشديد وتهويل لها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا

أَلْوَانُهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَايِبُ سُودٌ)

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَايِبُ سُودٌ» قرأ الجمهور (جود) بضم الجيم وفتح الدال ، جمع (جدة) بالضم ، وهى الطريقة من (جده) إذا قطعه ، أى ومن الجبال

ذو وجدد ، أى طرائق بيض و حمر . وإنما قدر المضاف ، لأن الجبال ليست نفس الطرائق .
و (غرايب) جمع (غريب) وهو الأسود المتناهى فى السواد . يقال : أسود غريب ، كما يقال :
أحمر قان ، وأصفر فاقع ، تأكيذا . وإنما قدم هنا ، ومن حق التوكيد أن يتبع المؤكد للمبالغة
ورأى بعضهم أنه مقدم من تأخير ، ذهابا إلى جواز تقديم الصفة على موصوفها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)

« وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ » أى اختلافا كذلك ،
أى كاختلاف الثمرات والجبال . وقوله تعالى « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » تكملة
لقوله تعالى ^(١) (إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ) بتعيين من يخشاه عز وجل من
الناس ، بعد بيان اختلاف طبقاتهم ، وتباين مراتبهم . أما فى الأوصاف المعنوية فبطريق
التمثيل . وأما فى الأوصاف الصورية فبطريق التصريح ، توفية لكل واحدة منهما حقها اللائق
بها من البيان . أى إنما يخشاه تعالى بالغيب ، العالمون به عز وجل ، وبما يليق به من صفاته
الجليلة وأفعاله الجليلة . لما أن مدار الخشية معرفة المخشى والعلم بشؤونه . فمن كان أعلم به تعالى ،
كان أخشى منه عز وجل . كما قال ^(٢) عليه الصلاة والسلام : أنا أخشاكم لله وأتقاكم له . ولذلك
عقب بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته . وحيث كان الكفرة بمزمل من هذه المعرفة ، امتنع
إنذارهم بالسكينة . أفاده أبو السمود .

وقال القاشانى : أى ما يخشى الله إلا العلماء العرفاء به . لأن الخشية ليست هى خوف
العقاب ، بل هيئة فى القلب خشوعية انكسارية عند تصور وصف العظمة واستحضاره لها .

(١) [٣٥ / فاطر / ١٨] . (٢) أخرجه البخارى فى : ٦٧ - كتاب النكاح ،

١ - باب الترغيب فى النكاح ، حديث رقم ٢٠٩٩ عن أنس بن مالك ، قطعه من حديث طويل .

فمن لم يتصور عظمته لم يمكنه خشيته . ومن تجلى الله له بعظمته ، خشيته حق خشيته . وبين الحضور التصوري الحاصل للعالم غير العارف ، وبين التجلي الثابت للعالم العارف - بون بعيد . ومراتب الخشية لا تحصى بحسب مراتب العلم والعرفان . انتهى .
ويذكر بعض المفسرين هنا القراءة الشاذة . رفع الاسم الجليل ونصب العلماء . ويتأولون الخشية بالتعظيم استعارة . وربما استشهدوا بقوله :

أَهَابُكَ إِجْلَالًا وَمَا بِكَ قُدْرَةٌ عَلَى وَلَكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُهَا
وقد طمن في (النشر) في هذه القراءة . والحق له . لمناقضتها للسياق والسباق . وما أغنى المتفحصين عن تسويد الصحف بمثل هذه الشواذ ! وبالله التوفيق .
« إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ » أي غالب على كل شيء بعظمته ، غفور لمن تاب وأناب وعمل صالحا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ » أي يداومون على تلاوته وتدبره ، للأخذ بما فيه
« وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ » أي
أجراً وفضلاً لا يفنى ، والتجارة استعارة لتحصيل الثواب بالطاعة . والبوار بمعنى الكساد والهلاك ترشيح للاستعارة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (لِيُوفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ)
« لِيُوفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ » إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ أي لأعمالهم .
والشكر مجاز عن الإثابة والجزاء بالإحسان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ،
إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ)

[٣٢] (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ
وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ
الْكَبِيرُ)

« وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ
بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا » أى : ثم ،
بعد أخذ الذين كفروا ، أورثنا الكتاب الذى هو أعظم فضل وعناية ورحمة ، المصطفين
من الموحدين . ثم بين انقسامهم فى العمل به إلى ثلاثة ، بقوله تعالى « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ
لِنَفْسِهِ » أى بالإثم والعصيان « وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ » أى فى العمل ، ليس من المجرمين
ولا من السابقين « وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ،
وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ)

[٣٤] (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)
« جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا
حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ)

« الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ » أى الإقامة « مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ » أى تعب « وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ » أى كلال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ)

[٣٧] (وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ، فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ، فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ » أى : أو ماعشتم فى الدنيا أعمارا ينتفع فيها من يتذكر ويتبصر ؟ قال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة . فتعوذ بالله أن تغتر بطول العمر . قد نزلت هذه الآية ، وإن فيهم لابن ثمانى عشرة سنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)
 [٣٩] (هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ،
 وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ
 كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا)

« إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * هُوَ الَّذِي
 جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ » أى مستخلفين فيها . أباح لكم منافعتها لتشكروه
 بالتوحيد والطاعة « فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
 إِلَّا مَقْتًا » أى بغضاً شديداً « وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا
 مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى
 بَيِّنَةٍ، مَنَّهُ بَلٌ إِنْ يَكْفُرُوا بِبَعْضِ مَا نَحْنُ بِكُمْ بِغَيْرِ غُرُورٍ)

« قُلْ » أى تبسكيتاً لهم « أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي
 مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ » أى شركه في خلقها « أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ
 كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مَنَّهُ » أى حجة وبرهان ، بأنه أذن لهم في الإشراف « بَلٌ إِنْ
 يَكْفُرُوا بِبَعْضِ مَا نَحْنُ بِكُمْ بِغَيْرِ غُرُورٍ » أى في قولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۴۱] (إِنَّ اللَّهَ يُخَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ

أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

[۴۲] (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ

إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا)

[۴۳] (أُسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ، وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ

إِلَّا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ، فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ

تَبْدِيلًا ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا)

« إِنَّ اللَّهَ يُخَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا » أی

ما أمسکهما « مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ

أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ

مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * أُسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ

إِلَّا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ » یعنی انزال العذاب علی الذین کذبوا

رسولهم من الأمم قبلهم « فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا »

وفی معنی الآية قوله تعالى ^(۱) (أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا

وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ

مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتٍ

اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا) وقوله تعالى ^(۲) (وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّا عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ

الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) .

(۱) [۶ / الأنعام / ۱۵۶ و ۱۵۷] . (۲) [۳۷ / الصافات / ۱۶۷-۱۷۰] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا)

[٤٥] (وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا)

« أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا * وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ الْفَاسَ بِمَا كَسَبُوا » أى بما اقترفوا من معاصيهم « مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » أى من نسمة تدب ، لشوم معاصيهم . والضمير للأرض لسبق ذكرها . « وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى يؤخر عقابهم ومؤاخذتهم بما كسبوا إلى أجل معلوم عنده « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا » أى فإذا جاء أجل عقابهم فإن الله كان بعباده بصيراً بمن يستحق أن يعاقب ، وبمن يستوجب السكرامة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٦ - سُورَةُ يَسٍ

هي مكية . واستثنى منها بعضهم قوله تعالى (١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ (الآية ١٢) أخرجه الترمذي (٢) والحاكم عن أبي سعيد قال : كانت بنو سلمة في ناحية المدينة . فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية . ولا حاجة لدعوى الاستثناء فيها وفي نظائرها . لأن ذلك مبنى على أن المراد بالنزول أن الواقعة كانت سبباً لنزولها ، مع أن النزول في الآثار يشمل ذلك ، وكل ما تصدق عليه الآية ، كما بيناه مراراً . لاسيما في المقدمة . يؤيده أنه جاء في هذه الرواية أنه ﷺ قرأ لهم هذه الآية . كما في رواية الصحيحين (٣) . وهكذا يقال فيما روى أن آية (٤) (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) من هذه السورة نزلت في المنافقين . فإن المراد ما ذكرناه . ولم يهتد لهذا التحقيق أرباب الحواشي هنا ، فاحفظه . وآياتها ثلاث وثمانون آية . ومما روى في فضلها ما أخرجه (٥) الترمذي عن أنس رفعه : إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس ، وفي إسناده ضعف .

(١) [٣٦ / يس / ١٢] .

(٢) أخرجه في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣٦ - سورة يس ، ١ - حدثنا محمد بن وزير الواسطي

(٣) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٣٣ - باب احتساب الآثار ، حديث

٤١٥ ، عن أنس ، وليس في مسلم .

(٤) [٣٦ / يس / ٣٧] .

(٥) أخرجه في : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ٧ - باب ما جاء في فضل يس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَسْ)

« يَسْ » تقدم الكلام فى مثل هذه الفواتح مرارا . وحاصله - كما قاله أبو السعود - أنها إما مسرودة على نمط التعديد ، فلا حَظَّ لها من الإعراب ، أو اسم للسورة كما نص عليه الخليل وسيبويه . وعليه الأكثر . فحله الرفع على أنه خبر محذوف . أو النصب ، مفعولا لمحذوف ، وعليهما مدار قراءة (يَسْ) بالرفع والنصب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَأَلْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ)

« وَأَلْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ » أى ذى الحكمة أو الناطق بالحكمة ، ولما كانت منزلة الحكمة من المعارف ، منزلة الرأس ، وكانت أخص أوصاف التنزيل ، أُورِثَتْ فى القسم به دون بقية صفاته ، لذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

[٤] (عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وهو الموصل إلى المطلوب بدون لغوب . والتفكير للتفخيم والتعظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

« تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » بالنصب على إضمار فعله ، وبالرفع خبر المحذوف . أو خبر ل (يس) إن كان اسماً للسورة . أو مؤولاً بها . والجملة القسمية معترضة . والقسم لتأكيد المقسم عليه والمقسم به ، اهتماماً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ)

« لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ » أى برسول ولا كتاب « فَهُمْ غَافِلُونَ » أى عن أمر حق الخالق والمخلوق ، بالكفر والفساد ونكران البعث والمعاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ » أى استأهلوا لأن ينزل بهم العذاب وينتقم منهم أشد الانتقام « فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يريدون أن يؤمنوا ويهتدوا ، كفرا وكبرا وعنادا . وبغيا فى الأرض بغير الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ)

« إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ » أى اللحية . أى واصله إليها وملزومة إليها « فَهُمْ مُقْمَحُونَ » أى ناصبو رؤوسهم ، غاصو أبصارهم . يقال : أقح الرجل ، رفع رأسه وغض بصره . وأقح الغل الأسير ، إذا ترك رأسه مرفوعاً لضيقه ، فهو مقمح . وذلك إذا لم يتركه عمود الغل الذى ينخس ذقنه ، أن يطأطأ رأسه . قال ابن الأثير : هى فى

قوله تعالى (فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ) كناية عن الأيدي لاعن الأعناق . لأن الغلّ يجعل اليد تلي الذقن والعنق ، وهو مقارب للذقن . وقال الأزهريّ : أراد عز وجل أن أيديهم لما غلّت عند أعناقهم ، رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم سُدّاً ، كالإبل الرافعة رؤوسها . وهذا معنى قول ابن كثير : اكتفى بذكر الغل في العنق ، عن ذكر اليدين وإن كانتا امرأتين ، لما دل السياق عليه . فإن الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

« وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » قال الزمخشريّ : مثل تصميمهم على الكفر ، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم ، بأن جعلهم كالمفلولين الممحين ، في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يمطفون أعناقهم نحوه ، ولا يبطأطئون رؤوسهم له . وكالحاصلين بين سدين . لا يبصرون ما قدمهم ولا ما خلفهم ، في أن لا تأمل لهم ولا تبصر . وأنهم متمامون عن النظر في آيات الله . انتهى . أي فالمجموع استعارة تمثيلية . وفي (الانتصاف) للناصر : إذا فرقت هذا التشبيه ، كان تصميمهم على الكفر مشبهاً بالأغلال . وكان استكبارهم عن قبول الحق وعن الخضوع والتواضع لاستماعه ، مشبهاً بالإقحاح . لأن القمح لا يبطأطأ رأسه . وقوله (فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ) تنمة للزوم الإقحاح لهم . وكان عدم الفكر في القرون الخالية مشبهاً بسد من خلفهم ، وعدم النظر في العواقب المستقبلية مشبهاً بسد من قدامهم انتهى . فيكون فيه تشبيه متعدد . قال الشهاب : والتمثيل أحسن منه . انتهى .

ثم قال الناصر : يحتمل أن تكون الفاء في (فهم مقمحون) للتعقيب ، كالفاء الأولى . أو للتسبب . ولا شك أن ضغط اليد مع العنق في الغلّ يوجب الإقحاح . فإن اليد ، والعياذ بالله ، تبقى ممسكة بالغلّ تحت الذقن ، دافعة بها ومانعة من وطأتها . ويكون التشبيه أتم على هذا التفسير . فإن

اليد متى كانت مرسلة مخلاة ، كان للمغلول بعض الفرج بإطلاقها . واعلمه يتحجّل بها على فكاك الغلّ ، ولا كذلك إذا كانت مغلولة . فيضاف إلى ما ذكرناه من التشبيهات المفرقة ، أن يكون انسداد باب الحيل عليهم في الهداية والانخلاع من ربة الكفر المقدر عليهم ، مشبها بغلّ الأيدي . فإن اليد آلة الحيلة إلى الخلاص . انتهى .

وإنما اختير هذا ، لأن ما قبله وما بعده في ذكر أحوالهم في الدنيا . وجعله أبوحيان لبيان أحوالهم في الآخرة ، على أنه حقيقة لا تمثيل فيه . فورد عليه أن يكون أجفياً في البين . وتوجيهه بأنه كالبيان لقوله ^(١) (حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ) والأول أدق ، وبالقبول أحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ » أي خوفهم بالقرآن « أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أي لا يريدون أن يؤمنوا . ولما صدقت الآية على مثل أبي جهل وأصحابه من كفره قريش ، الذين هلكوا في بدر ، وكانوا طواغيت الكفر ، أشار بضمهم إلى أن الآية نزلت في ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ ، فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ)

« إِنَّمَا تُنذِرُ » أي الإنذار المترتب عليه النفع « مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ » أي القرآن بالتأمل فيه والعمل به « وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ » أي عمل الصالحات لوجهه ، وإن كان لا يراه « فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ » أي لذنبه في الدنيا « وَأَجْرٍ كَرِيمٍ » أي ثواب حسن في الجنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ ، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ)

« إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ » أى للبعث « وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا » أى نحفظ عليهم ما أسلفوا من الخير والشر « وَآثَرَهُمْ » أى ما تركوه من سنة صالحة ، فعمل بها بعد موتهم . أو سنة سيئة فعمل بها بعدهم « وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ » أى فى اللوح المحفوظ ، أو العلم الأزلى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ)

« وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا » أى مثل لأهل مكة مثلاً « أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ » أى اذ كر لهم قصة عجيبة ، قصة أصحاب القرية « إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ » أى الدعاة إلى الحق ورفض عبادة الأوثان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَٰهُكُمْ مُّرْسَلُونَ)

« إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ » أى فقويناها برسالة ثالث « فَقَالُوا إِنَّا إِلَٰهُكُمْ مُّرْسَلُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قَالُوا مَا أَتَمُّ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَتَمُّ إِلَّا تَكْذُوبُونَ)

[١٦] (قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ)

[١٧] (وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

«قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ*
قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ* وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» أى التبليغ عن الله
ظاهراً بيناً لاسترة فيه ، وقد خرجنا من عهده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

«قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ» أى تشاء منا بكم . فكان إذا حدث فى البلد ما يسيء من حريق
أو بلاء ، نسبوه إليهم . وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم . وعادة الجهال أن
يتيمنوا بكل شئء ما لوا إليه واشتهوه ، وآثروه وقبلته طبايعهم . ويتشاءموا بما نفروا عنه
وكرهوه . فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا . كما حكى الله عن القبط^(١)
(وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ سَبَّوْهُ بِمُوسَىٰ وَحَنَافِهِمْ وَبِحَنْنٍ فَوْدٍ) وعن مشركى مكة^(٢) (وَإِنْ تُصِيبَهُمْ
سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ) أفاده الزمخشري «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا» أى عن دعوتكم
إلى التوحيد «لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قَالُوا طَئِيرُكُمْ مَعَكُمْ ، إِنْ ذُرْكُوتُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِفُونَ)

«قَالُوا» أى الرسل «طَئِيرُكُمْ مَعَكُمْ» أى سبب شؤمكم معكم ، وهو الكفر والمعاصى «إِنْ
ذُرْكُوتُمْ» أى وعظمت بما فيه سعادتكم . وجواب الشرط محذوف ، ثقة بدلالة ما قبله عليه .
أى تطيرتم وتوعدتم بالرجم والتعذيب «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِفُونَ» أى فى الشؤم والعدوان .

(١) [٧ / الأعراف / ١٣١] . (٢) [٤ / النساء / ٧٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَلْقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ)

« وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ » أى يسرع فى المشى ، حيث سمع بالرسول .
« قَالَ يَلْقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ » أى بالإيمان بالله وحده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

« اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا » أى جُملاً ولا مالاً على الإيمان « وَهُمْ مُهْتَدُونَ »
أى فى أنفسهم بالكمالات والأخلاق الكريمة والآداب الشريفة . أى فيجدر أن يُتَأَسَّى بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي » أى خلقنى . وهذا تَلَطُّفٌ فى الإرشاد بإبراده
فى معرض المناصحة لنفسه ، وإحاض النصيح ، حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه .
والمراد تفرغهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره ، كما ينبى عنه قوله « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »
أى بعد الموت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (ءَاتَخِذْ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يَرِدَْنَّ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ)

« ءَاتَخِذْ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً » أى فاضرع إليها وأعبدها ، وهى فى المهانة والحقارة
بحيث « إِن يَرِدَْنَّ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ » أى من ذلك
الضر ، بالنصر والظاهرة . وفيه تحميق لهم ، لأن ما يتخذ ويصنعه المخلوق ، كيف يعبد ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (إِنِّى إِذًا لِّى ضَلَّالٍ مُّبِينٍ)

[٢٥] (إِنِّى ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَسْمَعُونِ)

« إِنِّى إِذًا لِّى ضَلَّالٍ مُّبِينٍ * إِنِّى ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَسْمَعُونِ » أى فاسمعوا إيمانى واشهدوا به . قال السمين : المجهور على كسر النون . وهى نون الوقاية ، حذفت بعدها ياء الإضافة . مجتزئ عنها بكسرة النون ، وهى اللغة العالية . وقرأ بعضهم بفتحها وهى غلط . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ، قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ)

[٢٧] (بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ)

« قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ » أى ثواباً على صدق إيمانك وفوزك بسببه بالشهادة « قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ » أى ليقبلوا على ما أقبلت عليه ، ويضحوا لأجله النفس والنفس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ)

« وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد موته بالشهادة « مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ » أى لا هلاكهم « وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ » قال الرازى : إشارة إلى هلاكهم بعده سريعاً ، على أسهل وجه ، فإنه لم يحتج إلى إرسال جند يهلكهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ)

« إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً » أى ما كانت العقوبة إلا صيحة واحدة من السماء هلكوا بها « فَإِذَا هُمْ خَمِدُونَ » ميتون كالنار الخامدة . رمزاً إلى أن الحى كالنار الساطعة فى الحركة والالتهاب ، والميت كالرماد . كما قال لبيد :

وما المرء إلا كالشهابِ وضوئِهِ
يَحْجُورُ رماداً بعد إذْ هو ساطِعُ

تنبيهات :

الأول - قال ابن كثير : روى عن كثير من السلف أن هذه القرية هى أنطاكية ، وإن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح عيسى عليه السلام . كما نص عليه قتادة وغيره . وهو الذى لم يذكر عن أحد من متأخري المفسرين ، غيره . وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها - أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل ، لامن جهة المسيح عليه السلام . كما قال تعالى (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ مُّتَنَبِّئِينَ) ولو كان هؤلاء من الحواريين ، لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام . والله أعلم . ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : إن أنتم إلا بشر مثلنا .

الثانى - أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم . وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح . ولهذا كانت عند النصارى إحدى الدائن الأربعة اللائى فيهن بطارقة . وهن : القدس لأنها بلد المسيح . وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها . والإسكندرية لأن فيها اصطلاحوا على اتخاذ البطارقة والمطارنة والأساقفة والشمامسة والراهبين . ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذى نصر دينهم وأطده . ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البطررك من

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بَلِينَا وَمَا تَبَلَّى النُّجُومُ الطَّوَالِغُ وَتَبَقَّى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ

يحجور : يرجع ويتغير . وكل شىء تغير من حال إلى حال ، فقد حار (الشعر والشعراء ص ٢٣٦)

رومية إليها - كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريجهم - كسعد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين - فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخذتهم .

الثالث - أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة . وقد ذكر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وغير واحد من السلف ، أن الله تبارك وتعالى بعد إزاله التوراة ، لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم . بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين . ذكره عند قوله تعالى ^(١) (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى) فعلى هذا يتعين أن أهل هذه القرية المذكورة في القرآن ، قرية أخرى غير أنطاكية . كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا . أو تكون أنطاكية - إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة - مدينة أخرى غير المشهورة المعروفة . فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ، ولا قبل ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

وأقول : إن من محاسن التفسير الكريم وبلاغته الخارقة ، هو الإيجاز في الأنباء التي يقصها ، والإشارة منها إلى روحها وسرها ، حرصاً على الثمرة من أول الأمر ، واقتصاراً على موضع الفائدة ، وبعداً عن مشرب القصص والمؤرخين . لأن القصد من قصصه الاعتبار والذكرى . ومما من حاجة إلى تسمية تلك المبهمات كائنة ما كانت . ثم إن المفسرين رحمهم الله عنوا بالبحث والأخذ والتلقى . فكان من سلف منهم يرون فيما يرون أن من العلم تفصيل مجملات التفسير وإبانة مبهمات . حتى جعل ذلك فناً برأسه وألف فيه مؤلفات . ولا بأس في التوسع من العلم والازدياد منه بأي طريقة كانت . لاسيما وقد رفع عنا الحرج بالتحدث عن بني إسرائيل . إلا أنه يؤخذ من يجزم بتعيين مبهم ما ، إن كان جزمه من غير طريق القواطع .

فإن القاطع هو ماتواتر أو صحّ سنده إلى المعصوم، صحة لا معزز فيها. وهذا مفقود في الأكثر، ومنه بحثنا المذكور. فإن تعيين أن البلدة أنطاكية وتسمية الرسل، إنما روى موقوفاً ومنقطعاً، وفي بعض إسناده متهمون. ولذا قد يرد على من يقطع بذلك ما لا يخرج له منه. فالفسر أحسن أحواله أن يمشی مع التنزيل، إجمالاً فيما أجمله وتفصيلاً فيما فصله. ولا يأخذ من إيضاح مبهمات إلا بما قام عليه قاطع أو كان لا ينبذه العلم الصحيح. وإلا فيعرض عن تسويد وجوه الصحف بذلك، بل عن تشويهها. والذي حمل الساف على قص ما نحن فيه، هو تلقيهم له عن مثل كعب ووهب، وموافقة من في طبقتهم لهما فيه. هذا أولاً، وثانياً شهرة بلدة أنطاكية في ذلك العهد، لا سيما وقد أسس فيها معبداً أحدهُ رسل عيسى عليه السلام. ثالثاً ما جرى في أنطاكية لما قدم ملك الرومان وتهدد كل من أبي عبادة الأوثان بالقتل. وكان في مقدمة الآيين رجل مقدم في المؤمنين. فأراد على الشرك فأبى وجهه بالتوحيد. فأرسله من أنطاكية موثقاً وأمر بأن يطعم للوحوش: فألقى في رومية إلى أسدين كبيرين فابتلعاه. ولما قدم لهما استبشر وتهلل لنيل الشهادة في سبيل الله. وكذلك يؤثر عن رجل مؤمن كان يدافع عن المؤمنين في عهد الرومانيين لغيرته وصلاحه. فطلب منه الحاكم أن يرتد فأبى وجهه بوجوب عبادة الإله الواحد، ونبذ عبادة من لا يضر ولا ينفع. فهدده بأن يضربه من الرأس إلى القدم. فأجاب بأنه مستبشر بنعمة الله وكرامته الأبدية. ثم أمر به الحاكم فقتل مع رفقته. والشواهد في هذا الباب لا تحصى. معروفة لمن أعار نظره جانباً مما كتب في تواريخ مبدأ ظهور الأديان، وما كان يلاقه من أعدائه ومقاوميه. فللقصة الكريمة هذه مصداقات لا تحصى. رابعاً شهرة المرسلين برسل عيسى عليه السلام، وكانوا انبثوا في البلاد لمحو الوثنية والكف عن الكبرياء والشرور التي كانت عليها دولة الرومان وقتئذ. هذا وما ذكره ابن كثير من وقوف عذاب الاستئصال بعد نزول التوراة يحتاج إلى قاطع. وإلا، فقد خربت كثير من البلاد الأثيمة بعدها، وتدمرت بتسليط الله من شاء عليها. والصيحةُ

أعم من أن تكون صيحة سماوية أو صيحة أرضية . وهي صيحة من سلط عليهم للانتقام منهم ، حتى أباد ملكهم وقهر صولتهم ونجا من الوجود سلطانهم . وإن كان عذاب الصيحة ظاهره الأول . وبالجملة فنحن يكفيننا من النبأ الاعتبار به وفهمه مجعلا ، وأما تعيينه ، بوقت ما ، وفئة ما ، فهو الذى ينشأ منه ما ينشأ . وما بنا من حاجة إلى الزيادة عن الاعتبار ، وتخصيص مالا قاطع عليه .

الثانى - ذكر الرازى فى قوله تعالى (إِذْ أَرْسَلْنَا) لطيفة ، إن صح أن الرسل المنوّه بهم هم رسل عيسى عليه السلام . وهى أن إرساله لهم كإرساله تعالى . لأنه بإذنه وأمره . وبذلك تنمى التسلية للنبيّ صلوات الله عليه ، لصيرورتهم فى حكم الرسل .

ثم قال : وهذا يؤيد مسألة فقهية . وهى أن وكيل الوكيل بإذن الموكل ، وكيل الموكل لا وكيل الوكيل . حتى لا ينزل بعزل الوكيل إياه ، وينزل إذا عزله الموكل الأول . انتهى .

الثالث - فى قوله تعالى (وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى) تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ليكونوا فى النصح باذلين جهدهم كما فعل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (يَحْسَرَةُ عَلَى الْعِبَادِ ، مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

« يَحْسَرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » أى يندامة عليهم تكون يوم القيامة بسبب استهزائهم وسخريتهم فى الدنيا بالناصحين ، حتى أفضى بهم الحال إلى قتلهم كما فعل أصحاب القرية . أو المراد شدة خسارتهم حتى استحقوا أن يتحسر عليهم أهل الثقلين . أو التحسر منه تعالى مجازا . وتقريره أن التحسر ما يلحق المتحسر من الندم

حتى يبق حسيرا . وهو لا يليق به تعالى . فيجعل استعارة ، بأن شبه حال العباد بحال من يتحسر عليه الله فرضا ، فيقول ، يا حسرة على عبادى . قيل : وهو نظير قوله تعالى ^(١) (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ) على القراءة بضم التاء ، فالنداء للحسرة تعجب منه . والمقصود تعظيم جنايتهم . أى عذها أمرا عظيما يتعجب منه . أفاده الشهاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ)
« أَلَمْ يَرَوْا » أى يخبروا « كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ » أى من الأمم الخالية
« أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ » أى كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ)

« وَإِنْ كُلٌّ » أى من هؤلاء المتفرقين « لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ » أى إلا جميعهم محضرون للحساب والجزاء ، وإنما أخبر عن (كل) بجمع ومعناها واحد ، لأن (كلا) تفيد الإحاطة حتى لا ينفات عنهم أحد . و (جميع) تفيد الاجتماع ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، وبينهما فرق . ومن ثم وقع أجمع فى التوكيد تابعا (لكل) ، لأنه أخص منه وأزيد معنى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَنَهُ يَأْكُلُونَ)

[٣٤] (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ)

[٣٥] (لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ)

« وَءَايَةٌ لَهُمُ » أى عبرة لأهل مكة عظيمة « الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا » أى بالنبات

لتدل على إحياء الموتى « وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مَيْنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ » أى : وليأكلوا مما عملته أيديهم ، وهو ما يتخذ منه كالعصير والحبس ونحوهما ، على ما استظهره القاضى . وقال الزمخشري : أى عملته بالفرس والسقى والآبار . قيل وهذا التفسير خلاف الظاهر . أى لاحتياجه إلى تجوز . إلا أن فيه تذكيرا بلذة ثمرة العمل وسرور النفس بعده . وفى الحديث (أفضل الكسب بيع مبرور ، وعمل الرجل بيده) رواه الإمام ^(١) أحمد عن أبى بردة . وجوز أن تكون (ما) نافية ، والمعنى : أن الثمر يخلق الله لا بفعلهم « أَفَلَا يَشْكُرُونَ » أى خالق هذه النعم الجسام بعبادته وحده . وهو إنكار لعدم قيامهم بواجب الشكر .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)

« سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا » أى الأصناف كلها « مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ » أى مما ذكر وغيره « وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ » يعنى الذكر والأنثى « وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ » أى من الأصناف والأنواع الموجودة فى البر والبحر . وقوله تعالى :
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَإِذَا نَسَخَ اللَّهُ مِنَ النَّهَارِ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ)
« وَإِذَا نَسَخَ اللَّهُ مِنَ النَّهَارِ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ » بيان لقدرته تعالى فى الزمان ، إثر ما بينه فى المكان . أى نزيله ونكشفه عن مكانه . استعير لإزالة الضوء ، السليخ الذى هو كسطح الجلد وإزالته عن الحيوان المسلوخ . وفيه إشارة إلى أن النهار طارئ على الليل ، كما أن المسلوخ

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٦٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

منه قبل المسلوخ ، الذى هو كالغطاء الطارىء على المغطى . قال الشهاب : لان الليل سابق عرفا وشرعا . ومعنى (مظلومون) داخلون فى الظلام . يقال (أظلمنا) كما يقال : أعتمنا وأدجيناً .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

« وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » أى لحد لها مؤقت مقدر ينتهى إليه دورها اليومى أو السنوى . شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره . فالمستقر اسم مكان تقطعه فى حركتها الدائمة ثم تعود . ووجه الشبه الانتهاء إلى محل معين ، واللام تعليلية أو بمعنى (إلى) . وقيل مستقرها منقطع جريها عند حراب العالم . ومستقر ، عليه ، اسم زمان « ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » أى ذلك الجرى المتضمن للحكم والمصالح والمنافع ، والمدھش نظام سيره وإحكامه بلا اختلال ، تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور ، المحيط علماً بكل معلوم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ)

« وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ » أى صيرنا له منازل ينزل كل ليلة فى واحد منها « حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ » أى حتى إذا كان فى آخر منازلها ، دق واستقوس وصار كالعذق المقوس اليابس ، إذا حال عليه الحول . فالعرجون هو الشمروخ ، وهو العفوق الذى عليه الرطب ، ويسمى العذق ، بكسر العين . والقديم : العتيق ، وإذا قدم دق وأنحنى واصفر . فشبه به من ثلاثة أوجه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

« لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ » أى تجتمع معه فى وقت واحد، وتداخله فى سلطانه فتطمس نوره « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ » أى يسبقه بأن يتقدم على وقته فيدخل قبل مضيه . أو المراد بالليل والنهار آياتها . أى ولا القمر سابق الشمس فيكون عكساً للأول . أى ولا القمر ينبغى له أن يدرك الشمس . والمعنى على هذا ، أن كل واحد منهما لا يدخل على الآخر فى سلطانه ، فيطمس نوره ، بل هما متعاقدان بمقتضى تدبيره تعالى ، وعليه فسر إيثار (سابق) على (مدرك) كما قبله ، هو أن السبق مناسب لسرعة سير القمر . إذ السبق يشعر بالسرعة ، والإدراك بالبطء . وكذلك الشمس بطيئة السير تقطع فلكها فى سنة . والقمر يقطعه فى شهر . فكانت الشمس لبطئها جديرة بأن توصف بالإدراك . والقمر لسرعته جديراً بأن يوصف بالسبق .

لطيفة :

قال الناصر فى (الانتصاف) : يؤخذ من هذه الآية أن النهار ، تابع لليل ، وهو المذهب المعروف للفقهاء . وبيانه من الآية أنه جعل الشمس التى هى آية النهار غير مدركة للقمر الذى هو آية الليل .

وإنما نفى الإدراك لأنه هو الذى يمكن أن يقع ، وذلك يستدعى تقدم القمر وتبعية الشمس . فإنه لا يقال (أدرك السابق) (لاحق) ولكن (أدرك اللاحق السابق) وبحسب الإمكان توقيع النفى . فالليل إذاً متبوع والنهار تابع . فإن قيل : هل يلزم على هذا أن يكون الليل سابق النهار ، وقد صرحت الآية بأنه ليس سابقاً ؟ فالجواب أن هذا مشترك الإلزام . وبيانه : أن الأقسام المحتملة ثلاثة : إما تبعية النهار لليل وهو مذهب الفقهاء ، أو عكسه وهو المنقول عن طائفة من النحاة ، أو اجتماعهما . فهذا القسم الثالث منفى بالاتفاق . فلم يبق إلا تبعية النهار لليل وعكسه . وهذا السؤال وارد عليهما جميعاً . لأن من قال إن النهار سابق الليل لزمه أن يكون مقتضى البلاغة أن يقال (ولا الليل يدرك النهار) فإن التأخر إذاً نفى إدراكه

كان أبلغ من سابقه ، مع أنه يتفادى عن مقتضى قوله (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ) تنائياً لا يجمع شمل المعنى باللفظ . فإن الله تعالى نفى أن تكون مدركة ، فضلاً عن أن تكون سابقة . فإذا أثبت ذلك ، فالجواب المحقق عنه ، أن النفي السبقية الموجبة لتراخي النهار عن الليل ، وتخلل زمن آخر بينهما . وحينئذ يثبت التعاقب ، وهو مراد الآية . وأما سبق أول المتعاقبين للآخر منهما ، فإنه غير معتبر . ألا ترى إلى جواب موسى بقوله ^(١) (هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي) فقد قربهم منه عذراً عن قوله تعالى ^(٢) (وَمَا أَغْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ) فكانه سهل أمر هذه العجلة بكونهم على أثره . فكيف لو كان متقدماً وهم في عقبه لا يتخلل بينهم وبينه مسافة ، فذاك لو اتفق ، لكان سياق الآية يوجب أنه لا يمد عجلة ولا سبقاً . فحينئذ يكون القول بسبقية النهار لليل ، مخالفاً صدر الآية على وجه لا يقبل التأويل . فإن بين عدم الإدراك الدال على التأخير والتبعية ، وبين السبق بوناً بعيداً ، ومخالفاً أيضاً لبقية الآية . فإنه لو كان الليل تابعاً ومتأخراً ، لكان أحرى أن يوصف بعدم الإدراك ، ولا يبلغ به عدم السبق . ويكون القول بتقدم الليل على النهار مطابقاً لصدر الآية صريحاً ، ولمجزها بوجه من التأويل مناسب لنظم القرآن . وثبتت ضده أقرب إلى الحق من جبل وريده ، والله الموفق للصواب من القول وتسديده . انتهى .

« وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » أى كل مما ذكر يجرون في مدار عظيم كالسباح في الماء . وتقدم لنا في سورة الأنبياء ، مقاله بعض علماء الفلك في مثل هذه الآية . فراجعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ)

« وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ » أى حملنا أولادهم الذين يرسلونهم

(١) [٢٠ / طه / ٨٤] . (٢) [٢٠ / طه / ٨٣] .

في تجارتهم. قال الشهاب: ولا يخفى مناسبتة لقوله قبله (فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) وذكر (المشحون) أقوى في الامتنان بسلامتهم فيه، أو لأنه أبعد عن الخطر، وقيل المراد فلك نوح عليه السلام. فهو مفرد، وتعريفه للعهد. والمعنى حمل آبائهم الأقدمين الذين بهم حفظ بقاء النوع لما عمّ الطوفان، ونجوا مع نوح في السفينة. وإنما كان آية، لأن بقاء نسلهم ونجاتهم بسفينة واحدة، صنع عجيب ومقدور كبير. وآثر البعض الوجه الأول، لأن الثاني محتاج للتأويل. وأرى جدارة الثاني بالإيثار لقاعدة الحمل على الأشباه والفظائر، ما وجد له سبيل. لأنه أقرب وأسد. وقد جاء نظيره آية (٢) (إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُنْذُنٌ وَأَعْيَةٌ) وإن ورد في نظير الأول آية (٢) (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) وأشباهاها، إلا أن لفظ الحمل أحمد في الآيتين، فقارب ما بينهما.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ)

« وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ » أى مثل الفلك « مَا يَرْكَبُونَ » أى من الإبل فإنها سفائن البر لكثرة ما تحمل، حتى شاع إطلاق السفينة عليها. كما قيل (سفائن برّ والسراب بحارها) أو ما يركبون، أى من السفن والزوارق على الوجه الثاني. وهو أن يراد بالفلك سفينة نوح.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقِذُونَ)

« وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ » أى لا مغيث لهم، أولا مستغيث منهم، أولا استغاثة. وذلك لأن الصريح يكون المغيث والمستغيث وهو الصارخ. ومصدرا للثلاثي

كالصراخ ، يتجوزبه عن الإغاثة ، لأن المغيث ينادى من يستغيث به ويصرخ له ، ويقول . جاءك العون والنصر . أنشد المبرد^(١) في أول الكامل :

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَرَعٌ كان الصراخُ له قَرَعَ الظَّنَّ يَبِ
أى إذا أتانا مستغيث ، كانت إغاثته الجِد في نصرته .
« وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ » أى ينجون من الموت به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ)

« إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ » أى لكن رحمتهم ومتعناهم إلى زمن قدر لهم ، يموتون فيه بعد النجاة من موت الفرق . ومن هنا أخذ أبو الطيب قوله^(٢) :
وإن أسلمَ فما أبقي ولكن سلمتُ من الحماَمِ إلى الحماَمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » أى من الوقائع الخالية في الأمم الكذبة للرسل « وَمَا خَلْفَكُمْ » أى من العذاب المعد في الآخرة ، أو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ،

(١) قائله سلامة بن جندل السعدي . وهو البيت السادس والثلاثون من المفضلية الثانية

والعشرين ، التي مطلعها :

أودى الشبابُ حميداً ذو التعاجيبِ أودى ذلك شأؤُ غيرِ مطلوبِ

(٢) من قصيدته التي مطلعها :

ملؤمكما يجلّ عن الملامِ ووقعُ فماله فوق الكلامِ

قالها لما نالته بمصر حمى . فقال يصفها ويمرض بالرحيل عن مصر .

أو عكسه ، أو ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى باتقائكم وشكركم .
وجواب (إِذَا) محذوف دل عليه قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)
« وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ » أى الدالة على صدق الرسل « إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ » بالكذيب والصدّة عن الإيمان بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُوْا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)
« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى تصدقوا على الفقراء من مال الله الذى آتاكم « قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُوْا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » أى حيث أمرتمونا بما يخالف مشيئة الله . وقولهم هذا ، إماتهم أو عن اعتقاد . وجوز أن يكون (إِنْ أَنْتُمْ) جواباً من الله لهم ، أو حكاية لجواب المؤمنين . وفى هذه الآية أبلغ زجر عن اقتصاص ما يحكى عن البخلاء ، فى اعتذارهم بمثل ما ضلل به المشركون ومجاراتهم فيه . فإن ذلك من اللؤم وشح النفس وخبث الطبع . وإن كان يورده بعضهم للفكاهة أو الإغراب . كما فعل الجاحظ سماحه الله فى كتاب (البخلاء) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
« وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » يمينون وعد البعث .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ [٤٩]

« مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » أى يتخاصمون فى متاجرهم ومعاملاتهم . أى أنها تبغتهم وهم فى أمنهم وغفلتهم عنها . و (يخصمون) بفتح الياء وكسر الخاء لالتقاء الساكنين . والصاد على الأصل ، وأصله (يخخصمون) سكنت التاء وأدغمت ، ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [٥٠]

« فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً » أى أن يعصوا فى شىء من أمورهم توصية « وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ » أى لا يقدرون على الرجوع إلى أهلهم ، ليروا حالهم . بل يموتون حيث تفجؤهم الصيحة .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ [٥١]

« وَنُفِخَ فِي الصُّورِ » أى للبعث « فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ » أى من القبور « إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » أى يعدون مسرعين . كما فى قوله تعالى ^(١) (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاءَ) ولا منافاة بين هذا وما فى آية ^(٢) (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) لأنهما فى زمان واحد متقارب .

(١) [٧٠ / المعارج / ٤٣] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٦٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ، هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)

« قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » أى رقادنا أو مكانه . فيقال لهم « هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ » أى المخبرون عن ذلك الوعد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)

« إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ » أى بمجرد تلك الصيحة . وفى كل ذلك تهوين أمر البعث والحشر ، عليه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (فَالْيَوْمَ لَا تَظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٥٥] (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ)

« فَالْيَوْمَ لَا تَظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ » أى متنعمون متلذذون ، وفى تنكير (شُغْلٍ) تعظيم ما هم فيه وتفخيمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْآئِكِ مُتَكِئُونَ)

[٥٧] (لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ)

« هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْآئِكِ مُتَكِئُونَ » أى فى ظلال الأشجار ، أو فى مأمن من الحرور

« عَلَى الْأَرْآئِكِ » أى السُّرُر الزينة « مُتَكِبُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَلَکِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ »
أى يطلبون .

القول فى تأویل قوله تعالى :

[٥٨] (سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَّحِيمٍ)

« سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَّحِيمٍ » أى ولهم سلام يقال لهم قولاً كأننا منه تعالى .
فيكون (سَلَّمَ) مبتدأ محذوف الخبر . أو هو بدل من (مَّا) أو خبر محذوف ، أى : هو
سلام . أو مبتدأ خبره الناصب لـ (قَوْلًا) أى : سلام يقال لهم قولاً . أو مبتدأ وخبره (مِّن
رَّبِّ) و (قَوْلًا) مصدر مؤكد لمضمون الجملة . وهو مع عامله معترض بين المبتدأ والخبر .
والمعنى أنه تعالى يسلم عليهم تعظيماً لهم . كقوله^(١) (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُو سَلَامٌ) .

القول فى تأویل قوله تعالى :

[٥٩] (وَأُمْتَرُوا أَلْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

« وَأُمْتَرُوا أَلْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ » أى عن المؤمنين فى موقفهم . كقوله تعالى^(٢)
(وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ
فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ) وقوله^(٣) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِمِدُّ يَتَفَرَّقُونَ) ^(٤) (يَوْمَئِذٍ
يَصَّدَّعُونَ) أى يصيرون صدعين فرقتين ^(٥) (أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ
وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٤] . (٢) [١٠ / يونس / ٢٨] .

(٣) [٣٠ / الروم / ١٤] . (٤) [٣٠ / الروم / ٤٣] .

(٥) [٣٧ / الصافات / ٢٢ ، ٢٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (الَّذِينَ أَعَاهَدُ إِلَيْكُمْ يَذُنُّونَ أَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ، إِنَّهُ وَلَكُمْ
عَدُوٌّ مُبِينٌ)

« الَّذِينَ أَعَاهَدُ إِلَيْكُمْ يَذُنُّونَ أَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ وَلَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ »
تفريع منه تعالى للكفرة ، يقال لهم إلزاما للحجة . وعهده تعالى إليهم هو ميثاق الفطرة ،
كما قاله القاشاني . أو ما نصبه لهم من الحجج العقلية والسمعية ، الآمرة بعبادته وحده
ونبذ عبادة غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَأَنْ أَعْبُدُونِي ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

« وَأَنْ أَعْبُدُونِي ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » أى : وأن أفردوني بالعبادة فإنه السبيل
السوى . وفي تفكيكه إشعار بأنه صراط بليغ في استقامته ، جامع لكل ما يجب أن يكون
عليه . وأصل المرتبة يقصر عنها التوصيف ، فالتنوين للتعظيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ)

« وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا » أى الشيطان وأغوى بالشرك « مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا » أى خلقا
كثيرا قبلهم ، فحاق بهم سوء العذاب « أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ » أى من أولى العقل .
إنكار لأن يكونوا منهم . وقد قامت البراهين والإنذارات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[٦٤] (أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

« هَذِهِ فِي جَهَنَّمَ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » أى ذوقوا حرها اليوم بكفركم فى الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى عندما يجحدون ما اجترموه فى الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم . قال الرازى : وفى الختم على الأفواه وجوه . أقواها أن الله يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها ، وينطق جوارحهم فتشهد عليهم ، وإنه فى قدرة الله يسير . أما الإسكات فلا خفاء فيه . وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة . فكما جاز تحركه بها ، جاز تحرك غيره بمثلها . والله قادر على الممكنات . والوجه الآخر ، أنهم لا يتكلمون بشيء ، لانقطاع أعضائهم وانتهائك أستارهم . فيقفون ناكس الرأس وقوف القنوط اليئوس ، لا يجد عذراً فيعتذر ، ولا مجال توبة فيستغفر . وتكلم الأيدى ظهور الأمور بحيث لا يسمع معه الإنكار ، حتى تنطق به الأيدى والأبصار . كما يقول القائل (الحيطان تبكى على صاحب الدار) إشارة إلى ظهور الحزن . والأول الصحيح . انتهى . أى لإمكانه وعدم استحالة . فلا تتعذر الحقيقة . ويؤيده آية^(١) (وَقَالُوا لِيَجْزُلْهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ، قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) .

ومن لطائف بعض أدباء العصر ما نظمه في الفونغراف ، مستشهداً به في ذلك ، فقال :

بنطق الفونغراف لنا دليلٌ	على نطق الجوارح والجمادِ
وفيه لكل ذى نظره مثالٌ	على بدء الخليقة والمعادِ
يدبر شئونه فرد بصوره	به الأصوات تجري كالمدادِ
فيثبت رسمها قلم بلوح	على وفق المشيئة والمرادِ
وبعد فراغها تمضي كبرق	ولا أثر لها في الكون بادِ
تظن بأنها ذهبت جفاء	كما ذهبت بريح قوم عادِ
وأحلى رنّها فيه لتبقى	كأرواح تجرد عن موادِ
متى شاء المدير لها معاداً	ورام ظهورها في كل نادِ
يدبر الصور بالآلات قسراً	فينشر ميتها بعد الرقادِ
وهذى آلة من صنع عبدٍ	فكيف بصنع خلاق العبادِ ؟
تبارك من يعيد الخلق طراً	بنفخة صورته يوم التنادِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَاهُ عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ)

« وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَاهُ عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ » أى لو شاء تعالى ، لمسح أعينهم . فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المسلك لهم لم يقدرُوا ، لهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ)

« وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ » أى بتغيير صورهم وإبطال قواهم « عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ » أى مكانهم « فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا » أى ذهاباً « وَلَا يَرْجِعُونَ » أى ولا رجوعاً . أى أنهم لا يقدرُون على مفارقة مكانهم . فوضع الفعل موضعه للفواصل . وإذا كان بمعنى (لا يرجعون عن

تسكذبهم) فهو معطوف على جملة (ما استطاعوا) والمراد أنهم بكفرهم ونقضهم ما عهد إليهم ، أحقاء بأن يفعل بهم ذلك . لكننا لم نفعل لشمول الرحمة ، واقتضاء الحكمة إيمانهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ)

« وَمَنْ نُعَمِّرْهُ » أى نطل عمره « نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ » أى بتناقض قواه وضعف بنيته حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم ، كما قال عز وجل^(١) (وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَى آرْذَلِ الْأَعْمُرِ لِكَثَلٍ يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)^(٢) « أَفَلَا يَعْقِلُونَ » أى من قدر على ذلك ، قدر على الطمس والمسخ ، وأن يفعل ما يشاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ)

« وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ » أى حتى يأتى بشعر . وهذا رد لقولهم أنه صلوات الله عليه شاعر أتى بشعر . قاسوه على من يشعر بقراءة الدواوين وكثرة حفظها . وكيف يشابه ما نزل عليه الشعر ، وليس منه لا انقطاعاً لعدم وزنه وتقفيته ، ولا معنى لأن الشعر تخيلات ، وهذا حكم وعقائد وشرائع وحقائق .

« وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » أى وما يصح لمقامه . لأن منزل النبوة والرسالة يتسامى عن الشعر وقرضه . لما يرى به الشعراء كثيراً من الكذب واللين ومجافاة مقاعد الحقيقة . ولذا قال تعالى : « إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ » أى عظة وإرشاد منه تعالى « وَقُرْآنٌ مُبِينٌ » أى كتاب سماوى بين أمره وحقائقه . فلا مناسبة بينه وبين الشعر بوجه ما .

(١) [٢٢ / الحج / ٥] . (٢) [٩٥ / التين / ٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ)

« لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا » أى عاقلا متأملا ، لأن الغافل كالميت « وَيَحِقَّ الْقَوْلُ »
أى وتجب كلمة العذاب « عَلَى الْكَافِرِينَ » أى المعرضين عن اتباعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ)

« أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا » أى مما تولينا نحن خلقه ، لم يقدر
على إحداثه غيرنا . « أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ » أى متصرفون فيها تصرف الملاك .
أو ضابطون قاهرون لها كما قال (١) :

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملاك راس البعير إن نفرا

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

« وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ » أى صيرناها منقادة غير وحشية « فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ » أى سركوبهم
« وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ » أى ينتفعون بأكل لحمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ)

« وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ » أى من الجلود والأصواف والأوبار « وَمَشَارِبُ » أى من ألبانها
« أَفَلَا يَشْكُرُونَ » أى فيعبدوا المنعم بأصناف هذه النعم الجسيمة .

(١) قائله الربيع بن ضبع الفزارى . من قصيدته التى أولها :

أفقر من مئة الجريب إلى الله — رُجَّين إلا الأطباء والبقرا

انظر ص ١٥٨ من (نوادر أبى زيد)

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ)

«وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ» أى ينصرونهم فيما نابهم من الكوارث.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ)

«لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ» أى لآلهمهم «جُنْدٌ مُحْضَرُونَ» أى مُعَدُّون لخدمتهم والذب عنهم . فمن أين لهم أن ينصروهم وهم على تلك الحال من العجز والضعف ؟ أى بل الأمر بالعكس . وقيل : المعنى محضرون على أثرهم فى النار . وَجَعَلَهُمْ - على هذا - جندا ، تسكم واستهزاء . وكذا لام (لَهُمْ) الدالة على النفع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ . إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)

«فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ» أى فى الله تعالى بالإلحاد والشرك . أو فى حقك بالتكذيب والإيذاء «إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ» أى فنجازيهم عليه . كنى عن مجازاتهم بعلمه تعالى ، للزومه له . إذ علم الملك القادر بما جرى من عدوه الكافر ، مقتضى لمجازاته وانتقامه . وتقديم السرّ ، لبيان إحاطة علمه تعالى بحيث يستوى السر عنده والعلانية . أو للإشارة إلا الاهتمام بإصلاح الباطن ، فإنه ملاك الأمر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

«أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ» أى جدل بالباطل

بين الجدال ، وهذه تسليمة ثانية ، بتهوين مايقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر . تأثرت الأولى وهى قوله (فَلَا يَحْزُنُكَ) الآية ، عنايةً بشأنه صلوات الله عليه .
قال الطيبي : هذا معطوف على (أولم يروا) قبله . والجامع ابتناء كل منهما على التعميس .
فإنه خلق له ماخلق ليشكر ، فكفر وجحد النعم والنعم . وخلق له من نطفة قدرة ليكون منقاداً متذللاً ، فطغى وتكبر وخاصم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ)

« وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا » أى فى استبعاد البعث وإنكاره « وَنَسِيَ خَلْقَهُ » أى خلقنا إياه
« قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ » أى بالية أشد البلى ، بعيدة عن الحياة غاية البعد .
وإنما لم يؤنث لأنه اسم لما بلى من العظام . جامد غير صفة ، كالرمة والرفات . أو مشتق ، فعيل بمعنى فاعل . إلا أنه لما غلب جريانه على غير موصوف ، ألحق بالأنساء فلم يؤنث . أو بمعنى مفعول . من (رمه) بمعنى أبلاه . وأصله الأكل . من (رمت الإبل الحشيش) فكان ما بلى أكلته الأرض . وقال الأزهري : إن (عظاما) لكونه بوزن المفرد ، ككتاب وقراب ، عومل رميم معاملته . وذكر له شواهد .
قال الشهاب : وهو غريب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)

« قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى فلا تقاس قدرة الخالق على قدرة المخلوقين .
وإنما تقاس إعادته على إبدائه « وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » أى فلا يمتنع عليه جمع الأجزاء بعد تفرقها ، لعله بأصولها وفصولها ومواقعها ، وطريق ضمها إلى بعضها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ) «الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ» أى الذى بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً فأثمر ونبغ، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً يوقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء، قادر على ما يريد. لا يمنعه شيء. قال قتادة: الذى أخرج النار من هذا الشجر، قادر على أن يبعثه. وقيل: المراد بذلك شجر المرخ والعفار (من شجر البادية) فى أرض الحجاز. فيأتى من أراد قذح نار وليس معه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقذح أحدهما بالآخر، فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء. روى هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما. والعفار الزند وهو الأعلى. والمرخ الزندة وهو الأسفل. بمنزلة الذكر والأنثى. وعكس الجوهرى فجعل المرخ ذكراً والعفار أنثى، واللفظ مساعد له. إلا أن الأول يؤيده قول الشاعر^(١):

إذا المَرخُ لم يُورِ تحت العَفارِ وضُنَّ بقَدْرِ فلم تُعَقَّبِ

وقال أبو زياد: ليس فى الشجر كله أورى ناراً من المَرخ. وربما كان المَرخ مجتمعاً ملتفماً، وهبت الريح، وجاء بعضه بعضاً فأورى فأحرق الوادى. ولم تر ذلك فى سائر الشجر. وقال الأزهري: العرب تضرب بالمَرخ والعفار، المثل فى الشرف العالى. فتقول: (فى كل شجر نار. واستمجد المَرخ والعفار) أى كثرت فيهما على ما فى سائر الشجر. و (استمجد) استكثر واستفضل. وذلك أن هاتين الشجرتين من أكثر الشجر ناراً. وزنادهما أسرع الزناد ورية. وفى المثل: أقدح بعفار أو مرخ، ثم اشدد إن شئت أو أرخ. ويقال (فى كل شجر نار إلا العُتَاب).

(١) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٥٤ من المجلد الثالث (طبعة بيروت).

قال الشهاب : ولذا يتخذ منه مدقّ القصارين . ثم أنشد لنفسه :
 أيا شجر العُتَاب نارك أوقدت بقلبي . وما العُتَاب من شجر النار
 انتهى .

والمقصود أنه تعالى لا يتمتع عليه إعادة المزاج الذى به تعلق الروح بعد انعدامه بالكيفية .
 لأن الذى يبدل مزاج الشجر الرطب بمزاج النار ، وهى حارة يابسة بالفعل ، مع ما فى الشجر
 من المائية المضادة لها ، أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضاً ، تطراً عليه اليبوسة
 والبلل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ،
 بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

« أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » أى مع كبر جرمهما « بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ
 يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » أى فى الصغر والضعف ثانياً ، بعد ما خلقهم أولاً « بَلَىٰ » أى هو القادر
 « وَهُوَ الْخَلَّاقُ » أى الكثير الخلق مرة بعد أخرى « الْعَلِيمُ » أى الواسع المعلومات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

« إِنَّمَا أَمْرُهُ » أى شأنه الأعلى أو قوله النافذ « إِذَا أَرَادَ شَيْئًا » أى إذا تعلقته إرادته
 بإيجاد شيء « أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » أى فيوجد عن أمره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ » تنزيه له مما وصفه به المشركون ،

وَمَجِيبٌ مَنْ أَنْ يَقُولُوا فِيهِ مَا قَالُوا . وَهُوَ مَالِكٌ كُلِّ شَيْءٍ وَالتَّصَرُّفُ فِيهِ بِلَا وَازِعٍ وَلَا مَنَازِعٍ .
« وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أَيْ بَعْدَ الْمَوْتِ ، فَيَجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ .

فائدة :

قال ابن كثير : الملك والملوكوت واحد في المعنى . كرحمة ورحموت ورهبة ورهبوت
وجبر وجبروت . ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجسام ، والملوكوت هو عالم الأرواح .
والصحيح الأول . وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم . انتهى .
ولبعضهم : إن الملوكوت صيغة مبالغة من الملك . فهو بمعنى الملك التام ، والله هو
العليم العلام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٧ - سورة الصافات

سميت بها لاشتمال الآية التي هي فيها على صفات للملائكة تنفي إلهية الملائكة من الجهات الموهمة لها فيهم . فينتفي بذلك إلهية مادونهم ، فيدل على توحيد الله ، وهو من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهابي .

وهي مكية اتفاقا ، وآيها مائة واثنان وثمانون . روى النسائي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ، ويؤمنا بالصافات . قال ابن كثير : تفرّد به النسائي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا)

[٢] (فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا)

[٣] (فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا)

[٤] (إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ)

« وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ »

افتتح تعالى هذه السورة بالقسم بيمض مخلوقاته ، إظهاراً لعظم شأنها وكبر فوائدها . وتنبيها إلى الاعتبار بصفتها وما تستدعيه من سِمَتها . و (الصافات) جمع صافة ، أى طائفة صافة ، أو جماعة صافة . فيكون فى المعنى جمع الجمع . أو على تأنيث مفردة باعتبار أنه ذات ونفس ، والمراد بالصافات الملائكة . لقيامها مصطفة فى مقام العبودية لملك الملك . من قوله تعالى^(١) (وَإِنَّا لَنَخْنُ الصَّافُونَ) أو لصفها أجنتها فى الهواء واقفة منتظرة لأمر الله تعالى . و (الزاجرات) أى : الناس عن المعاصى ، بإلهام الخير . من (الزجر) بمعنى المنع والنهي . أو الزاجرات الأجرام العلوية والسفلية بالتدبير المأمور به . من (الزجر) بمعنى السوق والحث . و (التاليات) أى : آياته تعالى على أنبيائه عليهم السلام ، وقيل : الصافات الطير . من قوله تعالى^(٢) (وَأَلْطِيفُ صَفَاتٍ) و (الزاجرات) ، كل ما زجر عن معاصى الله . و (التاليات) كل من تلا كتاب الله . أو هم العلماء الصافون فى العبادات أقدامهم ، الزاجرون عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح ، التالون آيات الله وشرائعه . أو هم الغزاة الصافون فى الجهاد ، والزاجرون الخيل أو العدو ، التالون لذكر الله ، لا يشغلهم فيها عنه مبارزة العدو . وقد ذكر

(١) [٣٧ / الصافات / ١٦٥] . (٢) [٢٤ / النور / ٤١] .

غير هذا ، مما يشمله اللفظ ولا يأباه . وبالجمله ، فالمعطف إما لاختلاف الذوات أو الصفات . وإيثارُ الفاء على (الواو) لقصد الترتيب والتفاضل طرداً أو عكساً . أما الأول فاعتناء بالأهم فالأهم . وأما الثاني فالترقي إلى الأعلى . و (صفا) و (زجرا) مصدر مؤكد . وكذا (ذكر) ويجوز فيه كونه مفعولاً به . قال الناصر : وفي هذه الآية دلالة على مذهب سيبويه والخليل في مثل ^(١) (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى) فإنهما يقولان : الواو الثانية وما بعدها عواطف . وغيرها يذهب إلى أنها حروف قسم . فوقع الفاء في هذه الآية موقع الواو . والمعنى واحد . إلا أن ما تزيده الفاء من ترتيبها ، دليل واضح على أن الواو الواقعة في مثل هذا السياق ، للمعطف لا للقسم . انتهى .

وقوله تعالى (إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ) جواب للقسم . وفي تأكيد المقسم عليه بتقديم الإقسام وتوكيد الجملة ، اهتمام به بتحقيق الحق فيه الذي هو التوحيد ، وتمهيد لما يعقبه من البرهان الناطق به ، وهو قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ)

« رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ » فإن وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع ، من أوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته ، وأعدل شواهد وحدته . أى مالك السموات والأرض وما بينهما من الموجودات ومرتبتها ومبلغها إلى كلالتها . والمراد بالمشارق مشارق الشمس . وإعادة ذكر الرب فيها ، لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجدها كل يوم . فإنها ثلاث مائة وستون مشرقاً . تشرق كل يوم من مشرق منها . وبحسبها تختلف المغارب ، وتغرب كل يوم في مغرب منها . وأما قوله تعالى (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) فهما مشرقا الصيف والشتاء ومغرباهما . أفاده أبو السعود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّا زَيْنًا أَلْمَمَاءُ الدُّنْيَا بَرِينَةٌ أَلَكُوا كِبِ)

« إِنَّا زَيْنًا أَلْمَمَاءُ الدُّنْيَا » أى الجهة العليا القربى من كرة الأرض « بَرِينَةٌ » أى عجيبة بديعة « أَلَكُوا كِبِ » بالجر، بدل من (زينة) . وقرئ بالإضافة، على أنها بيمانية، أو على معنى ما زينت هى به، وهو ضوءها . والمراد التزيين فى رأى العين . فإن الكواكب تبدو للناظرين كأنها جواهر متلاثلة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ)

« وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ » أى خارج عن الطاعة، بقذفه بشبهها، كما يتناول إلى استراق السمع من جهتها و (حفظًا) إما منصوب بإضمار فعله . أى حفظناها حفظًا . أو بعطفه على (زينة) من حيث المعنى . أى خلقنا الكواكب للسماء زينة وحفظًا . أو على المفعول لأجله بزيادة الواو . والعامل فيه (زَيْنًا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (لَا يَسْمَعُونَ إِلَى أَلْمَلَاءِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَذِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ)

« لَا يَسْمَعُونَ إِلَى أَلْمَلَاءِ الْأَعْلَىٰ » قرئ بالتخفيف والتشديد . وأصله (يتسمعون) أى يتطلبون السماع . والضمير لكل شيطان . لأنه فى معنى الشياطين ، والجملة مستأنقة لبيان ما عليه حال المستترقة للسمع من أنهم لا يقدرُونَ أن يسمعوا إلى كلام الملائكة الخ . أو هى علة للحفظ . أى لئلا يسمعوا . فحذفت اللام ثم (أَنَّ) وأهدر عملها . وضعفوه بلزوم اجتماع حذفين، وهو منكر . كما ذكره فى قوله تعالى ^(١) (يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا) أى لئلا

(١) [٤ / النساء / ١٧٦] .

تضلوا ، وقد يقال : إنما ينسرك حذف شيئين فيما يخلّ بالنسجام الكلام . أما في تقدير أمرٍ له نظائر ، ومرجعه إلى تحليل معنى ، لا ياباه اللفظ - فلا وجه للتعصب في رده ، لجرد أن الكوفيين ، مثلاً ، ذهبوا إليه أو غيرهم . وشاهد المعنى أعدل من حكم القواعد وتحكيمها « وَيُقَدِّفُونَ » أى يرمون « مِنْ كُلِّ جَانِبٍ » أى من جميع جوانب السماء ، إذا قصدوا الصعود إليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ)

« دُحُورًا » أى للدحور وهو الطرد « وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » أى شديد غير منقطع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)

« إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخُطْفَةَ » أى اختلس الكلمة « فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ » أى لحقه شملة نارية تنقض من السماء « ثَاقِبٌ » أى مضى . كأنه يشقب الجو بضوئه .

تنبيه :

ذكر المفسرون أن الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء . فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب ، وكانوا يخبرونهم به ويوهونهم أنهم يعلمون الغيب . فنعهم الله تعالى من الصعود إلى قرب السماء بهذه الشهب . فإنه تعالى يرميهم بها فيحرقهم . قال ابن كثير : يعنى إذا أراد الشيطان أن يسترق السمع ، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه . ولهذا قال جل جلاله (لَا يَسْمَعُونَ إِلَّا الْمَلَأَ الْأَعْلَى) أى : لتلا يصلوا إلى الملا الأعلى ، وهى السموات ومن فيها من الملائكة ، إذا تسكلموا بما يوحى الله تعالى بما يقوله من شرعه وقدره .

كما وردت الأخبار بذلك في تفسير قوله تعالى^(١) (حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ، قَالُوا أَنَحَقُّ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) انتهى .

قال بعض علماء الفلك : كما أن العرش تحفه الأرواح الغيبية - حسبما تقدم بيانه في آية^(٢) (ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) في الأعراف - فكذلك الكواكب الأخرى مسكونة مع الحيوانات والدواب بأرواح، منها الصالح (الملك) ومنها الطالح (الشيطان) وكذلك أرضنا هذه . ففيها من الملائكة ومن الشياطين ما لا نبصره^(٣) (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِن حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) ولا يخفى أن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود . فعدم إدراكنا لهذه الأرواح لا يدل على عدم وجودها . كما أن عدم معرفة القدماء للميكروبات وللصكهرباء التي تشاهد الآن آثارها العظيمة ، لم يكن يدل على عدم وجودها إذ ذاك في العالم . فن الجهل الفاضح إنكار الشيء لعدم معرفته أو العثور عليه . على أن لنا الآن من مسألة استحضر الأرواح أكبر دليل على وجود أرواح في هذه الأرض ، لا نبصرها ولا نشعر بها . وقد قدر الله تعالى أن الحيوانات في هذه الأرض ، إذا خرجت عنها إلى حيث ينقطع الهواء ويبطل التنفس ، تموت في الحال . وكذلك قدر أن الأرواح الطالحة التي في أرضنا هذه ، إذا أرادت الصعود إلى السماء والاختلاط بالأرواح التي في الكواكب الأخرى ، انتقض عليها ، قبل أن تخرج من جو الأرض ، شهاب من هذه الكواكب أو من غيرها ، فأحرقها وأهلكها ، بإفساد تركيبها ومادتها . حتى لا يحصل اتصال بين هذه وتلك ، ولا تطلع على أسرار العوالم الأخرى . وهذه الشهب التي تنقض ، إن كانت صادرة من أجرام ملتهبة ، كانت ملتهبة . وإن كانت صادرة من أجرام غير ملتهبة ، التهمت فيما بعد لشدة مرعتها واحتكاكها بالغازات التي تمر فيها في جوتنا هذا . ولعل في مادة الشياطين ما يجتذب إليه هذه الشهب ويتحد بها . كما تجتذب العناصر الكيميائية

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٣] . (٢) [٧ / الأعراف / ٥٤] .

(٣) [٧ / الأعراف / ٢٧] .

بعضها بعضا (مثال ذلك عنصر الصوديوم فإنه يجتذب إليه الأكسجين من الماء فيحمله) ولا نقول إن جميع الشهب تنفض لهذا السبب، بل منها ما ينفض لأسباب أخرى . كاجتذاب بعض الأجرام السماوية له . ومنها ما ينفض لإهلاك الشياطين، كما بينا هنا . والشياطين مخلوقة من مواد غازية كانت ملتصبة^(١) (وَالْجَبَّانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ) والمراد (بالسما الدنيا) في هذه الآية الفضاء المحيط بنا القريب منا . أى هذا الجو الذى نشاهده وفيه العوالم كلها . أما ما وراءه من الجواء البعيدة عنا ، التى لا يمكن أن نصل إليها بأعيننا ولا بمنظيرنا ، فهو فضاء محض لا شئ فيه . فلفظ (السماء) له معان كثيرة كلها ترجع إلى معنى السمو . وتفسرُ في كل مقام بحسبه .

ثم قال : فكل مسألة جاء بها القرآن حق ، لا يوجد في العلم الطبيعي ما يكذبها . لأنه وحى الله حقا ، والحق لا يناقضه الحق^(٢) (سَتُرِيهِمْ عَائِلَةً فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) اه . وقال أيضا : يعتقد الآن علماء الفلك أن أكثر الشهب تنشأ من ذوات الأذئاب . ويحتمل أن بعضها ناشئ من بعض الشموس المنحلة ، أو الباقية للتهبة ، أو من براكين بعض السيارات ، أو مما لم ينطق من السيارات للآن . ومتى علمنا أن ذوات الأذئاب والسيارات جميعا مشتقة من الشموس ، كان مصدر جميع الشهب هو الشموس أو النجوم . (قال) : وهذا يفهمنا معنى هذه الآية . اه كلامه .

ونظير هذه الآية قوله تعالى^(٣) (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) وقوله عز وجل^(٤) (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ

(١) [١٥ / الحجر / ٢٧] . (٢) [٤١ / فصلت / ٥٣] .

(٣) [٦٧ / الملك / ٥] . (٤) [١٥ / الحجر / ١٦-١٨] .

فَاتَّبَعَهُ وَشِهَابٌ مُبِينٌ) وقوله سبحانه إخباراً عن الجن ^(١) (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَا نَهارًا مُمِيتًا وَشِهَابًا مُبِينًا) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَهَن يَسْتَمِعِ الْأَنُّ يَجِدُ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مِّنْ خَلْقٍ نَّاسٍ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ)
« فَاسْتَفْتِهِمْ » أى فاستخبر مشركى مكة « أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا » أى أقوى خلقه وأمتن
بنية « أَمْ مِّنْ خَلْقٍ نَّاسٍ » أى من السموات والأرض والجبـال . كقوله تعالى ^(٢) (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ
خَلْقًا أَمْ السَّمَاوَاتُ الْأَرْضُ الْأَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) وفى
اضطرارهم إلى الجواب بصغر خلقهم وتضاؤلهم عما ذكر ، اعتراف بأنه لا يتعالى عليه أمر بعد
هذا . كشأن البعث وغيره . وإليه الإشارة بقوله تعالى « إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ »
أى لزج ضعيف لا قوة فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ)
« بَلْ عَجِبْتَ » أى من إنكارهم للبعث بعد اضطرارهم للاعتراف بما يحققه « وَيَسْخَرُونَ »
أى من تقرير أمر البعث والاحتجاج عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ)
« وَإِذَا ذُكِّرُوا » أى بما يؤيده ، أو وعظوا وخوفوا من المخالفة « لَا يَذْكُرُونَ » أى
ما يقتضيه ؟ لتمنهم وعنادهم . أو لا يخافون ولا يتعظون .

(١) [٧٢ / الجن / ٩ و ٨] . (٢) [٧٩ / النازعات / ٢٧] . (٣) [٤٠ / غافر / ٥٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ)

« وَإِذَا رَأَوْا آيَةً » أى برهاناً واحتجاجاً على مصداقه، من آيات الكائنات فى أنفسهم أو فى الآفاق « يَسْتَسْخِرُونَ » أى يبالغون فى السخرية، بدل الاعتبار والتدبر والتفكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

« وَقَالُوا إِن هَذَا » أى ادعاء ما ذكر ، والاستدلال عليه والصدع بشأنه ، والقراع فيه « إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

[١٧] (أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ)

[١٨] (قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ)

« أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ » أى تبكىتم لهم . « نَعَمْ » أى تبعثون « وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ » أى ذليلون ، لاجدل منكم يدفعه ولا قدرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ)

« فَإِنَّمَا هِيَ » أى البعثة « زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ » أى صيحة واحدة « فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ » أى قيام من مراقدهم أحياء ، أولو قوة مدركة ، بها يبصرون . أو ينتظرون ما يفعل بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ)

« وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ » أى الجزاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ)

[٢٢] (أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ)

« هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ * أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى

أنفسهم بالكفر والمعاصى والسعى بالفساد « وَأَزْوَاجَهُمْ » أى وأشباههم من الفجرة .

أو نساءهم الكافرات « وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ)

« مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى من الأصنام وغيرها ، زيادة فى تحسيرهم وتنجيلهم « فَأَهْدُوهُمْ

إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ » أى فعرفوهم طريقها ليسلكوها . والتعبير به (الهداية) و (الصراط)

للتهم بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَقِفُوهُمْ ، إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

« وَقِفُوهُمْ » أى احبسوهم فى الموقف « إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ » أى عن عقائدهم وأعمالهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ)

« مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ » أى لا ينصر بعضكم بعضاً ، وقد كان شأنكم التعاضد في الحياة الأولى . وهو توبيخ لهم وتقريع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (بَلْ هُمْ أَلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ)

« بَلْ هُمْ أَلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ » أى مفقادون ومخدولون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

[٢٨] (قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ)

« وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ »
أى عن القهر والغلبة . أى كنتم تضطروننا إلى ما تدعوننا إليه . كما في آية (١) (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ وَءَأْنَدَادًا) وقيل عن الحلف والقسم . وقيل عن جهة الخير وناحية الحق .
من (اليمين) ضد الشؤم . أى توهموننا وتخدعوننا أن ما أنتم عليه أمر ميمون فيه الخير والفوز .
فأين مصداقه وقد نزل ما نزل ؟

(١) [٣٤ / سبأ / ٣٣] .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٢٩] (قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

[٣٠] (وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ، بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ)

[٣١] (فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ، إِنَّآ لَذَٰبِقُونَ)

[٣٢] (فَأَغْوَيْنَاكُمْ ، إِنَّآ كُنَّا غَوِينَ)

[٣٣] (فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

[٣٤] (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ)

[٣٥] (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)

« قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّآ لَذَٰبِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ ، إِنَّآ كُنَّا غَوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ » أى عن الاستجابة للداعى إليها .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَيَقُولُونَ أَبِنَا لَتَنَارِكُوءَ إِلَٰهَتِنَا لَشَاعِرٍ مُّجْنُونٍ)

« وَيَقُولُونَ أَبِنَا لَتَنَارِكُوءَ إِلَٰهَتِنَا لَشَاعِرٍ مُّجْنُونٍ » أى لقول من يقول بالمقدمات الخيالية عن الجنون . فرد عليهم بأنه لم يأت بكلام مخيل .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٣٧] (بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ)

« بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ » أى الذين هم أعدل الأمم وأحكم الحكماء .

فتى يتفقون على قول مصدره الجنون ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ)

[٣٩] (وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٤٠] (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

[٤١] (أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ)

[٤٢] (فَوَٰكِهِ وَهُمْ مُكْرَمُونَ)

[٤٣] (فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

[٤٤] (عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ)

« إِنَّكُمْ » أى بافرائكم « لَذَآئِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَٰكِهِ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ » أى فى الصف مترابطين ، لا يحجب بعضهم عن بعض ، ولا يتفاضلون فى المقاعد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ)

« يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ » أى شراب معين ، جارٍ كالنهر لا ينقطع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (يَبْيَضَاءُ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ)

[٤٧] (لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ)

« بَيَضَاءُ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ » أى ما يفتال العقل ، ولا فساد من فساد خمر الدنيا « وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ » أى تذهب عقولهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَعِنْدَهُمْ قَصِرَاتُ الطُّرْفِ عَيْنٌ)

[٤٩] (كَأَنَّهُنَّ بَيِضٌ مَّكْنُونٌ)

« وَعِنْدَهُمْ قَصِرَاتُ الطُّرْفِ » أى على أزواجهن أو مبيضاته تشبيها بالثوب المقصور، وهو المحوّر . « عَيْنٌ » أى كبار الأعين « كَأَنَّهُنَّ بَيِضٌ مَّكْنُونٌ » أى يبيض نعام فى الصفاء ، مستور لم يركب عليه غبار .

قال الشهاب : وهذا على عادة العرب فى تشبيه النساء بها . وخصت ببيض الفعام ، لصفائه وكونه أحسن منظراً من سائرّه . ولأنها تبيض فى الفلاة وتبعد ببيضها عن أن يمس . ولذا قالت العرب للنساء (ببيضات الخدور) ولأن بياضه يشوبه قليل صفرة مع لئعان ، كما فى الدرّ . وهو لون محمود جداً . إذ البياض الصرف غير محمود . وإنما يحمّد إذا شابّه قليل حمرة فى الرجال ، وصفرة فى النساء . انتهى .

وحكى ابن جرير عن ابن عباس ؛ أنه عنى بالبيض المكنون (اللؤلؤ) . ثم قال : والعرب تقول اسكل مصون (مكنون) لؤلؤا كان أو غيره . كما قال أبو دهب^(١) :

وهى زهراء مثل لؤلؤة الغواصِ مِيزَتْ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونِ

(١) من قصيدته التى مطلعها :

طال ليلى وبّت كالحزونِ ومَلِئْتُ الثَّوَاءَ فى جَيْرُونِ

جيرون : حصن فى دمشق ، وقيل : هى دمشق نفسها .

قالها فى غاتسكة بنت معاوية بن أبى سفيان .

انظر الصفحة رقم ١٢٢ من الجزء السابع من الأغاني (طبعة دار الكتب) .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٥٠] (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

« فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » معطوف على (يطاف) والمعنى ، يشربون فيتحادثون على الشراب ، كمادة أهل الشرب ، عما جرى لهم وعليهم .
وقال القاشانى : أى يتحادثون أحاديث أهل الجنة والنار ، ومذاكرة أحوال السعداء والأشقياء ، مطلعين على كلا الفريقين وما هم فيه من الثواب والعقاب ، كما ذكر فى وصف أهل الأعراف .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٥١] (قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)

[٥٢] (يَقُولُ أَأَنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ)

[٥٣] (أَأَءَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَدِينُونَ)

« قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ » أى فى المحادثة « إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ » أى جليس فى الدنيا « يَقُولُ أَأَنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ * أَأَءَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَدِينُونَ » أى لمبعوثون فجزيون . أى يقول ذلك على وجه التمجيد والتكذيب . والمعنى : فهنا قد صدقنا ربنا وعده ، وأحل بالقرين وعيده ، كما أشار له بقوله :

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٥٤] (قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُّطْلِعُونَ)

« قَالَ » أى ذلك القائل « هَلْ أَنتُمْ مُّطْلِعُونَ » أى إلى أهل النار من كوى الجنة ومطالها ، لأريكم ذلك القرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

[٥٦] (قَالَ تَاللَّهِ إِنِ كِدْتَ لَتُرْدِينَ)

[٥٧] (وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ)

« فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ » أى وسطه « قَالَ تَاللَّهِ إِنِ كِدْتَ لَتُرْدِينَ »

أى تهلكنى بالإغواء « وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى » أى بالهداية واللفظ بى « لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ » أى معك فى النار . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ)

[٥٩] (إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ)

« أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ » من تقمة كلامه

لقرينه ، تقريباً له . أو معاودة إلى محادثة جلسائه ، تحذيراً بنعمة الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[٦١] (لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

« إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ » أى لنيل مثله ،

فليجد المجدون .

ولما وصف ملاذ أهل الجنة ، تأثره بمطاعم أهل النار ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (أَذَلِكْ خَيْرٌ نُّزَلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ)

« أَذَلِكْ خَيْرٌ نُّزَلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ » وهي شجرة كريهة المنظر والطعم ، كما ستذكر صفتها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ)

[٦٤] (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ)

[٦٥] (طَلْمُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ)

« إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً » أى محنة وعذابا « لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْمُهَا » أى حملها « كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ » أى مثل ما يتخيل ويتوهم من قبح رؤوس الشياطين . فهى قبيحة الأصل والثمر والمنظر والملمس . قال الزمخشري : وشبه رؤوس الشياطين دلالة على تناهيه فى الكراهة وقبح المنظر . لأن الشيطان مكروه مستقبح فى طباع الناس ، لا اعتقادهم أنه شر محض لا يخالطه خير . فيقولون فى القبيح الصورة (كأنه وجه شيطان) (كأنه رأس شيطان) وإذا صورته المصورون جاءوا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله . كما أنهم اعتقدوا فى الملك أنه خير محض لا شر فيه . فشبّهوا به الصورة الحسنة . قال الله تعالى ^(١) (مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) وهذا تشبيه تخميلي . انتهى . أى لأمر مركوز فى الخيال . وبه يندفع ما يقال إنه تشبيه بما لا يعرف ، وذلك لأنه لا يشترط أن يكون معروفًا فى الخارج . بل يكفي كونه مركوزًا فى الذهن والخيال ،

(١) [١٢ / يوسف / ٣١] .

الأتري امرأ القيس^(٣) - وهو ملك الشعراء - يقول :

* ومسنونة زرق كَأَنِيَابِ أَعْوَالِ *

وهو لم ير الغول . والغول نوع من الشياطين ، لأنه في خيال كل أحد مرسم بصورة قبيحة ، وإن كان قابلاً للتشكل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (فَأَنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا فَمَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)

« فَأَنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا » أى من طلعها « فَمَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ » أى لغلبة الجوع أو الإكراه على أكلها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ)

« ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ » أى لشراباً كالصديد أو الفساق ، ممزوجاً من ماء مقناه في الحرارة ، يقطع أمعاءهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ لِآلِ الْجَحِيمِ)

« ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ » أى مصيرهم « لِآلِ الْجَحِيمِ » أى إلى دركاتهما . أو إلى تقسمها

(١) البيت :

أَيَقْتَلْنِي وَالْمَشْرِقُ مُضَا جَعِي وَمَسْنُونَةٌ زَرْقٌ كَأَنِيَابِ أَعْوَالِ !

من قصيدته التي مطلعها :

أَلَا عِمٌّ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي وَهَلْ يَعْمَنُ مَنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْخَالِي

انظر الصفحة رقم ٢٧ من الديوان (طبعة دار المعارف) .

لامفر لهم منها ولا محيص كيفما تحولوا . قال ابن كثير : أى ثم إن مردّهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج وسمير تقوّهج . فتارة فى هذا وتارة فى هذا . كما قال تعالى ^(١) (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ؕ أَنِّ) هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية . وهو تفسير حسن قوى . انتهى .

ومن لطائف الإشارات فى هذه الآية ، مقاله القاشانى . وعبارته : (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ) وهى شجرة النفس الخبيثة المحجوبة النابتة فى قعر جهنم الطبيعية المتشعبة أغصانها فى دركات القبيحة الهائلة عمراتها من الرذائل والخبائث كأنها من غاية القبح والتشوه والخبث بالتفرد (رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ) أى تنشأ منها الدواعى المهلكة والنوازع المردية الباعثة على الأفعال القبيحة والأعمال السيئة . فتلك أصول الشيطنة ومبادئ الشر والفسدة ، فكانت رؤوس الشياطين (فَإِنَّهُمْ لَا كِلُونَ مِنْهَا) يستمدون منها ويفتقدون ويتقوّون . فإن الأشرار غذاؤهم من الشرور ولا يلتذون إلا بها (فَمَآ لُثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ) بالهيماء الفاسقة والصفات المظلمة ، كالمتملى . غضبا وحقدا وحسدا وقت هيجانها (ثُمَّ إِنَّ إِيَّاهُمْ عَلَيْهِمْ لَشُوبًا مِّنْ حَمِيمٍ) الأهواء الطبيعية والمئى السيئة الرديئة ، ومحبات الأمور السفلية ، وقصور الشرور الموبقة ، التى تكسر بعض غلة الأثمار (ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ لِآلِ الْجَحِيمِ) لقلبة الحرص والشره ، بالشهوة والحقصد والبغض والطمع وأمثالها . واستيلاء دواعيها مع امتناع حصول مباحيها . انتهى .

وهذه الإشارات من المجازات التى تتسع لها اللغة ، لأنها لا تنحصر فى الحقيقة ، ولا يقال إنها المرادة هنا ، لقبوها عن نظائرهما من آيات الوعيد . والله أعلم . وقوله تعالى :

(١) [٥٥ / الرحمن / ٤٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (إِنَّهُمْ أَفْوَءٌ أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ)

[٧٠] (فَهُمْ عَلَى آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ)

«إِنَّهُمْ أَفْوَءٌ أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ» تعليل لاستحقاقهم تلك الشدائد بتقليد الآباء في الضلال . و(الإهراع) الإسراع الشديد كأنهم يزعمون على الإسراع على آثارهم . وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى ذلك من غير نظر وبحس ، بل مجرد تقليد وترك اتباع دليل . قال الرازي : ولو لم يوجد في القرآن آية غير هذه الآية في ذم التقليد ، لكنى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ)

[٧٢] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ)

«وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ» أي أنبياء حذروهم العواقب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)

«فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ» أي الذين أُنذروا وخوفوا . فقد أهلكوا جميعاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

«إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» أي الذين أخلصوا دينهم لله . أو الذين أخلصهم تعالى لدينه . على القراءتين . أي فإنه تعالى نصرهم وجعل العاقبة لهم . ثم أشار تعالى إلى أنبيائهم ، تبييناً لفؤاده صلوات الله عليه ، وتبشيراً لأتباعه ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

[٧٦] (وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

[٧٧] (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ)

« وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا » أى بقوله ^(١) (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) « فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ » أى نحن بهلاك قومه . لأنه لا يجيب المضطر غيره « وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » أى من العرق والطوفان . والمراد بأهله ، من آمن معه « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » أى فى الأرض بعد هلاك قومه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

[٧٩] (سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ)

« وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ » أى أبقينا عليه فى الأمم بعده ثناء حسنا ، ففعلول (تركنا) محذوف ، أو ما حكاه تعالى بقوله « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ » أى أن يسلموا عليه إلى يوم القيامة . أى أن يقولوا هذه الجملة . قال السمين : قوله (سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ) مبتدأ وخبر . وفيه أوجه : أحدها أنه مفسر لـ (تركنا) والثانى أنه مفسر لمفعوله . أى تركنا عليه شيئاً وهو هذا الكلام . أو ثم قول مقدر . أى فقلنا سلام . أو ضمن (تركنا) معنى (قلنا) أو سلط (تركنا) على ما بعده . وقرئ (سلاما) وهو مفعول به لـ (تركنا) .

(١) [٧١ / نوح / ٢٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

« إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » تعليل لما أئيب به من التكرمة ، بأنه مجازاة له على إحسانه ، وهو مجاهدته في إعلاء كلمة الله ، والدعوة إلى الحق ليلاً ونهاراً ، سرّاً وجهاراً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (إِنَّهُ وَمِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)

« إِنَّهُ وَمِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ » أى المصدقين . وتعليل إحسانه بالإيمان ، إظهار لفضل الإيمان ومزيته . حيث مدح من هو من كبار الرسل به . فالمقصود بالصفة مدحها نفسها ، لا مدح موصوفها . وذلك لأن الإيمان أساس لكل خير يوجد ، ومركز لدائرته ، ومسك خاتمه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِينَ)

« ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِينَ » أى من كفار قومه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ)

« وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ » أى ممن شابعه وتابعه في الإيمان والدعوة القوية إلى التوحيد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

« إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » أى أقبل إلى توحيدهِ بقلب خالص من الشوائب ،

باق على الفطرة ، سليم عن النقائص والآفات ، محافظ على عهد التوحيد الفطرى ، منكر على من غير وبدل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ)

« إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ » أى من دون الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (أَيْفُكَا إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ)

« أَيْفُكَا إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ » أى تريدون بطريق الكذب ، آلهة دون الله ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

« فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » أى بمن هو الحقيق بالعبادة ، لكونه رباً للعالمين ، حتى تركتم عبادته وأشركتم به غيره . والمعنى : لا يقدر فى وهم ولا ظن ما يصد عن عبادته . لأن استحقاقه للعبادة أظهر من أن يختلج عرق شبهة فيه . فأنكر ظنهم الكائن فى بيان استحقاقه للعبادة . وهو الذى حملهم على عبادة غيره . أو المعنى : فما ظنكم به ؟ ماذا يفعل بكم وكيف يماقبكم وقد عبدتم غيره ؟ وعلى كلِّ ، فلا استفهام إنكارى . والمراد من إنكار الظن إنكار ما يقتضيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ)

« فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ » أى ليرىهم على أنه يستدل بها على شيء لأنهم كانوا

منجّمين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ)

« فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ » أى مريض لا يمكننى الخروج معكم إلى معيكم . ترخص عليه السلام بذلك ، ليتخلص من شهود زورهم ومنكراتهم وأفانين شرهم ، مما تجوزه المصلحة . أو عني أنه سقيم القلب ، تشبها لغمه وحزنه بالمرض ، على طريق التشبيه . أو أراد أنه مستعد للموت استعداد المريض . فهو استعارة أو مجاز مرسل .

قال الزمخشري : والذي قاله إبراهيم عليه السلام ، معراض من الكلام . ولقد نوى به أن من في عنقه الموت ، سقيم . ومنه المثل (كفى بالسلامة داء) وقول لبيد^(١) :

فدعوتُ رَبِّيَ بالسلامة جَاهِدا لِيُصِحِّحَنِي ، فإذا السَّلامَةُ دَاءُ

ومات رجل فجأة ، فالتفت عليه الناس وقالوا : مات وهو صحيح . فقال أعرابي : أصحيحٌ من الموت في عنقه ؟ انتهى .

وقال السيوطي في (الإكليل) : في الآية استعمال المعارض والمجاز للمصلحة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ)

« فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ » أى إلى معيهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)

« فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِتِهِمْ » أى ذهب إليها في خفية « فَقَالَ » أى للأصنام استهزاء « أَلَا تَأْكُلُونَ » .

(١) رواه المبرد في الكامل غير منسوب .

وقال في (رغبة الآمل ج ٣ ص ٣٥) : ينسب إلى عبد الرحمن بن سويد المروزي .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۹۲] (مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ)

[۹۳] (ضَرَبْنَا عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ)

[۹۴] (فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ)

[۹۵] (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ)

[۹۶] (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

« مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ » أى بإيجاب ولا سلب « فَرَاغَ عَلَيْهِمْ » أى هجم عليهم « ضَرَبْنَا بِالْيَمِينِ » أى التى هى أقوى الباطشتين ، فكسرها . « فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ » أى إلى إبراهيم بعد ما رجعوا « يَزْفُونَ » أى يسرعون لمعاتبته على ما صدر منه . فأخذ عليه السلام يبرهن لهم على فساد عبادتهم « قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ » أى من الأصنام « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » أى وما تعملونه من الأصنام النوعة الأشكال ، المختلفة المقادير . ولما قامت عليهم الحجة ، عدلوا إلى أخذه باليد والقهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۹۷] (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ)

[۹۸] (فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ)

« قَالُوا ابْنُوا لَهُ » أى لإحراقه « بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ » فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ « أى الأذلين بإبطال كيدهم . جعل النار عليه بردا وسلاما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۹۹] (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ)

« وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي » أى مهاجر إلى بلد أعبد فيه ربه ، وأعصم فيه ديني .

قال الرازى : فيه دليل على أن الموضع الذى تكثر فيه الأعداء ، تجب مهاجرته . وذلك لأن إبراهيم عليه السلام ، مع ما خصه تعالى به من أعظم أنواع النصرة ، لما أحسن من قومه العداوة الشديدة ، هاجر . فلأن يجب على غيره ، بالأولى . وقوله « سَيَهْدِينِ » أى إلى ما فيه صلاح ديني ، أو إلى مقصدي . وإنما بت القول لسبق وعده تعالى . إذ تكفل بهدايته . أولأن من كان مع الله كان الله معه ^(١) (احفظ الله يحفظك) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ)

[١٠١] (فَبَشِّرْهُ بِأَخِيهِ)

« رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » أى ولدا صالحا يعيننى على الدعوة والطاعة « فَبَشِّرْهُ بِأَخِيهِ » أى متسع الصدر حسن الصبر والإغضاء فى كل أمر . والحلم رأس الصلاح وأصل الفضائل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)

فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ، قَالَ يَدَّأَبْتَ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ

مِنَ الصَّابِرِينَ)

« فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ » أى السن الذى يقدر فيه على السعى والعمل « قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ » أى : إني أمرت فى المنام بذبحك - ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة - فانظر هل تصبر على إمضائى أمر الرؤيا والعمل بظاهرها ؟

(١) أخرجه الترمذى فى : ٣٥ - كتاب القيامة ، ٥٩ - باب حدثنا بشر بن هلال .

« قَالَ يَا أَبَتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ » ، أى بأمرك الله به . فإن كان ذاك أمراً من لدنه فأَمْضِهِ . قال القاضي : ولعله فهم من كلامه أنه رأى أنه يذبحه مأموراً به . أو علم أن رؤيا الأنبياء حق ، وأن مثل ذلك لا يقدمون عليه إلا بأمر ، ثم قال : ولعل الأمر في المنام دون اليقظة ، لتسكون مبادرتهم إلى الامتثال ، أدل على كمال الانقياد والإخلاص . انتهى .

قال الرازى : الحكمة في مشاورة الابن في هذا الباب ، أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره في طاعة الله ، فتسكون فيه قرة عين لإبراهيم ، حيث يراه قد بلغ في الحلم إلى هذا الحد العظيم ، وفي الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية . ويحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة ، والثناء الحسن في الدنيا . وقوله « سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ » أى على الذبح ، أو على قضاء الله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِجَبِينِ)

« فَلَمَّا أَسْلَمَا » أى استسلما وانقادا لأمره تعالى بدون إبطاء ، واستل إبراهيم السكين ، وَتَلَّهُ لِجَبِينِ « أى صرعه على شقه ، فوق جبينه على الأرض وهو أحد جانبي الجبهة . و (تله) أصل معناه : رماه على التلّ ، وهو التراب المجتمع . ك (تربه) . ثم عم لكل صرع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ)

[١٠٥] (قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

« وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا » أى لا تذبحه وقدقت بمصدقها في بذل الوسع من الأخذ بإمضاء ماتشير إليه وكال الطاعة في هذا الشاق ، وأوتيت أجر الامتثال والصبر والثبات . وفي جواب (لما) ثلاثة أوجه ، أظهرها أنه محذوف . أى نادته الملائكة .

أو ظهر صبرها . أو أجزلنا لهما أجرهما . الثانى فى أنه (وَنَلَّهُمُ لِلْجَبِينِ) بزيادة (الواو) وهو رأى الكوفيين والأخفش . الثالث أنه (وَنَدَيْتُهُ) والواو زائدة أيضا . « إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » أى باللطف والعناية والنداء والوحى والفرج بعد الشدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ)

« إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ » أى الاختبار البين الذى يتميز فيه المخلص من غيره . إشارة إلى أن هذا الأمر كان ابتلاء وامتحاناً لإبراهيم فى صدق الخلقة لله ، وتوضيحية أعز عزيز لديه ، وأحب محبوب عنده ، لأمر ربه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ)

« وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ » أى رزقناه ما يذبح بدلاً عنه وفداء له ، منة وتطوُّلاً . وقد روى أنه عليه السلام لما نودى ، حانت منه التفاتة إلى ماحوله ، فأبصر كبشاً قد انتشب قرناه فى شجرة . فتم به الرئى فى المنام المقصود به القربان لله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

[١٠٩] (سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ)

[١١٠] (كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[١١١] (إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)

[١١٢] (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ)

[١١٣] (وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ) « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ » أى مثل ما تركنا على نوح . كما تقدم بيانه وإعراجه « كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ وَمِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ » أى على إبراهيم « وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ » أى : بتكثير الذرية وتسلسل النبوة فيهم ، وجعلهم ملوكا ، وإيتائهم مالم يؤت أحد « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ » أى فى عمله « وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ » أى بالكفر والمعاصى « مُبِينٌ » أى ظاهر الظلم .

تنبيهات :

الأول - يروى المفسرون ههنا فى قصة الذبح روايات منكورة لم يصحّ سندها ولا متنها . بل ولم تحسن ، فهى معضلة تنهى إلى السدّى وكعب . والسدّى حاله معلوم فى ضعف مروياته . وكذلك كعب .

قال ابن كثير رحمه الله : لما أسلم كعب الأخبار فى الدولة العمرية ، جعل يحدث عمر رضى الله عنه عن كتبه قديماً : فربما استمع له عمر . فترخص الناس فى استماع ما عنده عنه ، غثها وسمينها . وليس لهذه الأمة حاجة إلى حرف واحد مما عنده . انتهى .

ولقد صدق رحمه الله . ولذا لا نرى التزيد على أصل ما قص فى التنزيل من الضرورى له ، إلا إذا صحّ سنده ، أو اطمأن القلب به . وقد ولع الخطباء فى دواوينهم برواية هذه القصة فى خطبة الأضحى من طرقها الواهية عند المحدثين . ويرونها ضربة لازب على ضعف سندها وكون متنها منكراً أيضاً أو موضوعاً . ولما صنفت مجموعة الخطب حذفت هذه الرواية من خطبة الأضحى ككل مروى ضعيف فى فضائل الشهور والأوقات ، واقتصرت على جياذ الأخبار والآثار . وذلك من فضل الله علينا فلا نحصى ثناء عليه . وأمثلة ما روى فى هذا النبأ من

الآثار ما أخرجه الإمام أحمد^(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما موقوفاً، قال : لما أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمناسك، عرض له الشيطان عند السعى . فسابقه فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى جرة العقبة . فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب . ثم عرض له عند الجرة الوسطى فرماه بسبع حصيات . ثم تلّه للجبين ، وعلى إسماعيل عليه السلام قيص أبيض . فقال له : يا أبت ! إنه ليس لى ثوب تكفنى فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفنى فيه : فعالجه ليخلصه ، فنودى من خلفه : أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا . فالتفت إبراهيم فإذا بكبس أبيض أقرن أعين . قال ابن عباس : لقد رأيتنا نتبع ذلك الضرب من الكباش .

الثانى - قال السيوطى فى (الإكليل) : فى هذه الآية أن رؤيا الأنبياء وحى ، وجواز نسخ الفعل قبل التمكن ، وتقديم المشيئة فى كل قول . واستدل بعضهم بهذه القصة على أن من نذر ذبح ولده ، لزمه ذبح شاة .

ثم قال السيوطى : فسر الذَّبْح العظيم فى الأحاديث والآثار بكبس . فاستدل به المالكية على أن الغنم فى التضحية أفضل من الإبل . انتهى .

الثالث - استدل بالآية على أنه تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه - كما ذكره الرازى - وذلك فى باب الابتلاء . أى ابتلاء المأمور فى إخلاصه وصدقه ، فيما يشق على النفس تحمله .

الرابع - يذكر كثير الخلاف فى الذبيح . قال الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) : وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً . وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : هذا القول إنما هو متلقى من أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم . فإن فيه إن الله أمر

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٩٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٢٧٠٧ (طبعة المعارف) .

إبراهيم أن يذبح ابنه (بكره) . وفي لفظ (وحيدة) ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده . والذي غرّ وأصحاب هذا القول إن في التواتر التي بأيديهم (اذبح ابنك إسحاق) قال : وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم . لأنهم تناقض قوله (بكرك) (وحيدك) ولكن يهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف ، وأحبوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ، ويختارونه دون العرب . ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله . وكيف يسوغ أن يقال إن الذبيح إسحاق ، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب ، فقال تعالى عن الملائكة أنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى ^(١) (لَا تَخَفْ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ * وَأَمْرًا تَهْوِي قَائِمَةً فَضَحِكْتَ فَبَشَّرْنَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) فحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ثم يأمر بذبحه . ولا ريب أن يعقوب داخل في البشارة . فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ الواحد . وهذا ظاهر الكلام وسياقه . فإن قيل ، لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان يعقوب مجرورا عطفا على إسحق ، فكانت القراءة (ومن وراء إسحق يعقوب) أى ويعقوب من وراء إسحق . قيل لا يمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشراً به . لأن البشارة قول مخصوص : وهى أول خبر سار صادق . وقوله (ومن وراء إسحق يعقوب) جملة متضمنة بهذه القيود ، فيكون بشارة بل حقيقة البشارة هى الجملة الخبرية . أو لما كانت البشارة قولاً ، كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول . كأن المعنى : قلنا لها من وراء إسحق يعقوب والفائل إذا قال : بشرت فلاناً بقدوم أخيه ، وثقله فى أثره ، لم يعقل منه إلا بشارة بالأمرين جميعاً . هذا مما لا يستريب ذوقهم فيه البتة . ثم يضعف الجر أمر آخر . وهو ضعف قولك (مررت بزيد ومن بعده عمرو) لأن العاطف يقوم بحرف الجر ، فلا يفصل بينه وبين المجرور : كما لا يفصل بين حرف الجار والمجرور ، ويدل عليه أنه سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه فى هذه السورة ، قال ^(٢) (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَدِّ بِرَاهِيمَ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا

(١) [١١ / هود / ٧١ و ٧٠] . (١) [٣٧ / الصافات / ١٠٣ - ١١١] .

كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْأَمِينُ* وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ*
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ* سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ* كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّهُ وَمِنْ
عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) ثم قال^(١) (وَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ) فهذا بشارة من الله
له، شكراً على صبره على ما أمر به. وهذا ظاهر جداً في أن الم بشر به غير الأول. بل هو كالنص
فيه . فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته . أى لما صبر الأب على ما أمر به وأسلم الولد
لأمر الله، جازاه الله على ذلك، بأن أعطاه النبوة . قيل: البشارة وقعت على المجموع، على ذاته
ووجوده وأن يكون نبياً . ولهذا ينصب (نبياً) على الحال المقدراً أى مقدراً نبوته . فلا يمكن
إخراج البشارة أن يقع على الأصل، ثم يخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفضلة . هذا محال
من الكلام . بل إذا وقعت البشارة على نبوته ، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى ، وأيضاً
فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر . كما جعل السعى بين الصفا
والمروة ورمى الجمار ، تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه ، وإقامةً لذكر الله . ومعلوم أن إسماعيل
وأمه هما اللذان كانا بمكة ، دون إسحق وأمه . ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام
الذى اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل . وكان النحر بمكة ، من تمام حج البيت الذى كان على
يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً . ولو كان الذبح بالشام ، كما يزعم أهل الكتاب ومن
تلقى عنهم، لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة . وأيضاً فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليماً
لأنه لأحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه . ولما ذكر إسحق سماه علياً فقال^(٢) (هَلْ أَتَاكَ
حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُسْكِرِينَ* إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ)
إلى أن قال^(٣) (قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِنُعْمَةٍ عَلِيمٍ) وهذا إسحق بلا ريب ، لأنه من
امراته وهى المبشرة به . وأما إسماعيل فمن السرية . وأيضاً فإنهما بشرا به على الكبر واليأس

(١) [٣٧ / الصافات / ١١٢] . (٢) [٥١ / الذاريات / ٢٤ و ٢٥] .

(٣) [٥١ / الذاريات / ٢٨] .

من الولد . وهذا بخلاف إسماعيل فإنه ولد قبل ذلك ، وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده . وإبراهيم لما سأل ربه الولد ووهبه له ، تعلقت شعبة من قلبه بحبته ، والله تعالى قد اتخذ خليلاً . والخلة منصب يقتضى توحيد المحبوب بالحببة وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها . فلما أخذ الولد شعبةً من قلب الوالد ، جاءت غير الخلة تفتزعها من قاب الخليل . فأمره الخليل بذبح المحبوب . فلما أقدم على ذبحه ، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد ، خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة ، فلم يبق في الذبح مصلحة . إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس فيه . فقد حصل المقصود ، فنسخ الأمر ، وفدى الذبيح ، وصدق الخليل الرؤيا ، وحصل مراد الرب . ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار ، إنما حصل عند أول مولود . ولم يكن ليحصل في المولود الآخرون الأول . بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ، ما يقتضى الأمر بذبحه . وهذا في غاية الظهور . وأيضاً فإن سارة امرأة الخليل غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة . فإنها كانت جارية . فلما ولدت إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة . فأمر الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها في أرض مكة ، ليرد عن سارة حرارة الغيرة . وهذا من رحمته ورافته . فكيف يأمره سبحانه بعد هذا ، أن يذبح ابنها ، ويدع ابن الجارية بحاله هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وخيرته لها . فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية ؟ بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية ، حينئذ يرق قلب السرة على ولدها ، وتبطل قسوة الغيرة رحمة ، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها ، وأن الله لا يضع بيتاً ، هذه وابنها منهم . ويرى عباده جبره بعد الكسر ، ولطفه بعد الشدة . وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم ، إلى ذبح الولد ، آلت إلى ما آلت إليه ، من جعل آثارها وموطئ أقدامهما مناسك لعباده المؤمنين ، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة . وهذا سنته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه ، أن يمن عليه بعد استضعافه وذله

وانكساره . قال تعالى ^(١) (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) ^(٢) (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) انتهى .

وقال السيوطي في (الإكليل) : واستدل بقوله تعالى بعد ^(٣) (وَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ) من قال إن الذبيح إسماعيل . وهو الذي رجحه جماعة . واحتجوا له بأدلة . منها وصفه بالحلم وذكر البشارة بإسحق بعده . والبشارة بيعقوب من وراء إسحق . وغير ذلك . وهي أمور ظنية لاقطعية . ثم قال : وتأملت القرآن فوجدت فيه ما يقتضي القطع أو يقرب منه - ولم أر من سبقني إلى استنباطه - وهو أن البشارة وقعت مرتين . مرة في قوله ^(٤) (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدَيْنِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ) فهذه الآية قاطعة في أن هذا المبشر به هو الذبيح . ومرة في قوله ^(٥) (وَأَمْرَأَتُهُ قَاسِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشِّرْهُنَّهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) الآية . فقد صرح فيها أن المبشر به إسحق . ولم يكن بسؤال من إبراهيم . بل قالت امرأته إنها عجوز ، وإنه شيخ . وكان ذلك في الشام لما جاءت الملائكة إليه بسبب قوم لوط وهو في آخر أمره . أما البشارة الأولى لما انتقل من العراق إلى الشام ، حين كان سنه لا يستغرب فيه الولد ، ولذلك سألته . فعلمنا بذلك أنهما بشارتان في وقتين ، بغلامين . أحدهما بغير سؤال ، وهو إسحق صريحا . والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره . فقطعنا بأنه إسماعيل وهو الذبيح . انتهى .

(١) [٢٨ / القصص / ٥] . (٢) [٥٧ / الحديد / ٢١] . (٣) [٣٧ / الصافات / ١١٢] .

(٤) [٣٧ / الصافات / ٩٩-١٠٢] . (٥) [١١ / هود / ٧١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ)

« وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ » أى بالنبوة والرسالة ، والاصطفاء على عالمي زمانهما .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

« وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » وهو قهر فرعون لهم ، بذبح الأولاد ونهاية الاستعباد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ)

« وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ » أى مع ضعفهم وقوة فرعون وقومه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ)

« وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ » أى البليغ في بيانه للأحكام والتشريعات ، والآداب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

« وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » أى فى باب الاعتقاد والمعاملات الموصل رعايته والسلوك عليه ، إلى السعادة .

القول في تأويل قوله تعالى:

[١١٩] (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَيْنَ)

[١٢٠] (سَلَّمَ عَلَى مُوسَىٰ وَهَارُونَ)

[١٢١] (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[١٢٢] (إِنَّهُمْ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)

[١٢٣] (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

« وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَيْنَ * سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمْ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » وهو من أنبياء بنى إسرائيل من بعد زمن سليمان . أرسله الله لما انتشرت الوثنية في الإسرائيليين ، وساعد على انتشارها بينهم ملوكهم ، وبنوا لها المذابح وعبدوها من دون الله تعالى ، ونبذوا أحكام التوراة ظهريا . فقام إلياس عليه السلام يوجههم على ضلالهم ويدعوهم إلى التوحيد ، ويسمى في التوراة (إيليا) وله نبأ فيها كبير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَأَلَا تَتَّقُونَ)

« إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَأَلَا تَتَّقُونَ » أى عذاب الله ونقمته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ)

« أَتَدْعُونَ بَعْلًا » أى تعبدونه أو تطلبون الخير منه ؟ وهو صنم من أصنام الفنيقيين ، أقاموا له ولغيره من الأوثان معابد ومذابح وكهنة ، يعظمون من شأنهم ويقيمون لهم المآذب والأعياد الخافلة . ويقدمون لهم ضحايا بشرية « وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ » أى تتركون عبادته . قال القاضى : وقد أشار فيه إلى المقتضى للإنكار، المعنى بالهمزة . ثم صرح به بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (اللَّهُ رَبُّكُمْ . وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)

[١٢٧] (فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)

« اللَّهُ رَبُّكُمْ . وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ » أى

في المذاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

[١٢٩] (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

[١٣٠] (سَلَّمَ عَلَى آلِ يَاسِينَ)

« إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ » أى الذين آمنوا به واتبعوه « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ *

سَلَّمَ عَلَى آلِ يَاسِينَ » بكسر الهمزة وسكون اللام موصولة بـ (ياسين) . وقرئ آل ياسين

بإضافة آل (بمعنى أهل) إليه . وكله من التصرف في العلم الأصلي ، الذى هو (إيليا) على

قاعدة العرب في الأعلام العجمية ، إذا أرادت أن تلتطفها في الاستعمال ، وتخففها على

الأسنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[١٣٢] (إِنَّهُمْ وَمِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)

[١٣٣] (وَإِنَّ لُوطًا لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ)

[١٣٤] (إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ وَأَجْمَعِينَ)

« إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ وَمِنْ عَبْدَانَا الْمُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ لُوطًا لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ » أى للدعاء إلى الله والنهى عن الفواحش « إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ » أى من عذاب قومه المنذرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ)

« إِلَّا عَجُوزًا » وهى امرأته ، فإنها وإن خرجت عن مكان عذابهم ، كانت « فِي الْغَابِرِينَ » أى فى حكم الباقين فى المذاب ، لكونها على دين قومها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ)

« ثُمَّ دَمَرْنَا » أى أهلكنا « الْأَخْرِينَ » بجمل قريتهم عاليا سافلها ، وإمطار حجارة من سجيل عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (وَإِنَّكُمْ لَتَمَرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ)

[١٣٨] (وَبِالْلَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

[١٣٩] (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ)

« وَإِنَّكُمْ » أى يا أهل مكة « لَتَمَرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِالْلَّيْلِ » أى فترون دائماً علامات مؤاخذتهم « أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ » أى إلى أهل نينوى للتوحيد ، والزجر عن ارتكاب المآثم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)

« إِذْ أَبَقَ » أى : بغير إذن ربه عن قومه المرسل إليهم « إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ »

أى السفينة المملوءة ، ليركب منها إلى بلد آخر . روى أنه نزل من يافا وركب الفلك إلى ترسيس . فميت ربح شديدة كادت تفرقهم . فافترعوا ليعلموا بسبب من ، أصابهم هذا البلاء . فوقعت على يونس . فألقوه فى البحر . وهو معنى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ)

« فَسَاهَمَ » أى قارع « فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ » أى المغلوتين بالقرعة . وأصله الزلق عن الظفر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ)

« فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ » أى ابتلعه « وَهُوَ مُلِيمٌ » أى آت بما يلام عليه من السفر بغير أمر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ)

« فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » أى الذاكرين الله بالتسبيح والإنابة والتوبة ، فى بطن الحوت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

« لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » أى لكان بطنه قبراً له إلى يوم القيامة . أى لكن رحمناه بتسبيحه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ)

« فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ » أى حملنا الحوت على طرحه باليبس من الشط « وَهُوَ سَقِيمٌ » أى مما ناله من هذا الحبس الذى يأخذ بالحناق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ)

« وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ » أى لتقيه من الذباب والشمس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ)

« وَأَرْسَلْنَاهُ » أى بعد ذلك ، بأن أمرناه ثانية بالذهاب « إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » وهم قومه المرسل إليهم ، الذين أبق عن الذهاب إليهم أولاً . و (أو) للإضراب . أو بمعنى الواو أو للشك بالنسبة إلى مرأى الناظر . أى إذا رآها الرأى قال : هى مائة ألف أو أكثر . والغرض الوصف بالكثرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)

« فَآمَنُوا » أى فسار إليهم ودعاهم إلى الله ، وأنذرهم عذابه إن لم يرجعوا عن الكفر والنى والضلال والفساد والإفساد . فأشفقوا من إنذاره واستكانوا لدعوته وآمنوا معه « فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ » أى حين انقضاء آجالهم بالعيش الهنى والمقام الأمين ، ببركة الإيمان والعمل الصالح . وإنما لم يختم قصته وقصة لوط بما ختم به سائر القصص من قوله (وَتَرَكْنَاهُ عَلَيْهِ) إلخ اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين فى آخر السورة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُنُونَ)

« فَاسْتَفْتِهِمْ » أى قريشاً المنذرين بأنباء الرسل وقومهم « أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُنُونَ » أى سلمهم عن وجه القسمة الضيزى التى قسموها . جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور ، فى قولهم (الملائكة بنات الله) مع كراهتهم الشديدة لهن ، ووأدهم واستنكافهم من ذكرهن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ)

« أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ » أى حاضرون ، حتى فاهوا بتلك العظيمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ)

[١٥٢] (وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

« أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ » أى صدر منه الولد . مع أن الولادة من خواص الأجسام القابلة للفساد « وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » أى فى مقالهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٣] (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ)

« أَصْطَفَى الْبَنَاتِ » أى اختار الإناث « عَلَى الْبَنِينَ » أى الذكور .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

« مَا لَكُمْ » أى : أى شئ عرض لعقواسكم « كَيْفَ تَحْكُمُونَ » بنسبة الناقص إلى المقام الأعلى ، وتخيركم الكامل .

لطيفة :

قال الزمخشري : قال قلت : (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ) بفتح الهمزة، استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد ، فكيف صحت قراءة أبي جعفر بكسر الهمزة على الإثبات ؟ قلت : جعله من كلام الكفرة، بدلا عن قولهم (وَلَدَ اللَّهُ) وقد قرأها حمزة والأعمش رضي الله عنهما. وهذه القراءة، وإن كان هذا حملها، فهي ضعيفة. والذي أضعفها أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبها . وذلك قوله (وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) و (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) فن جعلها للإثبات ، فقد أوقعها دخيلة بين نسيبين . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى أنه منزه عن ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ)

« أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ » أى حجة واضحة وبرهان قاطع . ثم لا يجوز أن يكون ذلك عقليا ، لاستحالته عند العقل . فغايته أن يكون ماثورا عن أسفار مقدسة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ » أى المسطور فيه ذلك عن وحى سماوى « إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى دعواكم . وهذا كقوله تعالى^(١) (أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ) وفيه إشعار بأن المدار فى الدعوى على البرهان البين . وأنها بدونها لا يقام لها وزن .

(١) [٣٠ / الروم / ٣٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا، وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)

«وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا» أى قربا منه. قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى. فقال أبو بكر رضى الله عنه: فَمَنْ أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن. وكذا قال قتادة وابن زيد. ثم أشار إلى أن لانسبة تقتضى النسب بوجه ما. عدا عن استحالة ذلك عقلا، بقوله «وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ» أى المنسوب إليهم هذا النسب «إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ» أى فى النار يوم القيامة. لكون الجنة كالجن، علما فى الأغلب للفرقة الفاسقة عن أمر ربها من عالم الشياطين. أى: فالنسوب إليهم يقتبرؤون من هذه النسبة، لما يعلمون من أنفسهم أنهم من أهل السعير، لا من عالم الأرواح الطاهرة، فإبال هؤلاء المشركون يهرفون بما لا يعرفون؟ وفسر بعضهم (الجنة) بالملائكة الحدث عنها قبل. والضمير فى (إنهم) للكفرة. ولعل ما ذكرناه أولى، لخلوة عن تشيت الضمائر، ولموافقة للأغلب من استعمال الجن والجنة. وذلك فيما عدا الملائكة. وقلنا (الأغلب) لما سمع من إطلاق الجن فى الملائكة. قال الأعشى^(١) يذكر سليمان عليه السلام :

وسخر من جن الملائك تسعة قايما لديه يعملون محاربا

وقال الراغب: الجن يقال على وجهين: أحدهما للروحانيين المستقرة عن الحواس كلها، بإزاء الإنس. فعلى هذا تدخل فيه الملائكة. وقيل: بل الجن بعض الروحانيين. وذلك أن الروحانيين ثلاثة: أخيار وهم الملائكة. وأشرار وهم الشياطين. وأوساط فيهم أخيار وأشرار، وهم الجن، ويدل على ذلك قوله تعالى^(٢) (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ) إلى قوله تعالى^(٣) (وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ) انتهى. ورد إطلاق الجن على الملائكة العلامة الفاسى فى شرحه على (القاموس) فقال: تفسير الجن بالملائكة مردود. إذ خلق الملائكة من نور لا من نار كالجن. والملائكة معصومون. ولا يتناسلون ولا يتصفون بكورة وأنوثة، بخلاف

(١) أنشده فى اللسان (مجلد ١٣ ص ٩٧، طبعة بيروت) هكذا ... يعملون بلا أجر.

(٢) [٧٢ / الجن / ١] . (٣) [٧٢ / الجن / ١٤] .

الجن . ولهذا قال الجاهير : الاستثناء في قوله تعالى ^(١) (إِلَّا إِبْلِيسَ) منقطع أو متصل . لكونه كان مغموراً فيهم ، متخلفاً بأخلاقهم . انتهى . وهو يؤيد مذهبنا إليه . وبيت الأعشى لا يصلح حجة ، لفساد مصداقه . لأن سليمان لم تسخر الملائكة لتشيد له المباني . وليس ذلك من عملهم عليهم السلام . وقد مر الكلام على ذلك في تفسير سورة (سبا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ)

« سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ » أى من الولد والنسب . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

« إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ » استثناء من (المحضرين) الذين هم الجنة ، متصل على القول الأول ، أى المؤمنين منهم . ومنقطع على الثانى . أو استثناء منقطع من (واو) يصفون . هذا ، وبقي وجه في الآية لم يذكره . وهو أن يراد بالنسب المناسبة والمشاكلة في العبادة . ويراد بالجنة الملائكة . ويكون المراد من الآية الإخبار عن عبد الملائكة من العرب وجعلوهم ندّاً ومثلاً له تعالى ، وحكاية اضلال آخر لهم ، غير ضلال دعواهم ، أنهم بنات الله سبحانه ، من عبادتهم لهم . مع أنهم عليهم السلام يعلمون أن هؤلاء الضالين محضرون في العذاب . والآية في هذا كآية ^(٢) (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِبْنَاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) وكان السياق من هنا إلى آخر ، كالسياق في طليعة السورة . كله في تقرير عبودية الملائكة له تعالى ، وكونها من مخلوقاته الصافية لعبادته ، فأنتى تستحق الربوبية ؟ والله أعلم . وقوله :

(١) [٢ / البقرة / ٣٤] . (٢) [٣٤ / سبا / ٤١٤٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦١] (فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ)

« فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ » عود إلى خطابهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] (مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاعِلِينَ)

« مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاعِلِينَ » أى مفسدين أحداً بالإغواء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ)

« إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ » أى ضالّ مثلكم ، مستوجب للنار ، قال ابن جرير^(١) : يقول تعالى ذكره : فإنكم أيها المشركون بالله (وَمَا تَعْبُدُونَ) من الآلهة والأوثان (مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاعِلِينَ) أى ما أنتم على ما تعبدون من دون الله بمضايين أحداً ، (إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ) أى من سبق فى علمى أنه صال الجحيم . وقد قيل : إن معنى (عليه) به . انتهى . ثم بين تعالى اعتراف الملائكة بالعبودية ، للرد على عبدتهم ، بقوله حاكياً عنهم :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (وَمَا مِنْآ إِلَّا لَهُ وَمَقَامٌ مَّعْلُومٌ)

« وَمَا مِنْآ إِلَّا لَهُ وَمَقَامٌ مَّعْلُومٌ » أى فى العبودية وتسخيره فيما يريد تعالى منه . لا يتعدى فيه طوره ، ولا يجاوز منه قدره .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ)

« وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ » أى فى أداء الطاعة ومنازل الخدمة التى تؤمر بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ)

« وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ » أى المنزهون الله عما يصفه به الملحدون . أو المصلون له خشوعاً لعظمته ، وتواضعاً لجلاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ)

« وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ » أى مشركو قريش .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ)

« لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ » أى كتاباً من الكتب التى نزلت عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

« لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ » أى لأخاصنا العبادة له . فجاءهم الذكر الذى هو سيد

الأذكار ، والكتاب الذى هو أهدى الكتب والمعجز من بينها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (فَكْفَرُوا بِهِ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

« فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى عاقبة كفرهم . وهذا كقوله تعالى^(١)
(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ
فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا) الآية . وقوله تعالى^(٢) (أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ
الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَٰسِفِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا
أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧١] (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْأُمَرَّاسِلِينَ)

« وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْأُمَرَّاسِلِينَ » أى وعدنا لهم الأزل ، وهو :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٢] (إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ)

[١٧٣] (وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

« إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا » أى الرسل ومن آمن معهم « لَهُمُ
الْغَالِبُونَ » أى الظاهرون على أعدائهم ، والمالكون لنواصيهم كقوله تعالى^(٣) (كَتَبَ
اللَّهُ لِلْغَالِبِينَ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٤] (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ)

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى أعرض عنهم إعراض الصفوح الحليم عن ينال منه .

(١) [٣٥ / فاطر / ٤٢] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٥٦ و ١٥٧] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .

كقوله تعالى^(١) (وَدَعَّ أَذْلَهُمْ) وقوله^(٢) (فَأَصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) « حَتَّىٰ حِينَ »
أى إلى استقرار النصر لك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٥] (وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

« وَأَبْصِرْهُمْ » أى بصرهم وعرفهم عاقبة البغى والكفر ، وما نزل عن أنذر قبلهم ،
أو أوضح لهم الدلائل والحجج فى مجاهدتك إياهم بالقرآن والوحى . فإن لم يبصروا الآن ،
« فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ » أى ما قضينا لك من التأييد والنصرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٦] (أَفَبِعَدَابِنَا يُسْتَعْجِلُونَ)

« أَفَبِعَدَابِنَا يُسْتَعْجِلُونَ » أى قبل حلول أجله ، وإنه لآت ، لأنه يوم الفتح الموعود به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ)

« فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ » أى بقربهم وفنائهم « فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ » أى فبئس
الصباح صباح من أنذرتهم بالرسول فلم يؤمنوا . لأنه يوم هلاكهم ودمارهم . قال الزخشرى :
مثل العذاب النازل بهم ، بعد ما أنذروه فأنكروه ، بجيش أنذر بهجومه بعض نصّاحهم . فلم
يلتفتوا إلى إنذاره ، ولا أخذوا أهبتهم ، ولا دبروا أمرهم تدييراً ينجيهم ، حتى أناخ بفنائهم بفتنة
فشن عليهم الغارة ، وقطع دابرهم . وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحا . فسميت الغارة
(صباحا) وإن وقعت فى وقت آخر . وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التى تحس
بها ويروك موردها على نفسك وطبعك ، إلا لجميئها على طريقة التمثيل . انتهى . أى فهى استعارة
تمثيلية . أو فى الضمير استعارة مكنية ، والنزول تحييلية .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٨] . (٢) [١٥ / الحجر / ٨٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٨] (وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ)

[١٧٩] (وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

« وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ » قال الزمخشري : إنما نفي ذلك ليكون تسلية على تسلية ، وتأكيذاً لوقوع الميعاد إلى تأكيد . وفيه فائدة زائدة . وهى إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول . وإنه يبصر وهم يبصرون ما لا يحيط به من الذكر من صنوف المسرة وأنواع المساواة . وقيل : أريد بأحدها عذاب الدنيا ، وبالأخر عذاب الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٠] (سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ)

« سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ » أى المنعة والقدرة والغلبة « عَمَّا يَصِفُونَ » أى من الشريك والولد ونحوهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨١] (وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ)

« وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » أى سلام وأمان وتحيية على المرسلين المبلفين رسالات ربهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى على نعمه ، التى أجلها إرسال الرسل لإظهار أسمائه الحسنى وشرائعه العليا ، وإصلاح الأولى والأخرى .

فوائد في خواتم هذه السورة

الأولى - روى ابن جرير عن الوليد بن عبد الله قال : كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزلت (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ) فصفوا . وقال أبو نضرة : كان عمر رضى الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال : أقيموا صفوفكم ، استقيموا قياما ، يريد الله بكم هدى الملائكة . ثم يقول (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ) تأخر يافلان ، تقدم يافلان . ثم يتقدم فيكبر . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ^(١) .

وفي صحيح مسلم ^(٢) عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة . وجعلت لنا الأرض مسجداً . وتربها لنا طهوراً .

الثانية - روى الشيخان ^(٣) عن أنس رضى الله عنه قال : صبح رسول الله ﷺ خير . فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش ، رجعوا وهم يقولون : محمد والله ! محمد والخميس . فقال النبي ﷺ : الله أكبر خربت خير (إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين) . دلّ تمثله ﷺ بالآية على شمولها لعذاب الدنيا ، أولاً وبالذات .

الثالثة - قال ابن كثير : لما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص ، بدلالة المطابقة . ويستلزم إثبات السكال ، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات السكال المطلق مطابقة ، ويستلزم التنزيه من النقص - قرن بينهما في هذا الموضع ، وفي مواضع كثيرة من القرآن . ولهذا قال تبارك وتعالى «سُبْحَنَ رَبِّكَ» الآيات .

(١) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٤ (طبعنا)

(٣) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٦ - باب ما يحقن بالأذان من الدماء ،

حديث ٢٤٦

وأخرجه مسلم في : ١٦ - كتاب النكاح حديث رقم ٨٧ (طبعنا)

الرابعة - روى ابن أبي حاتم عن الشعبي مرسلاً : من سرّه أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليقل آخر مجلسه ، حين يريد أن يقوم : (سُبْحَنَ رَبِّكَ) الآيات . وروى أيضاً عن عليّ موقوفاً .
وأخرج الطبراني عن زيد بن أرقم مرفوعاً : من قال دبر كل صلاة (سُبْحَنَ رَبِّكَ) الآيات ، ثلاث مرات ، فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر .
وقد بين الرازي أن خاتمة هذه السورة الشريفة جامعة لكل الطالب العالية .
فارجع إليه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٨ - سُورَةُ ص

مكية . وقيل : مدنية وضُعِفَ آياتها ثمان وثمانون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (ص ، وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

« ص » بالسكون على الوقف . وقرأ بالكسر والفتح . اسم للسورة ، على القول المتجه عندنا فيه وفي نظائره . لما قدمنا غير ما مرة . وقيل : قَسَمَ رمزي ، وإليه نحا المهابي . قال : أقسم الله سبحانه وتعالى بصدق محمد ﷺ الذي اعترف به الكل في غير دعوى النبوة ، حتى صدقه أهل الكتابين في إخباره عن الغيوب ، الدال على الصدق في دعوى النبوة . أو بصفائه عن رذائل الأخلاق وقبائح الأفعال الدال على صفائه عن نقيصة الكذب . أو بصعوده في مدارج السمالات ، الدال على صعوده في مدارج القرب من الله - أو بصبره الكامل الذي هو لوازم الرسالة على أنه رسوله . انتهى .

« وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ » أي الشرف الدال على حقيقته وصدقه . أو التذكير ، كآية^(١) (لَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ) والجواب محذوف لدلالة السياق عليه . أي إنه لحق . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)

« بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ » أي كبر « وَشِقَاقٍ » أي عداوة للحق والإذعان له . إضراب عما قبله . كأنه قيل : لا ريب فيه قطعا . وليس عدم إيمان الكفرة به لشائبة ريب مافيه . بل هم في حمية جاهلية وشقاق بعيد لله ولرسوله . ولذلك لا يذعنون له . وقيل : الجواب مادل عليه الجلة الإضرابية . أي ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه . بل الذين كفروا في عزة وشقاق . ثم أوعدهم على شقاقهم بقوله تعالى :

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ)

« كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ » أى لكبرهم عن الحق، ومعاداتهم لأهله « فَنَادَوا » أى فدعوا واستغاثوا « وَلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ » أى وليس الحين حين فرار ومهرب ومنجاة . والكلام على (لات) وأصلها وعملها والوقف عليها، ووصل التاء بها أو فصلها عنها، مبسوط في مطولات العربية ، وفي معظم التفاسير هنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ، وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)

[٥] (أَجْعَلُ الْإِلَٰهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)

« وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ » أى رسول « مِنْهُمْ » أى من أنفسهم . يعنى النبى ﷺ « وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجْعَلُ الْإِلَٰهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ » أى بليغ فى العجب . وذلك لتمكن تقليد آبائهم فى نفوسهم ، ورسوخه فى أعماق قلوبهم . ومضى قرون عديدة عليه ، وإلفهم به وأنسهم له ، حتى ران على قلوبهم ، وغشى على أبصارهم ، ونسى باب النظر والاستدلال . بل غشى بالسكينة من بينهم . وصار عندهم من أبطل الباطل وأحل المحال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهِتِكُمْ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ)

« وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ » أى الأشراف من قریش يحضون بعضهم على التمسك بالوثنية،

ويتواصون بالصبر على طغيانهم قائلين « أَنْ أَمْشُوا » أى فى طريق آبائكم « وَأَصْبِرُوا عَلَى آءِ الْهَتِكُمْ » أى عبادتها مهما سمعتم من تسفيه أعلامنا وتفنيده مزاعمنا « إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ » لتعليل للأمر بالصبر . أى يراد منا إمضاءه وتفنيذه لاحالة . أى يريد محمد من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، لا قول يقال من طرف اللسان . أو المعنى : إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد منا . أى بنا . فلا انفكك لنا عنه . وما لنا إلا الاعتصام عليه بالصبر .

القول فى تأويل قوله تعالى .

[٧] (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْأَمَلَةِ الْأُخْرَىٰ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ)

« مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْأَمَلَةِ الْأُخْرَىٰ » أى ماسمعنا بهذا التوحيد الذى ندعى إليه فى ملة النصارى . لأنهم مثلثة غير موحدة . أو فى ملة قريش التى أدركنا عليها آباءنا « إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ » أى ما هذا التوحيد إلا فرية محضة ، لامستند له سوى هذا الذى ذكر بزعمهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الَّذِي كُرِّمَ مِنْ يَدِنَا ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي ، بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابَ)

« أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الَّذِي كُرِّمَ مِنْ يَدِنَا » أى مع أن فينا من هو أترى وأعلى رياسة . قال الزمخشري : أنسكروا أن يختص بالشرف من بين أشرفهم ورؤسائهم ، وينزل عليه الكتاب من بينهم كما قالوا^(١) (لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ) وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغل به صدورهم من الحسد ، على ما أوتى من شرف النبوة من بينهم « بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي » إضراب عن مقدر . أى : إنكارهم للذى ذكر ليس عن علم ،

(١) [٤٣ / الزخرف / ٣١] .

بل هم في شك منه . يقولون في أنفسهم : إِمَّا وَإِمَّا « بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابٍ » أى على الإنكار . فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد ، وصدقوا . وتصديقهم لا ينفعهم حينئذ لأنهم صدقوا مضطرين .

قال الناصر في (الانصاف) : ويؤخذ منه أن (لما) لا تئة بالجواب . وإنما ينفي بها فعل يتوقع وجوده . كما يقول سيبويه . وفرق بينها وبين (لم) بأن (لم) نفي لفعل يتوقع وجوده لم يقبل مثبتته (قد) . و (لما) نفي لما يتوقع وجوده أدخل على مثبتته (قد) .

وقال : وإنما ذكرت ذلك لأنى حديث عهد بالبحث فى قوله عليه الصلاة والسلام : الشفعة فيما لم يقسم . فإنى استدلت به على أن الشفعة خاصة بما يقبل القسمة . فقيـل لى : إن غايته أنه أثبت الشفعة فيما نفي عنه القسمة . فإما لأنها لا تقبل قسمة ، وإما أنها تقبل ولم تقع القسمة ، فأبطلت ذلك بأن آله النفي المذكورة (لم) ومقتضاها ، قبول المحل الفعل المنفى وتوقع وجوده . ألا تراك تقول : الحجر لا يتكلم . ولو قلت : الحجر لم يتكلم ، لكان ركيكاً من القول ، لإفهامه قبوله للكلام . انتهى . وهو لطيف جيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ)

« أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ » أى حتى يتخيروا للنسوة ما تهوى أنفسهم . كلا ^(١) (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) ^(٢) (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ)

« أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ » أى فليصعدوا

(١) [٢٨ / القصص / ٦٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٢٤] .

في المراق التي توصلهم إلى السماء ، وليتحكموا بما شاءوا في الأمور الربانية والتدابير الإلهية ، إن قدروا .

روى ابن جرير^(١) بسنده عن الربيع بن أنس قال : الأسباب أدق من الشعر وأشد من الحديد . وهو بكل مكان . غير أنه لا يرى . انتهى .

وهذا البيان ينطبق على ما يعرف به الأثير الموجود في أجزاء الخلاء المظنون أنها فارغة . فتأمل .

ثم قال ابن جرير^(٢) : وأصل السبب عند العرب ، كل مانسبب به إلى الوصول إلى المطلوب من حبل أو وسيلة ، أو رحم أو قرابة أو طريق أو حجة ، وغير ذلك . انتهى .

وقال المهايى : أى فليصعدوا في الأسباب التي هي معارج الوصول إلى العرش ، ليستقوا عليه ، فيدبروا العالم وينزلوا الوحي على من شاءوا . وأننى لهم ذلك ؟؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (جُنْدُ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ)

« جُنْدُ مَا » أى هم جند حقيق « هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ » أى الذين كانوا يتحزبون على الأنبياء قبلك . وأولئك قد قهروا وأهلكوا . وكذا هؤلاء . فلا تبال بما يقولون ولا تكثر لما به يهذنون . و (هُنَالِكَ) إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل هذا القول ، فهو مجاز . وجوز أن يكون حقيقة ، للإشارة إلى مكان قولهم وهو مكة . قال قتادة : وعده الله وهو بمكة يومئذ ، أنه سيهزم جندا من المشركين . فيجاء تأويلها يوم بدر . وقال ابن كثير : هذه الآية كقوله جلت عظمته^(٣) (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْقَصِرٌ * سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤْتُونَ الدُّبْرَ) وكان ذلك يوم بدر . وفي الآية أوجه من الإعراب أشار لها السمين

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٠ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٥٤ / القمر / ٤٥ و ٤٤] .

بقوله : (جُنْدٌ) يجوز فيه وجهان : أحدهما - وهو الظاهر - أنه خبر مبتدأ . أى هم جند . و (ما) فيها وجهان ، أحدهما - أنها مزيدة . والثانى أنها صفة لـ (جند) على سبيل التعميم ، للهزء بهم ، أو للتحقير . فإن (ما) إذا كانت صفة تستعمل لهذين المعنيين . و (هُنَالِكَ) يجوز فيه ثلاثة أوجه : أحدها - أن يكون خبراً لـ (جند) و (ما) مزيدة و (مَهْزُومٌ) نعت لـ (جند) . الثانى - أن يكون صفة لـ (جند) الثالث - أن يكون منصوباً بـ (مَهْزُوم) . و (مَهْزُومٌ) يجوز فيه أيضاً وجهان : أحدهما - أنه خبر ثانٍ لذلك المبتدأ المقدر ، والثانى أنه صفة لـ (جند) . و (هُنَالِكَ) مشارٌ به إلى موضع التقاول والمحاورة بالكلمات السابقة ، وهو مكة . أى سيهزمون بمكة . وهو إخبار بالغيب . وقيل : مشارٌ به إلى نصرة الإسلام . وقيل : إلى حفر الخندق ، يعنى إلى مكان ذلك . الثانى من الوجهين الأولين أن يكون (جند) مبتدأ و (ما) مزيدة و (هُنَالِكَ) نعت و (مَهْزُومٌ) خبره . وفيه بعد ، لتفصلته عن الكلام الذى قبله . انتهى .

فائدة :

روى ابن عباس فى هذه الآية أنه لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل . فقالوا إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ، ويقول ويقول . فلو بعثت إليه فنهيمته ! فبعث إليه . فجاء النبي ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل . قال نخشى أبو جهل لعنة الله ، إن جلس إلى جنب أبى طالب ، أن يكون أرق له عليه ، فوثب فجلس فى ذلك المجلس . ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه . فجلس عند الباب ، فقال له أبو طالب : أى ابن أخى ! ما بال قومك يشكونك ! يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول . قال ، وأكثروا عليه من القول . وتسكلم رسول الله ﷺ فقال : يا عم ! إنى أريد هم على كلمة واحدة يقولونها . تدين لهم بها العرب . وتؤدى إليهم بها العجم الجزية . ففزعوا لكلمته ولقوله . فقال القوم : كلمة واحدة ؟ نعم ، وأبيك عشرا . فقالوا : وما هى ؟ وقال أبو طالب : وأى كلمة هى يا ابن أخى ؟ قال ﷺ : لا إله إلا الله . فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون :

(أَجْعَلَ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) (و نزلت الآية . رواه ابن جرير ^(١) والإمام أحمد والنسائي ، والترمذي وحسنه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ)

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ » أى قبل قريش « قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ » وهم قوم هود « وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ » أى الملك الثابت . وأصله البيت المطّبق ، أى المربوطة أطرافه - أى جباله - بأوتاده . استعير للملك استعارة تصرّحية . وصف به فرعون مبالغة بجعله عين ملكه . أوشبه فرعون فى ثبات ملكه بذى بيت ثابت أقيم عموده وثبتت أوتاده . على طريق الاستعارة المكنية . وأثبت له ما هو من خواصه تخميلا ، وهو قوله (ذُو الْأَوْتَادِ) فإنه لازم له . أو هو كناية . حيث أطلق اللازم وأريد الملزوم وهو الملك الثابت . وقد جاء هذا فى قول الأسود ^(٢) من شعراء الجاهلية :

ولقد غنّوا فيها بأنعم عيشةٍ فى ظل مُلكٍ ثابتٍ الأوتادِ

أو المعنى : ذو الجموع الكثيرة . ستموا بذلك لأن بعضهم يشد بعضا ، كالوتد يشد البقاء . فالاستعارة تصرّحية فى الأوتاد . أو هو مجاز مرسل لازوم الأوتاد للجند . أو هو على حقيقته والمراد المباني العظيمة والهياكل الثابتة الفخيمة . واللفظ صادق فى الكل .

(١) انظر الصقحة رقم ١٢٥ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) البيت رقم ١٢ من الفضلية رقم ٤٤ لصاحبها الأسود بن يعفر النهشلى .

وأول القصيدة:

نام الخلى وما أحسن رقادى والهمم محتضِرٌ لدى وسادى

غنوا : أقاموا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ، أُولَئِكَ الْأَخْرَابُ)

«وَتَمُودُ» وهم قوم صالح «وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ» أى الفيضة ، وهم قوم شعيب «أُولَئِكَ الْأَخْرَابُ» أى الكفار المتحزون على رسلهم ، الذين جعل الجند المهزوم منهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ)

«إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ» أى فوجبت عليهم عقوبتى . قال الشهاب : (إِنْ) نافية و (كُلُّ) محذوف الخبر . والتفريع من أعم العام . أى ما كل أحد مخبر عنه بشىء ، إلا مخبر عنه بأنه كذب جميع الرسل . لأن الرسل يصدق كلٌّ منهم الكل . فتكذيب واحد منهم تكذيب للكل . أو على أنه من مقابلة الجمع بالجمع . فيكون كل كذب رسوله . أو الحصر بمبالغة . كأن سائر أوصافهم بالنظر إليه ، بمنزلة المدم . فهم غالون فيه . انتهى . وقال الزمخشري : وفى تكرير التكذيب وإيضاحه بمد إبهامه ، والتنويع فى تكريره بالجملة الخبرية أولاً ، وبالاستثنائية ثانياً ، وما فى الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص - أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه .

وزاد الناصر فائدة أخرى للتكرير . وهى أن الكلام لما طال بتعدد آحاد المكذبين ، ثم أريد ذكر ماحق بهم من العذاب جزاء لتكذيبهم ، كرر ذلك مصحوباً بالزيادة المذكورة ، ليلى قوله تعالى (فَحَقَّ عِقَابِ) على سبيل التطرية المعتادة عند طول الكلام . وهو كما قدمته فى قوله^(١) (وَكُذِّبَ مُوسَى) حيث كرر الفعل ليقترن بقوله^(١) (فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ) . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيَّحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)

«وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ» أى أهل مكة «إِلَّا صَيَّحَةً وَاحِدَةً» أى أخذة واحدة بعذاب

(١) [٢٢ / الحج / ٤٤] .

بئس . يقال : صاح الزمان بهم ، إذا هلكوا . كمال قال :

صاح الزمان بآل بركم صيحة خَرُّوا لشدِّها على الأذْقَابِ

وأصله من الغارة إذا عافست القوم فوقعت الصيحة فيهم « مآلها من فَوَاقٍ » أى من توقف مقدار فواق . وهو ما بين الحلبتين . أوردجوع وترداد . فإنه فيه يرجع اللبن إلى الضرع ف (فواق) إما بحذف مضافين أو مجاز مرسل بذكر الملزوم وإرادة لازمه . وقرئ بالضم . وهما لغتان . وقيل : المفتوح اسم مصدر من (أفاق المريض) إفاقة وفاقه ، إذا رجع إلى الصحة . والمضموم اسم ساعة رجوع اللبن للضرع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَآ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ)

« وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا » أى نصيبنا من العذاب الذى وعدته . كقوله^(١) (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) « قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ » أى الجزاء . وقولهم ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية . كما قص عنهم نظائره فى عدة آيات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ)

« أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » أى فقد وعدت بالنصر والظفر والملك والتأييد ، كما أوتى داود عليه السلام ، مما سارت به الأمثال^(٢) ولذا قال تعالى « وَادْخُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ »

(١) [٢٢ / الحج / ٤٧] و [٢٩ / العنكبوت / ٥٤ و ٥٣] .

(٢) ما ذكرناه هنا من وجه الارتباط بين نبأ داود وما قبله من الوعد بإيقائه ما أوتى ، هو ما يظهر من السياق ويشعر به نظائره فى قصص الأنبياء عليهم السلام .

وما ذكره الزخشرى وتابعه عليه البيضاوى وغيرها فى وجه الاتصال ، فما تقشعر من ذكره الأبدان . ولا علاقة له فى الوصلة ولا المناسبة أصلاً . نخذ ما أوتيت وكن من الشاكرين لله رب العالمين . انتهى مؤلفه .

أى : القوة . أى : الاجتهاد فى أداء الأمانة والتشدد فى القيام بالدعوة ومجانبة إظهار الضعف والوهن « إِنَّهُ وَ أَوَّابٌ » أى رجّاع إليه تعالى بالإلانة والخشية والعبادة والصيام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ)

[١٩] (وَالطَّيْرَ مُحْشُورَةً ، كُلُّ لَّهُ وَ أَوَّابٌ)

« إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ » أى تبعاً لتسبيحه « بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مُحْشُورَةً » أى مجموعة عنده يسبحن معه « كُلُّ لَّهُ وَ » أى لله تعالى « أَوَّابٌ » أى مطيع منقاد . يرجع بتسبيحه وتقديسه إليه .

قال ابن كثير : أى أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار . كما قال عز وجل ^(١) (بِجِبَالٍ أَوْ ي مَعَهُ وَالطَّيْرَ) وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجع بترجيئه ، إذا مرّ به الطير وهو سابح فى الهواء ، فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب . بل يقف فى الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشاخات ترجع معه ، وتسبح تبعاً له . انتهى . أى بأن خلق فيها حياةً ونطقاً . أو كان له عليه السلام من شدة صوته الحسن دوى فى الجبال ، وحنين من الطيور إليه ، وترجيع . وقد عهد من الطير القمرى أنه ينتظر سكتة المصوت والقارئ بصوت حسن أو المنشد ، فيجيبه ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا الْخَطَّابِ)

« وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ » أى قويناه بوفرة العدد والعدد ونفوذ السلطة وإمداده بالتأييد والنصر « وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ » أى النبوة أو الكلام المحكم المتضمن للعواظ والأمثال

(١) [٣٤ / سبأ / ١٠] .

والحِصَّ على الآداب ومكارم الأخلاق . وكان زبوره عليه السلام ، كله حكماً غرراً « وَفَصَّلَ الْخِطَابِ » أى فصل الخصام بتمييز الحق من الباطل ، ورفع الشبه ، وإقامة الدلائل . وكان يقيم بذلك العدل الجالب محبة الخلائق ، ولا يخالفه أحد من أقاربه ولا من الأجانب . ثم ذكر تعالى من حكمته عليه السلام وقضائه الفصل ، وشدة خوفه وخشيته مع ذلك ، ما قصه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَهَلْ أُنْتِكَ نَبِؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ)

« وَهَلْ أُنْتِكَ نَبِؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » أى ولجوه . و (المحراب) مقدم كل بيت وأشرفه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ ، خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ)

عَلَى بَعْضٍ ، فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ)
« إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ » أى منا . فلسنا فاتسين وإنما نحن « خَصْمَانِ » أى شخصان متخاصمان كما كنا إليك « بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ » أى تعدى « فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ » أى بما يطابق أمر الله « وَلَا تُشْطِطْ » أى ولا تبعد عن الحق أو تجاوزه « وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ » أى بحيث لا تميل عن الحق أصلاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ

أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ)

« إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً » أى أننى من الضأن « وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ »

أى فلم ينظر إلى غناه عنها ، ولا إلى افتقارى إليها ، بل أراد التغلب على « فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا »
أى : ملكنيها . بمعنى اجعلني كافلها كما كفل ما تحت يدي . أو بمعنى اجعلها كفى أى
نصيبى « وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ » أى غلبنى فى المسكالمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْمَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ
لَيَبْتَغِينَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ
وَوَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ)

[٢٥] (فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ، وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ)

« قَالَ » أى داود « لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْمَتِكَ » أى طلب نعمتك التى أنت أحوج
إليها ليضمها « إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ » أى مع استغفائه عن هذا الضم « وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ »
أى الإخوان الأصديقاء المتخاطبين فى شئونهم « لَيَبْتَغِينَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ » أى بغى الأعداء .
مع أن من واجب حقهم النصفة على الأقل ، إن لم يقوموا بفضيلة الإيثار « إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى فإنهم لا يبتغون « وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ » أى وهم قليل . و (ما) مزيدة
للإيهام والتعجيب من قلةهم .

قال الشهاب : فيه مبالغة من وجوه : وصفهم بالقله ، وتنكير (قليل) وزيادة (ما)
الإيهامية . والشئ إذا بولغ فيه كان مظنة للتعجب منه ، فكأنه قيل : ما أقلهم .

وفى قضائه عليه السلام هذا ، من الحكمة وفصل الخطاب ما يهيج الأفئدة ويقر عين
المغبون . ذلك أنه صدع بالحق أبلغ صدع . فظهر بظلم خصمه وبغيه جهراً لا محاباة فيه ولا مواربة
فأقر عين المظلوم . وعرف الباغي ظلمه وحيفه ، وأن سيف العدل والإنصاف فوقه . ثم نفس
عن قلب المظلوم البائس ، وروح عن صدره بذكر ما عليه الأكثر من هذه الخلعة - خلعة البغى

وعدم الإنصاف - مع الخلطة والخلعة ، ليتأسى ويتسلى كما قيل (إن التأسى روح كل حزين)
ثم أكد الأمر بقلّة القامئين بحقوق الأخوة ، ممن آمن وعمل صالحا ، فكيف بغيرهم؟ وكلها
حكم وغرر ودرر ، حقائق تنطبق على أكثر هذا السواد الأعظم من الناس ، الذين يدعون
الحبة ، والصدقة . ولعظم شأن حقوق الحبة أسهب في آدابها علماء الأخلاق ، إسهابا نوعوا فيه
الأبواب ، ولونوا فيه الفصول . ومع ذلك لاتزال الشكوى عامة . وقد امتلأت من منظومها
ومثورها كتب الأدب ، كما لا يخفى على من له إلمام به . وبالله التوفيق « وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا
فَتَنَّهُ » أى ابتليناه بتلك الحكومة « فَأَسْتَغْفِرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ
ذَلِكَ » أى ما استغفر منه « وَإِنَّ لَهُ وَعِنْدَنَا أَرْزُلًا » أى لقربا « وَحُسْنَ مَآبٍ » أى
مرجعاً حسناً وكرامة ، فى الآخرة .

تنبيهات :

الأول - للمفسرين فى هذا النبأ أقوال عديدة ووجوه متنوعة . مرجعها إلى مذهبين :
مذهب من يرى أنها تشير تعريضا إلى وزر ألم به داود عليه السلام ثم غفر له . ومذهب من
يرى أنها حكومة فى خصمين لا إشعار لها بذلك . فمن ذهب إلى الأول ابن جرير^(١) . فإنه
قال : هذا مثل ضربه الخصم التسوون على داود محرابه . وذلك أن داود كانت له ، فيما قيل ،
تسع وتسعون امرأة . وكانت للرجل الذى أغزاه حتى قتل امرأة واحدة . فلما قُتل نسكح ،
فيما ذكر ، داود امرأته . ثم لما قضى للخصمين بما قضى ، علم أنه ابتلى . فسأل غفران ذنبه
وخرّ ساجداً لله وأنانب إلى رضا ربه ، وتاب من خطيئته . هذا ما قاله ابن جرير^(١) . ثم أسند
قصته مطولة من روايات عن ابن عباس والسدي وعطاء والحسن وقتادة وهب ومجاهد . ومن
طريق عن أنس مرفوعا . ويشبه سياق بعضها ما ذكر فى التوراة المتداولة الآن .
قال السيوطى فى (الإكليل) : القصة التى يحكونها فى شأن المرأة ، وأنها أعجبت ، وأنه
أرسل زوجها مع البعث حتى قتل ، أخرجها ابن أبى حاتم من حديث أنس مرفوعا .
(١) انظر الصفحة ١٤٣ وما يتبعها من الجزء الثالث والعشرين .

وفي إسناد ابن لهيعة ، وحاله معروف ، عن ابن صخر عن يزيد الرقاشي وهو ضعيف . وأخرجها من حديث ابن عباس موقوفا . انتهى .

أقول : أما المرفوع إلى النبي ﷺ فيها ، فلم يأت من طريق صحيح . وأما الموقوف من ذلك على الصحب والأتباع رضي الله عنهم ، فمعتو لهم في ذلك ما ذكر في التوراة من هذا النبأ ، أو الثقة بمن حكى عنها . وينبئ على ذلك ذهابهم إلى تجويز مثل هذا على الأنبياء . وقد ذهب طائفة إلى تجويز ما عدا الكذب في التبليغ . كما فصل في مطولات الكلام .

قال ابن حزم رحمه الله : وهو قول الكرامية من المرجئة ، وابن الطيب الباقلائي من الأشعرية ، ومن اتبعه . وهو قول اليهود والنصارى . ثم رد هذا القول ، رحمه الله ، ردًا متينًا .

وأما المذهب الثاني ، فهو ما جزم به ابن حزم في (الفصل) وعبارته : ما حكاه تعالى عن داود عليه السلام قول صادق صحيح ، لا يدل على شيء مما قاله المستهزون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود . وإنما كان ذلك الخضم قومًا من بني آدم ، بلا شك ، مختصمين في نجاج من النعم على الحقيقة بينهم . بنى أحدهما على الآخر على نص الآية . ومن قال إنهم كانوا ملائكة معترضين بأمر النساء ، فقد كذب على الله عز وجل ، وقوله ما لم يقل ، وزاد في القرآن ما ليس فيه ، وكذب الله عز وجل وأقر على نفسه الخبيثة ، أنه كذب الملائكة . لأن الله تعالى يقول (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضْمِ) فقال هو : لم يكونوا قط خصمين ، ولا بنى بعضهم على بعض ، ولا كان قط لأحدهما تسع وتسعون نعمة ، ولا كان الآخر نعمة واحدة ، ولا قال له أ كلفنيها . فاعجبوا . لِمَ يمحمون فيه الباطل أنفسهم ؟ ونعوذ بالله من الخذلان . ثم كل ذلك بلا دليل ، بل الدعوى المجردة . وقال الله ! إن كل امرئ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشق امرأة جاره ، ثم يعرض زوجها للقتل عمدا ، ليتزوجها . وعن أن يترك صلاته لطائر يراه . هذه أفعال السفهاء المهوئين الفساق المتمردين . لأفعال

أهل البر والتقوى . فكيف برسول الله ﷺ الذي أوحى إليه كتابه وأجرى على لسانه كلامه ؟ لقد نزهه الله عز وجل عن أن يمر مثل هذا الفحش بباله . فكيف أن يستضيف إلى أفعاله ؟ وأما استغفاره وخروعه ساجداً ، ومغفرة الله له ، فالأنبياء عليهم السلام أولى الناس بهذه الأفعال السكرية . والاستغفار فعل خير لا يفكر من ملك ولا من نبي . ولا من مذهب ولا من غير مذهب . فالنبي يستغفر الله لذنبه أهل الأرض . والملائكة كما قال الله تعالى (١) (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) . وأما قوله تعالى عن داود عليه السلام (وَضَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ) وقوله تعالى (فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ) فقد ظن داود عليه السلام أن يكون ما آتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة . فقد كان رسول الله ﷺ يدعو في أن يثبت الله قلبه على دينه . فاستغفر الله تعالى من هذا الظن ، فغفر الله تعالى له هذا الظن . إذ لم يكن ما آتاه الله تعالى من ذلك فتنة . انتهى كلام ابن حزم ، وهو وقوف على ظاهر الآية ، مجرداً عن إشارة وإيماء .

وقال البرهان البقاعي في (تفسيره) : وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود . ثم قال : وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتمعدون ذلك في حق داود عليه السلام . لأن عيسى عليه السلام من ذريته ، ليجدوا سبيلاً إلى الطعن فيه . انتهى . ثم قال : وقوله تعالى (فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ) أى الوقوع في الحديث عن إسناد الظلم إلى أحد بدون سماع لكلامه . وهذه الدعوى تدريب لداود عليه السلام في الأحكام . وذكرها للنبي ﷺ تدريب له في الأناة في جميع أموره على الدوام . ولما ذكر هذا ، ربما أوهم شيئاً في مقامه ﷺ ، فدفعه بقوله (٢) (وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ) فالقصة لم يجر ذكرها (١) [٤٠ / غافر / ٧] .

(٢) أخرجه الترمذى في : ٣٠ - كتاب القدر ، ٧ - باب ماجاء أن القلوب بين أصبعين الرحمن . (٣) [٣٨ / ص / ٤٠] .

إلا للترقية في رتب السكّال . وأول دليل على ما ذكرته ، أن هذه الفتنة إنما هي بالتدريب في الحكم ، لا بامرأة ولا غيرها . وأن ما ذكروه من قصة المرأة باطل وإن اشتهر . فسكم من باطل مشهور ، ومذكور ، هو عين الزور . انتهى .

وقال ابن كثير : قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات . ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه . ولكن روى ابن أبي حاتم ههنا حديثاً لا يصح سنده ، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه . ويزيد ، وإن كان من الصالحين ، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة . فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة ، وأن يردّ علمها إلى الله عز وجل . فإن القرآن حق ، وما تضمن فهو حق أيضاً . انتهى .

وقال القاضي عياض في (الشفا) : وأما قصة داود عليه السلام ، فلا يجب أن يلتفت إلى ماسطره فيها الإخباريون على أهل السكتاب الذين بدلوا وغيروا ، ونقله بعض المفسرين . ولم ينص الله على شيء من ذلك ، ولا ورد في حديث صحيح . والذي نص الله عليه قوله (وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ) وقوله فيه (وَأَوَّابٌ) فعني (فَتَنَّاهُ) أى اختبرناه . و (وَأَوَّابٌ) قال قتادة : مطيع . وهذا التفسير أولى . قال ابن عباس وابن مسعود : ما زاد داود على أن قال للرجل : انزل عن امرأتك وأكفليها . فعاتبه الله على ذلك ونبهه عليه . وأنكر عليه شغله بالدنيا . وهذا هو الذي ينبغى أن يعول عليه من أمره . وقد قيل خطبها على خطبته ، وقيل بل أحب بقلبه أن يستشهد . وحكى السمرقندي أن ذنبه الذي استغفر منه قوله (لَقَدْ ظَلَمَكَ) فظلمه بقول خصمه . وقيل : بل لما خشيته على نفسه ، وظن من الفتنة بما بسط له من الملك والدنيا . وإلى نفي ما أضيف في الأخبار إلى داود من ذلك - ذهب أحمد بن نصر وأبو تمام ، وغيرهما من المحققين . قال الداودي : ليس في قصة داود وأوريا خبر يثبت . ولا يظن بنبي محبة قتل مسلم . وقيل : إن الخصمين اللذين اختصما إليه ، رجلان في نتاج غنم على ظاهر الآية . وقيل : بل لما خشى على نفسه وظن من الفتنة لما بسط له من الملك والدنيا . انتهى .

وقال ابن القيم في أواخر كتابه (الجواب السكافي) في مباحث العشق: وقد أرشد ﷺ المتحابين إلى الفكاك. كما في سنن ابن ماجه ^(١) مرفوعاً: لم يُرَ للمتحابين مثل الفكاك. ونكاحه لمعشوقه هو دواء العشق الذي جعله الله دواءً شرعاً وقدرأً. وبه تداوى نبي الله داود ﷺ ولم يرتكب نبي الله محرمًا. وإنما تزوج المرأة وضمها إلى نسائه لمحبتته لها. وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته . ولا يليق بنا المزيد على هذا . انتهى .

وهذا منه تسليم ببعض القصة لاتبامها . وهو من الأقوال فيها .

وأما دعوى بعضهم أن التوراة تعدّ داود ملكاً حكيماً، لانبيا، بدليل ذكره في أسفار الملوك منها ، وما فيها من أنه بعث إليه نبيّ يقال له قاشان ، ضرب له المثل المذكور - فدعوى مردودة من وجوه: منها أن الاستدلال بالتوراة التي بين أيديهم في إثبات أوفى لا يعول عليه. كيف لا ؟ وقد أوتينا بيمضاء نقية محفوظة من التغير والتبديل بحمده تعالى ، ومنها أن نبوة داود عليه السلام لا خلاف فيها عند المسلمين ، فلا عبرة بخلاف غيرهم . ومنها أنه لا مانع أن تجتمع النبوة والملك لمن أَرَادَهُ اللهُ واصطفاه . وقد فعل ذلك بداود وسليمان عليهما السلام . ومنها أنه لا حاجة في كتابنا الكريم أن يتم بما جاء في غيره ، أو يحاول رده إلى سواء من الكتب ، أو هي إليه ، لاستغنائه بنفسه . بل وكونه مهيمناً على سائر الكتب ، كما أخبر الله تعالى عنه . فليتأمل ذلك . والله أعلم .

وقد روى أن عمر بن عبد العزيز حَدَّثَ بنبأ داود على ما يرويه القصاص ، وعنده رجل من أهل الحق . فكذَّبَ المحدث به، وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب الله، فما ينبغي أن يلتمس خلافها . وأُعْظِمُ بأن يقال غير ذلك . وإن كانت على ما ذكرت وكفَّ الله عنها سترًا على نبيه، فما ينبغي إظهارها عليه . فقال عمر: لَسَمَاعِي هذا الكلام، أحبَّ إلى مما طامت عليه الشمس . نقله الزمخشري .

(١) أخرجه ابن ماجه في : ٩ - كتاب الفكاك ، ١ - باب ما جاء في فضل الفكاك ،

حديث ١٨٤٧ (طبعتنا) .

قال الناصر في (الانتصاف) : وقد التزم المحققون من أئمتنا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، داود وغيره ، منزهون من الوقوع في صغائر الذنوب ، مبرءون من ذلك ، والنسوا المحامل الصحيحة لأمثال هذه القصة . وهذا هو الحق الأبلج ، والسبيل الأبهج ، إن شاء الله تعالى . انتهى .

التنبيه الثاني - قال ابن الفرّس : في هذه القصة دليل على جواز القضاء في المسجد (أى إظهار المحراب . إلا أنه ليس نصّاً في محراب المسجد) والتلطف في ردّ الإنسان عن المكروه صنفه . وأنه لا يؤخذ بمنفٍ ما أمكن . وجواز المعارض من القول . قال الزمخشري : وإنما جاءت على طريقة التمثيل والتمريض ، دون التصريح ، لكونها أبلغ في التوبيخ . من قبل أن المتأمل إذا أداه إلى الشهور بالمرّض به ، كان أوقع في نفسه ، وأشدّ تمكناً من قلبه ، وأعظم أثراً فيه ، وأجلب لاحتشامه وحيائه ، وأدعى إلى التنبيه على الخطأ فيه ، من أن يبادّه به صريحاً ، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة . ألا ترى إلى الحكماء ؟ كيف أوصوا في سياسة الولد ، إذا وجدت منه هنة منكّرة ، بأن يمرض له بإنكارها عليه ، ولا يصرح . وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله ، إذا تأملها استسمح حال صاحب الحكاية ، فاستسمح حال نفسه . وذلك أزجر له . لأنه ينصب ذلك مثلاً لحاله ، ومقياساً لشأنه . فتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة . مع أنه أصون لما بين الولد والولد من حجاب الحشمة .

الثالث - قال ابن مسمود في قوله تعالى (إِنَّ هَذَا أَخِي) : أى على ديني . أخرجه ابن أبي حاتم . ففيه جواز إطلاق (الأخ) على غير المناسب . واستدل بقوله تعالى (وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ) على جواز الشركة . أفاده في (الإكليل) .

الرابع - قال السيوطي في (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (وَخَرَّ رَاكِعًا) مَنْ أَجَاز التعويض عن سجود التلاوة بركوع . والأكثر على أن الركوع هنا مجاز مرسل ، عن

السجود . لأنه ، لإفضائه إليه ، جعل كالسبب ، ثم تجوز به عنه . أو هو استعارة له ، لمشابهته له في الانحناء والخضوع .

الخامس - قال ابن كثير : اختلف الأئمة في سجدة (ص) هل هي من عزائم السجود ؟ على قولين : أحدها أنها ليست من العزائم ، بل هي سجدة شكر . لما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إنها ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها ، رواه أحمد والبخاري^(١) وأصحاب السنن . وعنه أنه قال : إن النبي ﷺ سجد في (ص) وقال : سجدتها داود عليه الصلاة والسلام توبة ، ونسجدها شكراً ، تفرد به النسائي^(٢) . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر (ص) فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه . فلما كان يوم آخر قرأها . فلما بلغ السجدة تشزن الناس للسجود . فقال ﷺ : إنما هي توبة نبي . ولكن رأيكم تشزنهم ، فنزل وسجد . تفرد به أبو داود^(٣) . وإسناده على شرط الصحيح ، وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)

« يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ » أي استخلفناك على الملك في الأرض

(١) أخرجه البخاري في : ١٧ - كتاب سجود القرآن ، ٣ - باب سجدة ص ،

حديث ٥٨٩ .

(٢) أخرجه في : ١١ - كتاب الافتتاح ، ٤٨ - باب سجود القرآن ، السجود في ص .

(٣) أخرجه في : ٧ - كتاب السجود ، ٥ - باب السجود في ص ، حديث رقم ١٤١٠ .

كُنْ يَسْتَخْلِفُهُ بَعْضُ السَّلَاطِينِ عَلَى بَعْضِ الْبِلَادِ وَيَمْلِكُهُ عَلَيْهَا ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : خَلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ « فَأَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ » أَيْ هَوَى النَّفْسِ ، مِنَ الْمِيلِ إِلَى مَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ قَرِيبٍ أَوْ صَاحِبٍ « فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أَيْ صِرَاطِهِ الْمَوْصِلِ إِلَى الْكَمَالَاتِ ، كَحِفْظِ الْمَمْلَكَةِ وَالنَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَالنَّجَاةِ فِي الْآخِرَةِ وَرَفْعِ الدَّرَجَاتِ فِيهَا « إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ عِمَّا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ » أَيْ بِسَبَبِ نَسْيَانِهِمْ ، وَهُوَ ضَلَالُهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ، فَإِنْ تَذَكَّرَهُ يَقْتَضِي مِلَازِمَةَ الْحَقِّ وَمُخَالَفَةَ الْهَوَى .

تنبيه :

فِي الْآيَةِ بَيَانٌ وَجُوبُ الْحُكْمِ بِالْحَقِّ ، وَأَنْ لَا يَمِيلَ إِلَى أَحَدٍ الْخَصْمِينَ لِقَرَابَةٍ أَوْ رَجَاءٍ أَوْ سَبَبٍ يَقْتَضِي الْمِيلَ . وَاسْتَدِلَّ بِهَا بِعَظْمِهِمْ عَلَى احْتِيَاجِ الْأَرْضِ إِلَى خَلِيفَةٍ مِنَ اللَّهِ . كَذَا فِي (الْإِكْلِيلِ) .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : هَذِهِ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَوْلَاةِ الْأُمُورِ أَنْ يَحْكُمُوا بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ الْمَنْزِلَ مِنْ عِنْدِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى . وَلَا يَمْدُلُوا عَنْهُ فَيَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . وَقَدْ تَوَعَّدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَتَغَامَى يَوْمَ الْحِسَابِ ، بِالْوَعِيدِ الْأَكِيدِ وَالْعَذَابِ الشَّدِيدِ . رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ ؛ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ قَالَ لَهُ : أَيُّ حَاسِبِ الْخَلِيفَةِ ، فَإِنَّكَ قَدْ قَرَأْتَ الْكِتَابَ الْأَوَّلَ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ وَفَقَهْتَ ؟ فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! أَقُولُ ؟ قَالَ : قُلْ فِي أَمَانٍ . قُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! أَنْتَ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ أَوْ دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؟ إِنْ اللَّهُ تَعَالَى جَمَعَ لَهُ النَّبُوَّةَ وَالْخِلَافَةَ . ثُمَّ تَوَعَّدَهُ فِي كِتَابِهِ قَالَ تَعَالَى (يَلْدَاوُدُ إِنََّّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ) الْآيَةَ .

وَقَالَ الرَّازِيُّ : اعْلَمْ أَنَّ الْإِنْسَانَ خَلَقَ مَدِينِيًّا بِالطَّبْعِ . لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الْوَاحِدَ لَا تَنْتَظِمُ مَصَالِحُهُ إِلَّا عِنْدَ وَجُودِ مَدِينَةٍ تَامَةٍ . حَتَّى هَذَا يَجْرُثُ وَذَاكَ يَطْحَنُ وَذَاكَ يَخْزُ وَذَاكَ يَنْسَجُ وَالْآخِرُ يَخِيطُ . وَبِالْجُمْلَةِ ، فَيَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَشْغُولًا بِمَهْمَةٍ . وَيَنْتَظِمُ مِنْ أَعْمَالِ الْجَمِيعِ

مصالح الجميع . فثبت أن الإنسان مدني بالطبع . وعند اجتماعهم في الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات . ولا بد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات ويفصل تلك الحكومات . وذلك هو السلطان الذي ينفذ حكمه على الكل . فثبت أنه لا تنتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس . ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس ، إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه ، عظم ضرره على الخلق . فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه ، ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه . وذلك يفضي إلى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج في الخلق . وذلك يفضي بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك . أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقة الإلهية ، انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه : فهذا هو المراد من قوله (فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِأَلْحَقٍّ) بمعنى لابد من حاكم بين الناس بالحق . فكن أنت ذلك . ثم قال (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) الآية ، وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله . والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب . فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا » أى خلقا باطلا ، لا حكمة فيه . أو مبطلين عابثين ، كقوله تعالى ^(١) (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ) وهو أن تقوم الناس بالقسط في المعتقدات والعبادات والمعاملات « ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى ، ولذا أنكروا البعث والجزاء على الأعمال . وأخذوا يصدّون عن سبيل الله ويغفون في الأرض الفساد .

(١) [٤٤ / الدخان / ٣٨ و ٣٩] .

قال الزمخشري : ومن جحد الخالق فقد جحد الحكمة من أصلها . ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق ، وظهر بذلك أنه لا يرفه ولا يقدره حق قدره . فكان إقراره بكونه خالقاً ، كلاً إقرار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)

« أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ » قال المهايي : أى : أتترك البعث بالكلية ، أم نبعث ونجعل الذين آمنوا فشكروا نعمة العقل والكتاب . وعملوا الصالحات فشكروا نعمة الأعضاء ، كالمفسدين ، بصرف العقل والأعضاء إلى غير ما خلقت له ؟ « أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ » أى مخالفة أمر الله رعايةً لحبته « كَالْفُجَّارِ » أى الذين يخالفون أوامر الله ، ولا يبالون بمداوته . أى لا تفعل ذلك ولا يستقون عند الله .

قال ابن كثير : وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ، ويعاقب فيها هذا الفاجر . وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة ، على أنه لا بد من معاد وجزاء . فإننا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ، ويموت كذلك . ونرى المطيع المظلوم يموت بكده . فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل ، الذى لا يظلم مثقال ذرة ، من إنصاف هذا من هذا . وإذا لم يقع هذا في هذه الدار ، فتمعن أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة . ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة ، قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُكًا لِّيدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أَلَّا يُغْلَبُوا)

« كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُكًا » أى كثير الخير « لِّيدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ » قال المهايي : أى لينظروا في ألفاظه وترتيبها ولوازمها . فيستخرجوا منها علوماً بطريق الاستدلال .

وقال الزمخشري : تدبر الآيات : التفكر فيها والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة . لأن من اقتنع بظاهر المتلو لم يحل منه بكثير طائل ، وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها ، ومهرة نثور لا يستولدها . وعن الحسن : قد قرأ هذا القرآن عبید وصبيان لا علم لهم بتأويله . حفظوا حروفه وضيعوا حدوده . حتى إن أحدهم ليقول : والله ! لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا ، وقد ، والله ! أسقطه كله . ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل ، والله ! ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده . والله ! ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة . لاكثر الله في الناس مثل هؤلاء . اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين ، وأعدنا من القراء المتكبرين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ، نِعَمَ الْعَبْدِ ، إِنَّهُ وَءَاوَابٌ)

« وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ، نِعَمَ الْعَبْدِ ، إِنَّهُ وَءَاوَابٌ » أى كثير الرجوع إلى الله تعالى ، بالتوبة والإنابة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ)

« إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ » أى من الخيل ، جمع (صافن) وهو الذى يقوم على طرف سنبك يد أو رجل ، « الْجِيَادُ » جمع (جواد) وهو الذى يسرع في جريه أو بمعنى الحسان جمع (جيد) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ، حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)

« فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي » أى آثرته عليه . عدل عنه للمناسبة

اللفظية وقصد التجنيس . وقائدة التضمن إشارة إلى عروضه ، و (ذِكْرِ رَبِّي) إما مضاف لفاعله أو لمفعوله . .

قال الزمخشري : و (الخير) المال كقوله ^(١) (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا) وقوله ^(٢) (وَإِنَّهُوَ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) والمال : الخيل التي شغلته ، أو سمى الخيل خيراً كأنها نفس الخير ، لتعلق الخير بها ، قال رسول الله ﷺ ^(٣) : الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة . وقال في زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم : ما وصف لي رجل فرأيت ، إلا كان دون ما بلغني ، إلا زيد الخيل ، وسماه زيد الخير . وسأل رجل بلالاً رضي الله عنه عن قوم يستبقون ، من السابق ؟ فقال : رسول الله ﷺ . فقال له الرجل : أردت الخيل . فقال : وأنا أردت الخير . « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » أي غربت الشمس . متعلق بقوله (أُحْبِبْتُ) وفيه استعارة تصريحية أو مكنية لتشبيه الشمس بامرأة حسناء ، أو ملك . وباء (بِالْحِجَابِ) للظرفية ، أو الاستعانة أو الملابس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (رُدُّوْهَا عَلَيَّ ، فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ)

« رُدُّوْهَا عَلَيَّ » يعني الصافنات . وهذا من مقول القول ، فلا حاجة إلى تقدير قول آخر « فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ » أي فجعل يمسح مسحاً ، أي يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها ، يعني يقطعها .

تنبيه :

قال ابن كثير : ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أن سليمان عليه السلام اشتغل

(١) [٢ / البقرة / ١٨٠] . (٢) [١٠٠ / العاديات / ٨] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦١ - كتاب المناقب ، ٢٨ - باب حدثني محمد بن الثني ،

حديث رقم ١٣٦٨ ، عن أنس .

بعرض الخليل حتى فات وقت صلاة العصر ، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً ، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر ، حتى صلاحها بعد الغروب . وذلك ثابت في الصحيحين^(١) من غير وجه . ويحتمل أنه كان سائفاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو ، والقتال . والخليلُ تراد للقتال ، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعاً ففسخ ذلك بصلاة الخوف ، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسابقة والمضايقة حتى لا يتمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود . كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في فتح (تستر) وهو منقول عن مكحول والأوزاعي وغيرهما ، والأول أقرب . لأنه قال بعد (رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِأَلْسُوْقٍ وَالْأَعْنَاقِ) قال الحسن البصري : قال : لا ، والله ! لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك . ثم أمر بها فعمرت . وكذلك فال قتادة .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : جعل يمسح أعراف الخليل وعراقيبها حباً لها . وهذا القول اختاره ابن جرير^(٢) . قال : لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة ، ويهلك ما لا من ماله بلا سبب ، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها . وهذا الذي رجح ابن جرير ، فيه نظر . لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا . ولا سيما إذا كان غضباً لله تعالى ، بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة . ولهذا لما خرج عنها لله تعالى ، عوضه الله عز وجل ما هو خير منها . وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوها شهر ورواحها شهر . فهذا أسرع وخير من الخليل . روى الإمام أحمد^(٣) عن ابن قتادة وأبي الدهماء ،

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٢٩ - باب غزوة الخندق ، حديث رقم ١٤٠٠ ، عن علي .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٢٠٢ (طبعنا) (٢) انظر الصفحة رقم ١٥٦ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) . (٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٧٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

وكانا يكثران السفر نحو البيت ، قالا : أتينا على رجل من أهل البادية . فقال لنا البدوي ، أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله عز وجل . وقال : إنك لاتدع شيئاً اتقاء الله تعالى ، إلا أعطاك الله عز وجل خيراً منه . انتهى ما ذكره ابن كثير .

وقال القاشاني : أى طفق يمسح السيف بسوقها ، يعرّقب بعضها وينحر بعضها ، كسراً لأصنام النفس التي تعبدها بهواها ، وقعا لسورتها وقواها ، ورفعاً للحجاب الحائل بينه وبين الحق ، واستغفاراً وإبانة إليه بالتجريد والترك .

وقد ذهب الرازي إلى تأويل آخر استصوبه ، قال : إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم . كما أنه كذلك في دين الإسلام . ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو . فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها . وذكر أنى لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه . وهو المراد من قوله (عَنْ ذِكْرِ رَبِّي) ثم إنه عليه السلام أمر بإعدادها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أى غابت عن بصره . ثم أمر الراضين بأن يردوا تلك الخيل إليه . فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها ، والغرض من ذلك المسح أمور : الأول - تشريفها وإبانة لعزتها ، لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو . والثاني - أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتصنع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه . الثالث - أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها . فكان يتمتعها ويمسح سوقها وأعناقها ، حتى يعلم هل فيها مايدل على المرض .

وقال : فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقاً مطابقاً موافقاً . ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المفكرات والمخدورات .

قال : وأنا شديد التمتع من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة . مع أن العقل والنقل يردّها . وليس لهم في إثباتها شبهة فضلاً عن حجة فإن قيل : إن الجمهور فسّروا الآية بذلك الوجه ، فما قولك فيه ؟ فنقول : لناهنا مقامان : المقام الأول - أن ندعى أن لفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي يذكرونها . وقد ظهر ، والحمد لله ، أن الأمر كما

ذكرناه ، وظهوره لا يرتاب العاقل فيه . المقام الثاني - أن يقال : هب أن لفظ الآية لا يدل عليه ، إلا أنه كلام ذكره الناس . فما قولك فيه ؟ وجوابنا أن الأدلة الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام . ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات . ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية ، فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالي بهم ولا يلتفت إلى أقوالهم ؟ والله أعلم . انتهى كلام الرازي .

وسبقه ابن حزم حيث قال : تأويل الآية على أنه قتل الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة ، خرافة موضوعة مكذوبة سخيفة باردة . قد جمعت أفانين من القول ، لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها ، والتمثيل بها . وإتلاف مال منتفع به بلا معنى . ونسبة تضييع الصلاة إلى نبي مرسل ، ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها . وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب حب الخير . من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس أو تلك الصافنات بحجابها . ثم أمر بردها . فطفق مسحاً بسوقها وأعناقها بيده ، برأبها وإكراماً لها ، هذا هو ظاهر الآية الذي لا يحتمل غيره . وليس فيها إشارة أصلاً إلى ما ذكروه من قتل الخيل وتمطيل الصلاة . وكل هذا قد قاله ثقات المسلمين . فكيف ولا حجة في قول أحد دون رسول الله ﷺ ؟ انتهى كلام ابن حزم .

وأقول : الذي يتجه أن هذه القصة أشير بها إلى نبأ لديهم . لأن التنزيل الكريم مصدق الذي بين يديه . إلا أن له الهيمنة عليه . فما وقف فيه على حد من أنباء ما بين يديه ، يوقف عنده ولا يتجاوز . وحينئذ ، فالقصة المعروفة عندهم هي التي أشير إليها . لكن مع الهيمنة عليها ، إذ لا تقبل على علاتها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ)

« وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ » أي ابتليناه « وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً » أي جسماً مجسداً

كناية عن صنم - على ماروو - وإنما أوتر الجسد عليه - إجلالاً لسليمان عليه السلام ، وإشارة

إلى أن قصته - إن صحت - كانت أمراً عرض وزال ، بدليل قوله تعالى « ثُمَّ أَنَابَ » أى إلى ربه بالتوبة والاستغفار ، كما بينه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

« قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي » أى غفرى ، لفخامته وعظمته ، هبة فضل وإيثار امتنان « إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُجَاءَ حَيْثُ أَصَابَ)

« فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ » أى فذلناها لطاعته إجابة لدعوته « تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُجَاءَ » أى لينه سهلة ، معشدة وقوة ، ولذا وصفت فى الآية الأخرى بـ (عَاصِفَةً) « حَيْثُ أَصَابَ » أى أراد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ)

« وَالشَّيَاطِينَ » عطف على الريح « كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ » أى فى قعر البحر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَءَاخِرِينَ مَّقَرَّرِينَ فِي الْأَصْفَادِ)

« وَءَاخِرِينَ مَّقَرَّرِينَ فِي الْأَصْفَادِ » أى مسلسلين فى الأغلال لا يبعثهم إلى عمل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ » أى على من شئت من القرنين وغيرهم « أَوْ أَمْسِكْ » أى امنع « بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى غير محاسب على المن والإمساك ، فيكون حالاً من المستكن . أو هو حال من العطاء ، أو صلة له ، وما بينهما اعتراض . والمعنى : إنه عطاء جم لا يكاد يمكن حصره . فقد يعبر عن الكثير بـ (لا يعدّ) و (لا يحسب) ونحوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَإِنَّ لَهُ وَعِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ)

« وَإِنَّ لَهُ وَعِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ » أى لقربى في الدرجات ، « وَحُسْنَ مَّآبٍ » أى مرجع في الآخرة .

تنبيه :

روى الأثرين ههنا قصصاً مطولة ومختصرة ، مؤلفة ومختلفة . قال ابن كثير : وكلها متلقاة من أهل الكتاب ، وفيهم طائفة لا يمتدّون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام . فالظاهر أنهم يكذبون عليه . ولهذا كان في سياقها منكرات . وتقوية ابن حجر لبعض منها بأنه خرجه النسائي بإسناد قوى - لا عبرة له . فليس المقام قاصراً على صحة السند فحسب ، لو كان ذلك في الصحيحين ، فأنى يروى غيرها ؟؟

وذكر الرازي أن القصص المروية هنا هي لأهل الحشو من تأويلهم . وأما أهل التحقيق فلهم تأويلات ، وقد ساقها فانظرها .

وقال الإمام ابن حزم : معنى قوله تعالى (فَتَنَّا سُلَيْمَانَ) أى آتيناه من الملك ما اختبرنا به طاعته ، كما قال تعالى مصداقاً لموسى عليه السلام في قوله ^(١) (إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٥] .

تَشَاءَ وَهَدَىٰ مَنْ تَشَاءَ) إذ من الفتنة ما يهدي الله بها من يشاء وقال تعالى ^(١) (أَلَمْ * أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُبْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) فهذه الفتنة هي الاختبار حتى يظهر المهتدى من الضال ، فهذه فتنة الله تعالى لسليمان إنما هي اختباره حتى ظهر فضله فقط . وما عدا هذا خرافات ولدها زنادقة اليهود وأشباههم . وأما الجسد الملقى على كرسيه فقد أصاب الله تعالى به ما أراد . نؤمن بهذا كما هو ، ونقول (صدق الله عز وجل ، كل من عند الله ربنا) ولو جاء نص صحيح في القرآن أو عن رسول الله ﷺ بتفسير هذا الجسد ماهو ، لقننا به ، فإذا لم يأت بتفسيره ماهو نص ولا خبر صحيح ، فلا يحل لأحد القول بالظن الذي هو كذب الحديث في ذلك ، فيكون كاذبا على الله عز وجل ، إلا أننا لانشك البتة في بطلان قول من قال إنه كان جنيا تصور بصورته ، بل نقطع على أنه كذب . والله تعالى لا يهتك ستر رسوله ﷺ هذا الهتك ، وكذلك نبعد في قول من قال إنه كان ولدآله ، أرسله إلى السحاب ليريه . فسليمان عليه السلام كان أعلم من أن يربى ابنه بغير ما طبع الله عز وجل بنية البشر عليه من اللبن والطعام . وهذه كلها خرافات موضوعة مكذوبة ، لم يصح إسنادها قط . انتهى .

وزعم القاشاني أن حكاية الجنى والخاتم مع سليمان ، هي من موضوعات حكماء اليهود ، كسائر ما وضعت الحكماء في تمثيلاتهم من حكايات أيسال وسلامان ^(٢) .

ثم أخذ القاشاني في تأويلها ، إلا أنه حل الإشكال بإشكال أعظم منه ، عفا الله عنه ، وقال قبل : إن صحت الحكاية في مطابقتها للواقع ، كان قد ابتلى بمثل ما ابتلى به ذوالنون وآدم عليهما السلام ، انتهى والله أعلم .

(١) [٢٩ / المنكبوت / ١-٣] .

(٢) انظر المراد منها في شرح (الإشارات) لابن سينا في أول النمط التاسع من مقامات

العارفين وأمثالها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) « وَأَذْكُرْ » أى فى باب الابتلاء وحسن عاقبة الصبر عليه « عَبْدَنَا » أى الكامل فى التحقق بالعبودية « أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ » أى دعاه وابتهل إليه قائلا « أَنِّي مَسَّنِيَ » أى أصابني « الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ » أى مشقة (بضم النون وفتحها مع سكون الصاد، وبفتحهما وضمهما) « وَعَذَابٍ » أى ألم شديد. وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ ، هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)

« أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ » حكاية لما أحيب به دعاؤه عليه السلام. أى : فاستجبنا له وقلنا : اركض برجلك . أى اعد بها وامش ، فقد برأت وشفيت من مرضك . وقوى جسمك وصح بدنك « هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » أى ماء تغتسل به وتشرب منه. والإشارة إلى عين أو نهر أو نحوها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَوَهَبْنَا لَهُ ۖ أَهْلَهُ ۖ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) « وَوَهَبْنَا لَهُ ۖ أَهْلَهُ ۖ » بأن جمعناهم عليه بعد تفرقهم « وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا » أى ترحمنا عليه بهذا الإضعاف والمباركة « وَذِكْرَىٰ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ » أى وتذكيرا لهم لينتظروا الفرج بالصبر والنوال بصدق الانكال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَخُذْ يَدِيكَ ضَعْفًا فَأُضْرِبَ بِهِ ۖ وَلَا تَحْنُتْ ، إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ، نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ ۖ أَوَّابٌ)

« وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا » أى حزمة صغيرة « فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا » أى فى كل ما ابتليناه به « تَعْمَ الْعِبْدُ إِنَّهُ وَأَوَّابٌ » أى كثير الرجوع إلى الله تعالى ، بالإجابة والابتهاال والعبادة .

تنبيهات

الأول - كان أيوب عليه السلام نبيا غنيا من أرباب العقار والماشية . وكان أميرا فى قومه . وكانت أملاكه ومنزله فى الجنوب الشرقى من البحر الميت ، بين بلاد أدوم وصحراء العربية . وكانت إذ ذاك خصيبة رائمة التربة كثيرة المياه المتسلسلة . وكان زمنه بعد زمن إبراهيم وقبل زمن موسى عليهم السلام . هذا ما حققه بعض الباحثين . والله أعلم .

الثانى - يذكر كثير من المفسرين ههنا مرويات وقصصا إسرائيلية فى ابتلائه عليه السلام . ولا وثوق من ذلك كله إلا بجملة . وهو ما أشار له التنزيل الكريم ؛ لأنه المتيقن . وهو أنه عليه الصلاة والسلام أصابته بلوى عظيمة فى نفسه وماله وأهله . وأنه صبر على ذلك صبرا صار يضرب به المثل لثباته وسعة صدره وشجاعته . وأنه جوزى بحسنة صبره أضعافها المضاعفة .

الثالث - قال الزمخشري : فإن قلت : لم نسب المس إلى الشيطان ولا يجوز أن يسلطه الله على أنبيائه ، ليقضى من إتمامهم وتعذيبهم وطره ، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحا إلا وقد نكبه وأهلكه . وقد تكرر فى القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب ؟

قلت : لما كانت وسوسته إليه ، وطاعته له فيما وسوس ، سببا فيما مسه الله به من الفصب والعذاب - نسبه إليه . وقد راعى الأدب فى ذلك حيث لم ينسبه إلى الله فى دعائه ، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو . وقيل : أراد ما كان يوسوس به إليه فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ، ويفر به على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى الله تعالى فى أن يكفيه ذلك بكشف البلاء ، أو بالتوفيق فى دفعه وردده بالصبر الجليل . انتهى .

الرابع - دلّ قوله تعالى (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا) الآية ، على تقدم يمين منه عليه السلام . وقد رووا هنا آثارا في الحلوف عليه ، لم يصح منها شيء . فالله أعلم به ولا ضرورة لبياناه . إذ القصد الإعلام برحمة أخرى ونعمة ثانية عليه ، صلوات الله عليه . وهي الدلالة إلى المخرج من الحنث ، برخصة وطريقة سهلة سمحة ترفع الحرج . ونحن نورد هنا أمثلا ما كتب في الآية ، إيقافا للقارئ عليه ، قال السيوطي في (الإكمال) : أخرج ابن أبي حاتم عن طريق ابن عباس وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وغيرهم ؛ أن أيوب حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة . فلما كشف الله عنه البلاء أمر أن يأخذ ضغثا فيضربها به . فأخذ شماريح مائة ثم ضربها ضربة واحدة . قال سعيد بن جبير : وهي لهذه الأمة لمن حلف على مثل ما حلف عليه أيوب . ثم أخرج أيضا عن عطاء قال : هي للناس عامة . وعن مجاهد قال : كانت لأيوب خاصة قال السكيا الهراسي : ذهب الشافعي وأبو حنيفة وزفر ، إلى أن من فعل ذلك فقد برّ في يمينه . وخالف مالك وآراء خاصا بأيوب .

قال : وفي الآية دليل على أن الزوج ضرب زوجته ، وأن يحلف ولا يستثنى . انتهى . واستدل بهذه الآية على أن الاستثناء شرطه الاتصال . إذ لو لم يشترط لأمره تعالى بالاستثناء ولم يحتج إلى الضرب بالضغث . واستدل عطاء بالآية على مسألة أخرى . فأخرج سعيد بن منصور عنه بسند صحيح ؛ أن رجلا قال له : إني أردت أن لا أكسى امرأتى ذراعا حتى تقف بعرفة . فقال : احمليها على حمار ثم اذهب فتقف بها بعرفة . فقال : إنما عقيت يوم عرفة . فقال عطاء : وأيوب حين حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة ، ما نوى أن يضربها بالضغث ، إنما أمره الله أن يأخذ ضغثا فيضربها به . قال عطاء : إنما القرآن عبرة . انتهى كلام (الإكمال) .

وقد رد الإمام ابن القيم في كتابه (إغاثة اللهيان) الاستدلال بهذه الآية على جواز الحيلة . وعبارته : وأما قوله تعالى لأيوب عليه السلام (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ) وَلَا تَحْنَثْ فمن العجب أن يحتج بهذه الآية على من يقول : إنه لو حلف ليضرب به عشرة أسواط فجعله واضرب بها

ضربة واحدة لم يبرّ في يمينه، هذا قول أصحاب أبي حنيفة ومالك وأصحاب أحمد. وقال الشافعي: إن علم أنها مسته كلها، برّ في يمينه. وإن علم أنها لم تمسه، لم يبر. وإن شك لم يحدث. ولو كان هذا موجبا لبرّ الخائف، لسقط عن الزاني والقاذف والشارب بعدد الضرب، بأن يجمع له مائة سوط أو ثمانين ويضربه بها ضربة واحدة. وهذا إنما يجري في المرض كما قال الإمام أحمد، في المريض عليه الحد، ويضرب بمشكال يسقط عنه الحد. واحتج بما رواه عن أبي أمامة بن سهل، عن سعيد بن سعد بن عبادة^(١) قال: كان بين أبنائنا إنسان مخدج ضعيف، لم يرع أهل الدار إلا وهو على أمة من إماء الدار يخبث بها. وكان مسلما. فرفع شأنه سعد إلى رسول الله ﷺ. فقال: اضربوه حده، قالوا: يا رسول الله! إنه أضعف من ذلك إن ضربناه مائة قتلناه. فقال: نخذوا له عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه ضربة واحدة، وخذوا سبيله. وأما قصة أيوب فلها فقه دقيق. فإن امرأته كانت لشدة حرصها على عافيتها وخلasse من دائه، تلمس له الدواء بما تقدر عليه، فلما لقيها الشيطان وقال ما قال، أخبرت أيوب عليه السلام بذلك، فقال: إنه الشيطان. ثم حلف لئن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة سوط فسكانت معذورة محسنة في شأنه، ولم يكن في شرعهم كفارة. فإنه لو كان في شرعهم كفارة، لعدل إلى التكفير، ولم يحتج إلى ضربها. فكانت اليمين موجبة عندهم كالحدود. وقد ثبت أن الحدود إذا كان معذورا خفف عنه، بأن يجمع له مائة شمراخ أو مائة سوط فيضرب بها ضربة واحدة. وامرأة أيوب كانت معذورة، لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان، وإنما قصدت الإحسان. فلم تكن تستحق العقوبة، فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يعاملها معاملة المعذورة، هذا مع رفقاها به وإحسانها إليه فجمع له بين البر في يمينه والرفق بامرأته المحسنة للمعذورة، التي لا تستحق العقوبة. فظهر موافقة نص القرآن في قصة أيوب عليه السلام، لنص السنة في شأن الضعيف الذي زنى. فلا يتعدى بهما عن محلها.

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٢٢ من الجزء الخامس (طبعة الحاشية).

فإن قيل : فقولوا هذا في نظير ذلك ممن حلف ليضربن امرأته أو أمته مائة ، وكانتا معذورتين لا ذنب لهما ، إنه يبرّ بجمع ذلك في ضربها بمائة شراخ . قيل : قد جمل الله له مخرجا بالكفارة ، ويجب عليه أن يكفر يمينه ، ويقضى الله بالبر في يمينه ههنا ، ولا يحل له أن يبرّ فيها ، بل بره فيها هو حنثه مع الكفارة . ولا يحل له أن يضربها لا مفرا ولا مجموعا .

فإن قيل : فإذا كان الضرب واجبا كالحد ، هل تقولون ينفعه ذلك ؟ قيل : إما أن يكون العذر مرجو الزوال كالحر والبرد الشديد ، والمرض اليسير ، فهذا ينتظر زواله . ثم يحد الحد الواجب . كما روى مسلم ^(١) في صحيحه عن عليّ رضي الله عنه ، أن أمة لرسول الله ﷺ زنت . فأمرني أن أجدها . فأتيتها فإذا هي حديثة عهد بنفاس . فخشيت إن جلدها أن أقتلها ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : أحسنت . أتركها حتى تماثل . انتهى كلام ابن القيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ) « وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ » أي ذوى القوة في العبادة والأفكار في معرفة الله تعالى . قال القاشاني : أي العمل والعلم ، لنسبة الأول إلى الأيدي ، والثاني إلى البصر والنظر ، وهم أرباب الكمالات العملية والنظرية . قال الشهاب : (الأيدي) مجاز عن القوة ، مجاز مرسل . و (الأبصار) جمع بصر بمعنى بصيرة . وهو مجاز أيضا ، لكنه مشهور فيه . وإذا أريد ب (الأيدي) الأعمال ، فهو من ذكر السبب وإرادة السبب . و (الأبصار) بمعنى البصائر مجاز عما يتفرع عليها من المعارف كالأول أيضا . وعلى الوجهين ، فيه تعريض بأن من ليس كذلك ، كان لاجارحة له ولا بصر . انتهى .

(١) أخرجه في : ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث رقم ٣٤ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ)

« إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ » أى صفيناهم عن شوب صفات النفوس وكدورة حظوظا . وجعلناهم لنا خالصين بالمحبة الحقيقية « بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ » أى الباقية والمقر الأصلي ، أى استخلصناهم لوجهنا بسبب تذكرهم لعالم القدس ، وإعراضهم عن معدن الرجس ، مستشرقين لأنوارنا ، لا التفات لهم إلى الدنيا وظلماتها أصلا .

اطليفة :

قال السمين : قرأ نافع وهشام : (بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) بالإضافة . وفيها أوجه : أحدها - أن يكون أضاف خالصة إلى ذكرى للبيان . لأن الخالصة قد تكون ذكرى وغير ذكرى . كقافي قوله ^(١) (بِشِهَابٍ قَبَسٍ) لأن الشهاب يكون قبسا وغيره ، الثانى - أن خالصة مصدر بمعنى إخلاص ، فيكون مصدرا مضافا لمفعوله ، والفاعل محذوف ، أى بأن أخلصوا ذكر الدار وتناسوا عند ذكرها ذكر الدنيا . وقد جاء المصدر على (فاعلة) كالمأقبة . أو يكون المعنى بأن أخلصنا نحن لهم ذكرى الدار .

وقرأ الباقون بالتنوين وعدم الإضافة . وفيها أوجه - أحدها - أنها مصدر بمعنى الإخلاص ، فيكون (ذكرى) منصوبا به ، وأن يكون بمعنى الخلوص ، فيكون (ذكرى) مرفوعا به ، والمصدر يعمل منوئا كما يعمل مضافا . أو يكون (خالصة) اسم فاعل على بابها . و (ذكرى) بدل أو بيان لها أو منصوب بإضمار (أعنى) أو هو مرفوع على إضمار مبتدأ ، و (الدار) يجوز أن يكون مفعولا به ؛ (ذكرى) وأن يكون ظرفا إما على الاتساع وإما على إسقاط الخافض . و (خالصة) إن كانت صفة ، فهي صفة لمحذوف . أى بسبب خصلة خالصة . انتهى .

(١) [٢٧ / النمل / ٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ)

[٤٨] (وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ، وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ)

« وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ » أى المختارين من أبناء جنسهم لقربنا « الْأَخْيَارِ » أى المنزهين عن شوائب الشرور . على أنه جمع (خير) مقابل (شر) الذى هو أفعال تفضيل . أو هو جمع (خير) المشدد أو المخفف منه « وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ » أى بالنبوة والرسالة ، للهداية والإصلاح . و (اليسع) خليفة إلياس وكان خادمه . ويقال له بالعبرانية (اليشاع) كما يسمى إلياس فيها (إيليا) ، وفى التوراة نبأ طويل عن اليسع ونبوته ومعجزاته صلوات الله عليه . وتقدم علم أبناء هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ، فى سورة الأنبياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (هَٰذَا ذِكْرُكُمْ ، وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّآبٍ)

[٥٠] (جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمْ الْأَبْوَابُ)

« هَٰذَا ذِكْرُكُمْ » أى شرف لهم . و (الذكر) يتجاوز به عنه . قال الشهاب : لأن الشرف يلزمه الشهرة والذكر بين الناس ، فتجاوز به عنه بعلاقة اللزوم . فيكون المعنى : أى فى ذكر قصصهم وتنويه الله بهم شرف لهم . واختار الزمخشري أن المعنى : هذا نوع من الذكر وهو القرآن . أى فالتنوين للتنويع . والمراد بالذكر القرآن . فذكره إنما هو للانتقال من نوع من الكلام إلى آخر .

قال الزمخشري : لما أجرى ذكر الأنبياء وأتته ، وهو باب من أبواب التنزيل ، وتوع من أنواعه ، وأراد أن يذكر على عقبه بابا آخر ، وهو ذكر الجنة وأهلها ، قال (هَٰذَا ذِكْرُكُمْ)

« وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتٍ عَدْنٍ » أى إقامة وخلود « مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ » أى متى جاءوها يرونها فى انتظارهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ)
« مُتَّكِئِينَ فِيهَا » أى على الأرائك « يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ » أى مهما طلبوا وجدوا ، وأحضر كما أرادوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ)
« وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ » أى لا ينظرن إلى غير أزواجهن . أو يمنعن طرف الأزواج أن تنظر للغير ، لشدة الحسن . وهو أبلغ . أو بمعنى حور الطرف جمع (أحور) والثوب المقصور يشبه بالحوارى فى بياضه ونصاعته « أَتْرَابٌ » أى متساوية فى السن والرتب ، لا عجوز بينهن . جمع (ترب) بكسر فسكون . وهو من يولد معه فى وقت واحد . كأنهما وقعا على التراب فى زمان واحد . فـ (ترب) فعل بمعنى مفاعل ومتارب . وكمثل بمعنى ، مماثل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ)
« هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ » أى لوقت جزائه . واللام تعليمية . فإن ما وعدوه لأجل طاعتهم وأعمالهم الصالحة . وهى تظهر بالحساب وتقع بعده . فجعل كأنه علة لتوقف إنجاز الوعد عليه . فالنسبة لليوم والحساب مجازية . ولو جمعت اللام بمعنى (بعد) كما فى (كتب لخمس) سلم مما ذكر . أفاده الشهاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ هَذَا لَرِزْقٌ مَّا لَهُ مِنْ تَفَاقٍ)
« إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَّا لَهُ مِنْ تَفَاقٍ » أى انقطاع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (هَذَا ، وَإِنَّ لِلطَّغْيِينَ لَشَرَّ مَأْبٍ)
[٥٦] (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْبُسُ أَلْمِهَادُ)

« هَذَا » أى باب في وصف الجنة وأهلها . فهو مبتدأ خبر مقدر . أو الأمر هذا .
فهو خبر لمخدوف . أو مفعول لمخدوف « وَإِنَّ لِلطَّغْيِينَ لَشَرَّ مَأْبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْبُسُ أَلْمِهَادُ » أى الفراش . مستعار من فراش النائم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ)

« هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » وهو ما يفسق من صديد أهل النار . أى يسيل .
وجملة (فَلْيَذُوقُوهُ) معترضة بين المبتدأ وخبره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَأَخْرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَزْوَاجٌ)

« وَأَخْرُ » أى ومذوق ، أو عذاب آخر « مِنْ شَكْلِهِمْ » أى مثل هذا المذوق
أو العذاب في الشدة والهوان « أَزْوَاجٌ » أى أجناس وأصناف . ثم بين ما يقال للرؤساء
الطاغين ، إذا أدخلوا النار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ، لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ، إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ)

« هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ » أى هذا جمع كثيف من أتباعكم وأشباهكم ، أهل طبائع السوء والذائل المختلفة ، مقتحم معكم فى مضايق المذلة ومداخل الهوان . والافتحام ركوب الشدة والدخول فيها . وقوله « لَا مَرْحَبًا بِهِمْ » دعاء من الرؤساء على أتباعهم . أوصفة لـ (فوج) . أو حال . أى مقولا فيهم (لَا مَرْحَبًا بِهِمْ) أى ما أتوا ربهم رحبا وسعة ، لشدة عذابهم وكونهم فى الضيق والظنك ، واستيحاك بعضهم من بعض ، لقبح المناظر وسوء المخابر « إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ » أى داخلوها بأعمالهم مثلنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ، أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَبَيْسَ الْقَرَارِ)

« قَالُوا » أى الأتباع للرؤساء « بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ » أى بل أنتم أحق بما قلتم ، لتضاعف عذابكم بضاللكم وإضلالكم « أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا » أى قدمتم العذاب بإضلالنا وإغوائنا .

قال القاشانى : وهذه المقاولات قد تكون بلسان المقال وقد تكون بلسان الحال . أى لأن الوضع لا يختص بالحقيقة . إلا أن الأظهر الأول . ويؤيده قوله تعالى بعد (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) « فَبَيْسَ الْقَرَارِ » أى المستقر جهنم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ)

« قَالُوا » أى الأتباع أيضا « رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ » كقوله (١) تعالى (رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضِعَفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ)

« وَقَالُوا » أى الطاغون أو الأنباغ « مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ »

يعنون فقراء المسلمين الذى يَستَرِذِلُونَهُمْ ويسخرون بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (اتَّخَذَ لَهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ)

« اتَّخَذَ لَهُمْ سَخِرِيًّا » قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة (رجالا) . وبهمزة الاستفهام

على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها فى الاستسغار منهم . وقوله تعالى « أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ

الْأَبْصَارُ » أى مالت عنهم كبرا ، وتنحّت عنهم أنفة . والمعنى أى الفعلين فعلنا بهم ،

السخرية منهم أم الإزراء بهم ، على معنى إنكار الأمرين على أنفسهم ، تحسرا وندامة على

ما فعلوا ، وعلى ما حاق بهم وحدهم من سوء العذاب ، وقيل (أم) بمعنى (بل) أى بل زاغت

عنهم أبصارنا لخفاء مكانهم علينا فى النار . كأنهم يستلون أنفسهم بالحال ، يقولون : أو لعلمهم

معنا فى جهنم ولكن لم يقع بصرنا عليهم . فعند ذلك يعرفون أنهم فى الدرجات العاليات وهو

قوله عز وجل ^(١) (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا

حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، قَالُوا نَعَمْ ، فَأَذِنَ مَوْذِنٌ مِّنْ بَيْنِهِمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى

الظَّالِمِينَ) إلى قوله ^(٢) (اذْخُلُوا الْجَنَّةَ) الآية . وقيل : (أم) بمعنى (بل) أيضا ، أى بل

زاغت عنهم أبصارنا لكونهم فى دار أخرى وهى دار النعيم . وقرئ ^(٣) (سَخِرِيًّا) بضم

السين وكسر ها .

(١) [٧ / الأعراف / ٤٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ٤٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ)

« إِنَّ ذَلِكَ » أى الذى حكى عنهم « لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ » أى لواقع وثابت . و (تَخَاصُمُ) بدل من (حَقٌّ) أو خبر لمحدوف . وقرئ بالنصب على البدل من (ذَلِكَ) قال الزمخشري : فإن قلت : لم سمي ذلك تخاصما ؟ قلت : شبه تقاولهم وما يجرى بينهم من السؤال والجواب ، بما يجرى بين المتخاصمين من نحو ذلك . ولأن قول الرؤساء (لَا مَرَّ حَبَّاءَ بِهِمْ) وقول أتباعهم (بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرَّ حَبَّاءَ بِكُمْ) من باب الخصومة . فسمى التقاول كله تخاصما ، لأجل اشتماله على ذلك . انتهى .

فكتب الفاصر عليه : هذا يحقق ما تقدم من أن قوله (لَا مَرَّ حَبَّاءَ بِهِمْ) صَالُوا النَّارِ) من قول المتكبرين الكفار . وقوله تعالى (بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرَّ حَبَّاءَ بِكُمْ) من قول الأتباع . فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين . فيتحقق التخاصم . خلافا لمن قال إن الأول من كلام خزنة جهنم والثانى من كلام الأتباع . فإنه على هذا التقدير ، إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين . فالتفسير الأول أمكن وأثبت . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ، وَمَا مِنِّ إِلَهِ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ » أى رسول مخوف « وَمَا مِنِّ إِلَهِ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ » أى بلاول ولا شريك « الْقَهَّارُ » أى الغالب على خلقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

« رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا » أى من الخلق والمعجائب « الْعَزِيزُ » أى الذى لا يغلب إذا عاقب العصاة « الْغَفَّارُ » أى لمن تاب وأناب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (قُلْ هُوَ نَبَوًّا عَظِيمٌ)

« قُلْ هُوَ » أى الذى أُنذرتكم به من التوحيد ومن البعثة به « نَبَوًّا عَظِيمٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ)

« أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ » لِمَادَى غَفَلْتُمْ . فإن العاقل لا يمرض عن مثله . كيف وقد

قامت عليه الحجج الواضحة . أما على التوحيد ، فما مرّ من آثار قدرته وصنعه البديع . وأما على بعثته ﷺ به ، فقله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

« مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ » أى فإن إخباره عن محاولة

الملائكة وما جرى بينهم ، على ما ورد فى الكتب المتقدمة ، من غير سماع ومطالعة كتاب ، لا يتصور إلا بالوحى .

قال القاشانى : وفرق بين اختصام الملائكة الأعلى واختصام أهل النار بقوله فى تخاصم أهل النار (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ) وفى اختصام الملائكة الأعلى (إِذْ يَخْتَصِمُونَ) لأن ذلك حقيقى لا ينتهى إلى الوفاق أبداً . وهذا عارضى نشأ من عدم اطلاعهم على كمال آدم عليه السلام ، الذى هو فوق كمالهم . وانتهى إلى الوفاق عند قولهم ^(١) (سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) وقوله تعالى ^(٢) (أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) على ما ذكر فى البقرة عند تأويل هذه القصة . انتهى .

(١) [٢ / البقرة / ٣٢] . (٢) [٢ / البقرة / ٣٣] .

وبالجملة ، فالاختصاص المذكور في الآية ، هو المشار إليه في قوله تعالى^(١) (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِئِمَّةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) قال الرازي : وهو أحسن ما قيل فيه .
ثم قال : ولو قيل : كيف جازت مخاصمة الملائكة معه تعالى ؟ قلنا : لاشك أنه جرى هناك سؤال وجواب . وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة . والمشابهة علة لجواز المجاز . فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه . انتهى .

وملخصه : أن (يَخْتَصِمُونَ) استعارة تبعية لـ (يتقاولون) . وقيل : معنى الآية نفى علم الغيب عنه ﷺ ورد اقتراحهم عليه أن يخبرهم بما يحدث في الملأ الأعلى من التخاصم ، كقوله تعالى^(٢) (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ) وقوله^(٣) (قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ) ولذا قال بعد :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ » وقُرئ (إِنَّمَا) بالكسر على الحكاية .

تنبيهات :

الأول - قال الرازي : واعلم أن قوله (أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ) ترغيب في النظر والاستدلال ، ومنع من التقليد . لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية ، فإن بتقدير أن يكون الإنسان فيها على الحق ، يفوز بأعظم أبواب السعادة ، وبتقدير أن يكون الإنسان فيها على الباطل ، وقع في أعظم أبواب الشقاوة . فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية بهيمة . وصرح العقل يوجب على الإنسان أن يأتي فيها بالاحتياط التام ، وأن لا يكتفى بالمساهلة والمساهة .
الثاني - قدمنا أن أكثر المفسرين على تأويل الاختصاص بالتقاول في شأن آدم عليه السلام

(١) [٢ / البقرة / ٣٠] . (٢) [٦ / الأنعام / ٥٠] . (٣) [٦٧ / الملك / ٢٦] .

مع الملائكة . وقيل : خاصتهم مفاظرتهم بينهم في استنباط العلم . كما تجرى المناظرة بين أهل العلم في الأرض . حكاه السكرماني في (عجائبه) .

وذهب ابن كثير إلى أنه عني به ما كان في شأن آدم عليه السلام ، وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاботه ربه في تفضيله عليه . وإن قوله تعالى بعد ^(١) (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ) تفسير له . ولم أره مأثورا عن أحد . بل المأثور عن ابن عباس وغيره ما تقدم ، من أنه في شأن آدم والملائكة . وهذا كله على إثبات علم التخاصم بالوحي . بتقدير (ما كان لي من علم لولا الوحي) ولا تنس القول الآخر . والنظم الكريم يصدق على الكل بلا تناف . والله أعلم . وقد جاء ذكر تخصم الملائكة الأعلى في حديث أخرجه الإمام أحمد ^(٢) عن معاذ رضي الله عنه قال : احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح . حتى كدنا أن نترأى قرن الشمس . فخرج ﷺ سريعا ، فثوب بالصلاة . فصلى وتجوّز في صلاته . فلما سلم قال ﷺ : كما أنتم . ثم أقبل إلينا فقال : إني قت من الليل فصليت ما قدّر لي . فنعست في صلاتي حتى استيقظت . فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة . فقال : يا محمد ! أتدري فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قلت : لا أدري ، يارب ! أعادها ثلاثا . فرأيت وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدرى . فتجلى لي كل شيء وعرفت . فقال : يا محمد ! فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قلت : في الكفارات . قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجماعات ، والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات . قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام . قال : سل . قلت : اللهم ! إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفرلي وترحمني . وإذا أردت

(١) [٢ البقرة / ٣٠] .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٤٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

فتنةً بقوم، فتوفى غير مفتون. وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربنى إلى حبك. وقال رسول الله ﷺ : إنها حق فادرسوها وتعلموها .

قال ابن كثير : هذا حديث المذاهم المشهور . ومن جملة يقطعة فقد غلط . وهو فى السنن من طرق . وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذى ^(١) من حديث جهضم بن عبد الله اليمامى به ، وقال : حسن صحيح .

ثم قال ابن كثير : وليس هذا الاختصاص المذكور فى القرآن . فإن هذا قد فسر . وأما الاختصاص الذى فى القرآن فقد فسر بعد هذا . انتهى . يعنى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ)

[٧٢] (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ وَسَاجِدِينَ)

« إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ وَسَاجِدِينَ » أى غفروا له ساجدين تعظيماً وتكريماً ، إذا عدلت خلقته وأحييته بنفخ الروح فيه . (فإذا) بدل من (إذ) الأولى مفصل لما أجمل قبلها من الاختصاص ، وهذا ما رآه الزمخشري وتابعه ابن كثير . وقد رآه البقاء (اذكر) وهو الأظهر عندى ، ويمضه القول الثانى فى الآية المتقدمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

[٧٤] (إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

« فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ » أى تعظم

(١) أخرجه فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣٨ - سورة ص ، ٤ - حدثنا محمد بن بشار .

« وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » أى باستكباره أمر الله تعالى ، واستكباره عن طاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ يَا بَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ، أَسْتَكْبَرْتَ
أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ)

« قَالَ يَا بَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي » أى بنفسى من غير توسط ،
كأب وأم « أَسْتَكْبَرْتَ » أى : أعرض لك التكبر والاستنكاف « أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ »
أى عليه زائداً فى المرتبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

« قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » يعنى أن الروح الحيوانى
النارى أشرف من المادة الكثيفة البدنية . وغاب عنه ما تضمنته من الحكمة الإلهية ،
واللطيفة الربانية حتى تمسك بالقياس ، وعصى الله تعالى فى السجود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)

« قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا » أى من الجنة أو السماء « فَإِنَّكَ رَجِيمٌ » أى مطرود من الرحمة
ومحل السكرامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)

« وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ » قال القاشانى : الرجيم واللعين مَنْ بَعُدَ عَنْ

الحضرة القدسية ، المنزهة عن المواد الرجسية ، بالانفاس في الغواشي الطبيعية ، والاحتجاب بالكوائن الهيولانية . ولهذا وَقَّت اللعن بيوم الدين . وحدد نهايته به ، لأن وقت البعث والجزاء هو زمان تجرد الروح عن البدن ومواده . وحينئذ لا يبقى تسلطه على الإنسان . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ)

[٨٠] (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ)

[٨١] (إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)

[٨٢] (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٨٣] (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ)

« قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ » وهو القيامة الكبرى « قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ » وهم الذين أخلصهم الله لنفسه من أهل العناية عن نوب الكدورات النفسية وحجب الأنانية ، وصطفى فطرتهم عن خلط ظلمة النشأة البشرية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ)

« قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ » جملة معترضة ، للتأكيد ، أى ولا أقول إلا الحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٨٦] (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)

«لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» أى تبعك فى التعزذ والاستكبار والإباء عن الحق والحاجة فى الباطل «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ» أى على القرآن أو الوحى . قال القاشانى : أى لا غرض لى فى ذلك . فإن أقوال السكامل المحقق بالحق مقصودة بالذات ، غير معلولة بالفرض «وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» قال الزمخشرى : أى المتصنعين الذين يتحلون بما ليسوا من أهله ، وما عرفتمونى قط متصفاً ولا مدعياً ما ليس عندى ، حتى أنتحل النبوة وأدعى القرآن .

تنبيه :

فى الآية ذم التكليف . وقد روى الشيخان ^(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : يا أيها الناس ! من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم . فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم . فإن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

[٨٨] (وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ وَبَعْدَ حِينٍ)

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٨ - سورة ص ، ٣ - باب وما أنا

من المتكلفين ، حديث ٥٧٠ .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث رقم ٣٩ و ٤٠ (طبعتمنا) .

(٢) [٣٨ / ص / ٨٦] .

« إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » أى عظة وتذكير لهم . وهذا كقوله ^(١) (لَا تُذِرْكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) وقوله سبحانه ^(٢) (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأُلْتَأَىٰ مَوْعِدُهُ) « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » أى عند ظهور الإسلام وانتشاره ، ودخول الناس فيه أفواجا أفواجا ، من صحة خبره ، وإنه الحق والصدق . وهذا من أجل معجزات القرآن ، لأنه من الغيوب التى ظهر مصداقها ، إذ كان زمن الإخبار به زمن قلة من المؤمنين ، وخوف من المشركين . فلم يمضِ ربح من الزمن حتى أبدل الله قلتهم كثرة ، وضعفهم قوة ، وخوفهم أمناً ، وكونهم ظهورا وانتشاراً . فصدق الله العظيم ، وصدق نبيه الكريم ، وحقت كلمة الله على الكافرين ، والحمد لله رب العالمين .

(١) [٦ / الأنعام / ١٩] . (٢) [١١ / هود / ١٧] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٩ - سُورَةُ الزُّمَرِ

سميت بها لاشتغالها على الآية التي ذكر فيها زمر الفريقين ، المشيرة إلى تفصيل الجزاء وإلزام الحجة وبطلان المذرة . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايى . وهى مكية ، واستثنى بعضهم ثلاث آيات ^(١) (قُلْ يَبْعَادَى) الخ ذهابا إلى أنها نزلت فى وحشى قاتل حمزة على ماروى . قيل ، ورابعة وهى ^(٢) (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْكِتَابِ) حكاه ابن الجوزى ، وتقدم الكلام فى مثل هذا . وآياتها خمس وسبعون .

أخرج النسائى ^(٣) عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر . ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم . وكان ﷺ يقرأ فى كل ليلة بنى إسرائيل والزمر .

(١) [٣٩ / الزمر / ٥٣] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .

(٣) أخرجه فى : ٢٢ - كتاب الصيام ، ٣٤ - باب الاختلاف على محمد بن إبراهيم فيه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)
« تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » أى هذا تنزيل . أو تنزله كائن من الله .
وقرىء (تَنْزِيلَ) بالنصب على إضمار فعل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)
« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ » أى عن
شوب الشرك والرياء ، بإحاض التوحيد وتصفية السر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ
إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ،
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)

« أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » أى الذى وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة من كل
شائبة ، لا نفراده بالألوهية « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » أى بالحببة ، للتقرب
والتوسل بهم إلى الله تعالى « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ » أى يقولون ذلك
احتجاجاً على ضلالهم « إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى عند حشر
معبوداتهم معهم ، فيقرن كلا منهم مع من يتولاه ، من عابد ومعبود . ويدخل المبطل النار

مع المبطلين ، كما يدخل الحق الجنة مع الحقين « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ »
لا يوصله إلى النجاة ومقرّ الأبرار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ
اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

« لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ
الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ » أى نزهه عن المائلة والمجانسة ، واصطفاء الولد . لكون الوحدة لازمة
لذاته ، وقهره بوحدايته لغيره . فلا تماثل في الوجود ، فكيف في الوجود ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ
النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ،
أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

[٦] (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنْهَا أَنْثًا وَرَجُلًا
مِنْ نَفْسٍ أُخْرَىٰ ، يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ
ثَلَاثٍ ، ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَآَنِي تُصِرُّونَ)
« خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى
اللَّيْلِ » أى بإذهاب أحدها وتغشيه الآخر مكانه . كأنما ألبسه ولفّ عليه « وَسَخَّرَ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو منتهى دوره ، أو منقطع حركته « أَلَا هُوَ
الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا » أى من نفسها ونوعها

« زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ » أى ذكراً وأنثى . من الإبل والبقرة والضأن والماعز « يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ » أى متقلبين فى أطوار الخلقة « فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ » يعنى البطن والرحم والمشيمة « ذَلِكُمْ » أى الخالق لصوركم ، المكور أى المصروف بقدرته ، المسخر بسلطانه ، المنشىء للكثرة من نفس واحدة بحكمته ، المنزل للنعم بنعمته « اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ » أى عن عبادته إلى عبادة غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ، وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) « إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ » أى عن إيمانكم « وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ » أى لأنه سبب هلاكهم « وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ » أى وإن تستعملوا ما أنعم به عليكم فيما خلق له ، يقبله منكم ، لأنه دينه . ويثيبكم ثواباً حسناً لطاعتكم .

تنبيه :

فى الإكليل : استدلل بقوله تعالى (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) على أنه تعالى لا يرضى الكفر والمعاصى . وعلى أن الرضا غير الإرادة . وهو أحد قولى أهل السنة . والقول الثانى وحكاه الآمدى عن الجمهور ، أن الرضا والإرادة سريان ، وحملوا (العباد) فى الآية على المخلصين . « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى لا تحمل حاملَةٌ حمل أخرى ، أى ما عليها من الذنوب ، أو لا تؤخذ نفس بذنب أخرى ، بل كلٌّ مأخوذ بذنبه « ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ » أى بعد الموت « فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى بما فى القلوب من الخير والشر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۸] (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ

نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ،

قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)

[۹] (أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءِانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَّبِّهِ ،

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا

يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَ الْأَلْبَابِ)

« وَإِذَا مَسَّ » أى أصاب « الْإِنْسَانَ ضُرٌّ » أى شدة وبلاء « دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ »

أى ابتهل إليه برفع الشدة والبلاء عنه ، مقبلاً إليه بالدعاء والتضرع « ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ »

أى أعطاه « نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ » أى نسى الضر الذى كان

يدعو الله إلى كشفه من قبل النعمة . وقيل : نسى ربه الذى كان يتضرع إليه ويبتهل إليه .

ف (ما) بمعنى (من) أقيمت مقامها لقصد الدعاء الوصفى ، ولما فى (ما) من الإيهام والتفخيم ،

« وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ » أى يصد الناس عن دينه وطاعته « قُلْ تَمَتَّعْ

بِكُفْرِكَ » أى عش به « قَلِيلًا » أى يسيراً فى الدنيا « إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ * أَمَّنْ هُوَ

قَنِتٌ ءِانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا » أى متعبداً فى ساعاته يقطعها فى السجود والقيام

« يَحْذَرُ الْآخِرَةَ » أى عقابها « وَيَرْجُو رَحْمَةً رَّبِّهِ » أى جفته ورضوانه ، أى :

أهذا أفضل أم ذاك الكافر الجاحد النامى لربه ؟ « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ »

أى توحيده وأمره ونهيه فى الثواب والطاعة « وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى لا يستويان .

تنبيهات :

الأول - في الآية استحباب قيام الليل . قال ابن عباس : أثناء الليل : جوف الليل . وقال الحسن : ساعاته أوله ووسطه وآخره .

الثاني - في قوله تعالى (يَحْذَرُ الْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ) رد على من ذم العبادة خوفا من النار أو رجاء الجنة . وقال عليه السلام (١) (حولها ندندن) .

الثالث - في قوله تعالى (هَلْ يَسْتَوِي) الآية مدح العلم ورفعة قدره . وذم الجهل ونقصه . وقد يستدل به على أن الجاهل لا يكافئ العالم ، كما أنه لا يكافئ بنت العالم ، أفاده في (الإكليل) .

وفي الآية أيضاً إشعار بأن الذين يعلمون هم العاملون بملهمهم ، إذ عبر عنهم أولاً بـ (القانت) ثم نفى المساواة بينه وبين غيره ، ليكون تأكيداً له ، وتصريحاً بأن غير العامل كأن ليس بعالم .

قال القاشاني : وإنما كان المطيع هو العالم ، لأن العلم هو الذي رسخ في القلب وتأصل بعروقه في النفس ، بحيث لا يمكن صاحبه مخالفته ، بل سيطر بالاحتم والدم ، فظهر أثره في الأعضاء لا ينفك شيء منها عن مقتضاه ، وأما المرتسم في حيز التخيل ، بحيث يمكن زهول النفس عنه وعن مقتضاه ، فليس بعالم . إنما هو أمر تصوري وتخييل عارض لا يلبث ، بل يزول سريعاً ، لا يغزو القلب ولا يسمن ولا يغني من جوع « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ » أي يتعظ بهذا الذكر « أَوْ لَوْ أَنَّ الْأَبْأَبَ » أي العقول الصافية عن قشر التخيل والوهم ، لتحققها بالعلم الراسخ الذي يتأثر به الظاهر . وأما المشوبة بالوهم فلا تتذكر ولا تتحقق بهذا العلم ولا تعيه .

(١) أخرجه أبو داود في : ٢ - كتاب الصلاة ، ١٢٤ - باب في تخفيف الصلاة ، حديث

رقم ٧٩٢ ، عن بعض أصحاب النبي عليه السلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا

حَسَنَةٌ ، وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ، إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ »

أى للذين أحسنوا بالطاعات فى الدنيا ، مثوبة حسنة فى الآخرة ، لا يكتفئونها كمنها « وَأَرْضُ

اللَّهِ وَاسِعَةٌ » أى بلاده كثيرة . فمن تعمس عليه التوفى على الإحسان فى وطنه ، فليهاجر إلى

حيث يتمكن منه . قال الشهاب : وجه إفادة هذا التركيب هذه المعانى الكثيرة ، أوضحه شرح

الكشاف بأن قوله (للذين أحسنوا) مستأنف لتعميل الأمر بالتقوى ، ولذا قيد بالظرف .

لأن الدنيا مزرعة الآخرة ، فينبغى أن يلقى فى حرثها بذر الثوبات . وعقب بهذه الجملة لثلايمعتذر

عن التفريط بعدم مساعدة المكان ، ويعمل بعدم مفارقة الأوطان ، فكان حثا على اغتنام

فرصة الأعمار ، وترك ما يعوق من حب الديار ، والهجرة فيما اتسع من الأقطار ، كما قيل :

إذا كان أصلى من ترابٍ فسككها بلادى وكُلُّ العالمين أقاربى

انتهى . « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ » أى على مشاق الطاعة من احتمال البلاء ، ومهاجرة الأوطان

لها « أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى بغير مكيال . تمثيل للكثرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)

« قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ » أى عن الالتفات إلى غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)

« وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ » أى وأمرت بذلك ، لأجل أن أكون مقدمهم

فى الدنيا والآخرة . لأن إخلاصه عليه الصلاة والسلام أتم من إخلاص كل مخلص . وعلى هذا ، فالأولية فى الشرف والرتبة . أو لأنه أول من أسلم وجهه لله من أمته . فالأولية زمانية على ظاهرها . ويجوز أن تحمل اللام مزيدة . كما فى (أردت لأن أفعل) فيكون أمرا بالتقدم فى الإخلاص .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قُلْ إِنِّىْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّىْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[١٤] (قُلِ اللّٰهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لِّهِ دِينِىْ)

« قُلْ إِنِّىْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّىْ » أى بترك الإخلاص له « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللّٰهُ أَعْبَدُ » أى أخصه بالعبادة « مُخْلِصًا لِّهِ دِينِىْ » عن شوب الغير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ، قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا

أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

« فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ » أى أهلكوا أنفسهم بالضللال ، وأهليهم بالضللال . أو خسروا أنفسهم بالهلاك وأهليهم به أيضا ، إن كانوا مثلهم ، أو بفقدهم فقدراً لا اجتماع بعده ، إن كانوا من أهل الجنة « أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ، ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللّٰهُ

بِهِ عِبَادَهُ ، يَلْعَبَادِ فَاتَّقُونِ)

« لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » أى أطباق من النار « ذَٰلِكَ »

أى العذاب المتوعد به « يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ وَيُعِيدُهُمْ فَأَتَقُونَ » أى بعدم التعرض لما يوجب السخط . قال الزمخشري : وهذه عظة من الله تعالى ، ونصيحة بالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ،

فَبَشِّرْ عِبَادِ)

[١٨] (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ

وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ)

[١٩] (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

« وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا » يعنى الأوثان . و (فعلوت) للمبالغة « وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ » أى بالثواب « فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » أى إشاراً للأفضل واهتماً بالأكل . قال الزمخشري : أراد أن يكونوا نقاداً فى الدين ، يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل . ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك ، وأقواها عند السبر ، وأبينها دليلاً وأمارة . وأن لا تكون فى مذهبك كما قال القائل^(١) :

* ولا تسكن مثل غير قيد فأنقاداً *

يريد المقلد . انتهى . ويدخل تحته أيضاً إثار الأفضل من كل نوعين ، اعتراضاً . كالواجب مع الندب . والعفو مع القصاص . والإخفاء مع الإبداء فى الصدقة ، وهكذا « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ » * أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ » أى أفأنت تنقذه منها ؟ أى : لا يمكن إنقاذه أصلاً .

(١) صدره كما فى الشواهد : * شمرٌ وكن فى أمور الدين مجتهداً *

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَعَدَّ اللَّهُ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْوَعْدَ)

[٢١] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

« لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْوَعْدَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ » أى يتم جفافه « فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا » أى فتاتاً « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ » أى لتذكيراً وتنبهاً على أنه لا بد من صانع حكيم ، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير ، لا عن تعطيل وإهمال . ويجوز أن يكون مثلاً للدنيا كقوله تعالى ^(١) (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ^(٢) (وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أفاده الزمخشري .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ، أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ » أى وسعه لتسليم الوجه إليه وحده ، ولقبول دينه وشرعه بلطفه وعنايته وإمداده سبحانه « فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ » أى على بينة ومعرفة ،

(١) [١٠ / يونس / ٢٤] . (٢) [١٨ / الكهف / ٤٥] .

واهتداء إلى الحق . واستعارة النور للهدى والعرفان ، شهيرة ، كاستعارة الظلمة لصد ذلك .
 وخبر (من) محذوف دل عليه قوله تعالى « فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ » أى
 من قبول ذكره لشدة ميلها إلى اللذات البدنية ، وإعراضها عن السكالات القدسية . أو من
 أجل ذكره . (من) للتعميل والسببية . وفيها معنى الابتداء لنشأ عنه . قال الشهاب : إذا
 (قيل قسا منه) فالمراد أنه سبب لقسوة نشأت منه . وإذا قيل (قسا عنه) فالعنى أن قسوته
 جعلته متباعدا عن قبوله . وبهما ورد استعماله . وقد قرئ بـ (عن) فى الشواذ . لكن الأول
 أبلغ . لأن قسوة القلب تقتضى عدم ذكر الله . وهو معناه إذا تعدى بـ (عن) . وذكره تعالى
 مما يلين القلوب ، فـكونه سبباً للقسوة ، يدل على شدة الكفر الذى جعل سبب الرقة ، سبباً
 لقسوته « أَوْلَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » أى عن طريق الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ
 الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ، ذَلِكَ
 هُدًىٰ لِلَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ، وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ)
 « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا » أى يشبه بمضه بمضا ، فى الصحة
 والإحكام والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق ووجوه الإعجاز « مَّثَانِي » جمع (مثنى)
 بمعنى مرّدد ومكرر ، لما تلى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيته ووعدته ووعيدته
 ومواعظه « تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » تمثيل لإفراط خشيتهم . أو حقيقة
 لتأثرهم عند سماع آياته وحكمه ووعيدته ، بما يرد على قلوبهم منها « ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
 إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ » أى بالانقياد والطاعة والسكينة لأمره « ذَلِكَ » أى الكتاب ، أو الكائن
 من الخشية والرجاء « هُدًىٰ لِلَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ » أى من زاغ قلبه
 « فَمَا لَهُ مِن هَادٍ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

« أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ » أى من يجعل وجهه وقاية لشدة العذاب ذلك اليوم ، أى قائماً مقامها فى أنه أول ما يحس المؤلم له . لأن ما يتقى به هو اليدان ، وهما مغلولتان . ولولم تغلا كان يدفع بهما عن الوجه ، لأنه أغر أعضائه . وقيل : الاتقاء بالوجه كناية عن عدم ما يتقى به ، لأن الوجه لا يتقى به . وخبر (من) محذوف كمنظأره . أى : كمن أمن العذاب « وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ » أى : وباله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)
« كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى لا يحسبون أن الشر يأتيهم منها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (فَآذَاهُمْ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[٢٧] (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)
« فَآذَاهُمْ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى الذل والصغار « وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ » أى بينا لهم فى هذا القرآن ، الذى هو دليل فى نفسه من إعجازه ، من كل مثل يحتاج إليه .

من يستدل بنظره على حقيقته وأحقيقته « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى به ما يهمهم من أمور دينهم ، وما يصلحهم من شؤون سعادتهم ، فيفسروا المقول بالمحسوس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قُرْءَانًا غَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

« قُرْءَانًا غَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ » أى مستقيماً بريئاً من التناقض والاختلاف « لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى المذاب والحزى يوم الجزاء ، بالاتقاء من الأفعال القبيحة والأخلاق الرديئة ، والاعتقادات الفاسدة . ومن أجل تلك الأمثال ، ما مثل به ليتقى من أعظم المخوفات ، وهو الشرك ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا » أى للشرك والموحد رجلين مملوكين « رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ » أى سيئو الأخلاق ، يتجاذبون ويتماورونه فى مهماتهم المختلفة ، لا يزال متحيراً متوزع القلب ، لا يدري أيهم يرضى بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد فى حاجته « وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ » أى : خالص ملسكه له ، لا يتجه إلا إلى جهته . ولا يسير إلا لخدمته ، فهمه واحد ، وقلبه مجتمع « هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا » أى : صفة وحالاً . أى فى حسن الحال وراحة البال ؟ كلا . وهكذا حال من يثبت آلهة شتى . لا يزال متحيراً خائفاً لا يدري أيهم يعبد ، وعلى ربوبية أيهم يعتمد . وحال من لم يعبد إلا إلهاً واحداً . فهمه واحد . ومقصده واحد . ناعم البال . خافض العيش والحال . والقصد أن توحيد المعبود فيه توحيد الوجهة ودرء الفرقة . كما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام ^(١) (أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ

أُلْقَهُمْ هَارُ) « أَلْحَمْدُ لِلَّهِ » قال أبو السعود : تقرير لما قبله من نفى الاستواء بطريق الاعتراض ، وتنبيه للموحدين على أن ما لهم من الزية بتوفيق الله تعالى . وأنها نعمة جليلة موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته . أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل ، أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء ، صنع جميل ولطف تام منه عز وجل ، مستوجب لحمده وعبادته . وقوله تعالى « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور ، إلى بيان أن أكثر الناس ، وهم المشركون ، لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره . فيبقتون في ورطة الشرك والضلال . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » تمهيد لما يعقبه من الاختصاص يوم القيامة . وقرئ (مائت) ومائتون) وقيل : كانوا يتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم موته . أى إنكم جميعاً بصدد الموت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)

« ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ » أى مالك أموركم « تَخْتَصِمُونَ » أى فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت ما أرسلت به من الأحكام والمواظظ التي من جملتها ما في تضاعيف هذه الآيات . واجتهدت في الدعوة إلى الحق حق الاجتهاد ، وهم قد لجؤا في المكابرة والعناد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالْإِصْدَاقِ إِذْ جَاءَهُ وَ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ)

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ » أى افترى عليه بنسبة الشريك والولد « وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ » أى بالأمر الذى هو عين الحق « إِذْ جَاءَهُ » أى حضر عنده دليله وبرهانه ، فرفضه وردده على قائله . أى لا أحد من المتخاصمين أظلم ممن حاله ذلك . لأنه أظلم من كل ظالم « أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ » أى لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه ، وسارعوا إلى التكذيب بالحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

« وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ » أى جاء بدليل التوحيد وآمن به فلم يمتد بشبهة تقابله ، يعنى النبى ﷺ ومن تبعه « أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » أى الموصوفون بالتقوى التى هى أجل الرغائب . ولذا كان جزاؤهم أن يقيمهم الله ما يكرهون ، كما قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ، ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

[٣٥] (لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[٣٦] (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

[٣٧] (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ)

« لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ » أى الذين أحسنوا أعمالهم وأصلحوها « لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي

كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ * أَيْ نَبِيِّهِ ﷺ أَنْ يَعصمه مِنْ كُلِّ سُوءٍ ، وَيُدْفِعَ عَنْهُ كُلَّ بَلَاءٍ فِي مَوَاطِنِ الْخَوْفِ « وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ » بِعَنِ الْأَوْثَانِ الَّتِي عَبَدُوهَا مِنْ دُونِهِ تَعَالَى . وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَمَّا قَالَتْ لَهُ قَرِيشٌ : إِنَّا نَخَافُ أَنْ تَخْبِلَكَ آلِهَتُنَا ، وَيَصِيبَكَ مَضَرَّتُهَا لَعِينِكَ يَا هَا . كَمَا قَالَ قَوْمُ هُودٍ ^(١) (إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَبْنَاكَ بِعُضْوِ الْعَظْمِ بَسُوءٍ) « وَمَنْ يَضِلِ اللَّهُ » أَيْ مِنْ غَفَلَ عَنْ كِفَايَتِهِ تَعَالَى وَعَصَمَتِهِ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَخَوْفُهُ بِمَا لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ أَصْلًا « فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ » أَيْ يَصْرِفُهُ عَنْ مَقْصِدِهِ ، أَوْ يَصِيبُهُ بِسُوءٍ يَحِلُّ بِسُلُوكِهِ . إِذَا لَرَادَ لِفَضْلِهِ وَلَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ « أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ » أَيْ يَنْتَقِمُ مِنْ أَعْدَائِهِ لِأَوْلِيَائِهِ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ ، قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ)

« وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » أَلَا تَقَرَّرُ فِي الْفِطْرِ وَالْعَقُولِ مِنْ اسْتِيقَانِ ذَلِكَ ، وَلَوْضُوحِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ « قُلْ » أَيْ تَبَسَّكَيْتَا لَهُمْ « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ » أَيْ نَفْعُهُ وَخَيْرُهُ . كَلَّا . فَإِنَّهَا لَا تَنْفَعُ وَلَا تَنْفَعُ « قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ » اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ » أَيْ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ ، لَا عَلَى غَيْرِهِ . أَعْلَمُهُمْ بِأَنْ كُلَّ مَا سِوَاهُ تَحْتَ قَهْرِهِ .

(١) [١١ / هود / ٥٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (قُلْ يَتَقَوِّمُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

[٤٠] (مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ)

« قُلْ يَتَقَوِّمُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ » أى حالتكم التى أنتم عليها ، من العداوة ومناسبة الحق « إِنِّي عَمِلْتُ » أى على مكانتى . فحذف للاختصار ، والمبالغة فى الوعيد ، والإشعار بأن حاله لا تزال تزداد قوة ، بنصر الله عز وجل وتأنيده . ولذلك توعدهم بكونه منصوراً عليهم فى الدارين ، بقوله تعالى « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ » أى دائم . وقد أخزاهم الله يوم بدر ^(١) (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ، فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ،

وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

« إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ » أى لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه وافتقارهم إلى بيان مرادهم « فَمَنِ اهْتَدَىٰ » أى بدلائله « فَلِنَفْسِهِ » ومن ضلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » أى لتجبرهم على الهدى . إذ ما عليك إلا البلاغ ^(٢) (فَأُصَدِّقُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأُعْزِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا، فِيمِمْسِكَ

الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى، إِنَّ

فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(١) [٢٠ / طه / ١٢٧] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٤] .

« اللَّهُ يُتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » أى مفارقتها لأبدانها ، بإبطال تصرفها فيها بالكلية « وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا » أى ويتوفى التى لم يحن موتها فى منامها ، بإبطال تصرفها بالحواس الظاهرة « فِيمُسِّكُ اللَّهُ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ » أى فلا يردها إلى بدنها إلى يوم القيامة « وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى وهو نوم آخر أو موت « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فيها ذكر من التوفى على الوجهين « لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ » أى فى كيفية تعلّقها بالأبدان، وتوفىها عنها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَمْ أُتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ سُفْعَاءَ ، قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ)

[٤٤] (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ، لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)
 [٤٥] (وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ أَشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

« أَمْ أُتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ سُفْعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا » أى هو مالكها لا يستطيع أحد شفاعته ما ، إلا أن يكون المشفوع له مرتضى ، والشفيع مأذون له ، وكلاهما مفقود ههنا « لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ » أى دون آلهتهم « أَشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ » أى فرادى ، أو مع ذكر الله تعالى « إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » أى يفرحون بذلك . لفرط افتقارهم بها ، ونسيانهم حق الله تعالى . ولقد بولغ فى الأمرين حيث بين الغاية فيهما . فإن الاستبشار أن يحتل قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه . والاشمئزاز أن يحتل غما حتى ينفبض أديم وجهه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى التجيء إلى الله بالدعاء بأسمائه الحسنى ، وقل : أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم . والمقصود بيان حالهم ووعيدهم وتسليية حبيبه الأكرم . وأن جدّه وسعيه معلوم مشكور عنده تعالى . وتعليم العباد الالتجاء إلى الله تعالى ، والدعاء بأسمائه الحسنى ، والاستعانة بالتضرّع والابتهاال على دفع كيد العدو .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

[٤٨] (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

« وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » أى نزل بهم جزاؤه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ وَ

عَلَىٰ عِلْمٍ ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٥٠] (قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ »
 أى منى بوجوه الكسب والتحصيل « بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ » أى ابتلاء له ، أيشكر تلك النعمة ،
 فيصرفها فيما خلقت له ، فيسعد . أو يكفرها فيشقى « وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا
 الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى كما قال قارون^(١) « إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي » « فَمَا أَغْنَىٰ
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى فما دفع عنهم ما كسبوه بذلك العلم من متاع الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ، وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ سَيَّصِبُ بِهِمْ
 سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)
 [٥٢] (أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
 لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ سَيَّصِبُ بِهِمْ سَيِّئَاتُ
 مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ
 إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى بأن الكل منه سبحانه ، ومن آياته فى ذلك
 - كما قال المهايى - أنه تعالى قوى بذاته ، له تقوية من يشاء وتضعيف من يشاء . ومنها أنه
 فياض بذاته لا يتوقف فيضه على الشفعاء . ومنها أنه فاعل بذاته لا يتوقف فعله على سبب
 وواسطة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قُلْ لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ،
 إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(١) [٢٨ / القصص / ٧٨] .

[٥٤] (وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)

[٥٥] (وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

[٥٦] (أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَحْصِرُنِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ)

« قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ » أى جَنَوا عليها بالإسراف فى المعاصى والكفر « لَا تَقْنَطُوا » قرئ بفتح النون وكسرها « مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ » أى لا تياسوا من مغفرته بفعل سبب يحو أثر الإسراف « إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا » أى لمن تاب وآمن . فإن الإسلام يجب ما قبله « إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ » أى توبوا إليه « وَأَسْلِمُوا لَهُ » أى استسلموا وانقادوا له . وذلك بعبادته وحده وطاعته وحده ، بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه « مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَحْصِرُنِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ » أى قصرت « فِي جَنْبِ اللَّهِ » أى فى جانب أمره ونهيه ، إذ لم أتبع أحسن ما أنزل « وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ » أى المستهزئين بمن يتبع الأحسن . و (أَن تَقُولَ) مفعول له بتقدير مضاف . أى : فتداركوا كراهة أن تقول . أو تعليل لفعل يدل عليه ما قبله . أى أنذرکم وآمرکم باتباع أحسن القول كراهة . وتفصيله فى شروح (الكشاف) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)

« أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي » أى للإسلام « لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » أى :
من هذا الكفر . أى تقول هذا النوع من التحسر والتملل بما لا يجدى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

« أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً » أى رجعة إلى الدنيا « فَأَكُونَ مِنَ
الْمُحْسِنِينَ » أى فى الإيمان والعمل الصالح . ثم ردّ تعالى على تلك النفس بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَآئِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ

الْكَافِرِينَ)

[٦٠] (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ، أَلَيْسَ

فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ)

« بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَآئِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ *
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ » أى بنسبة ما يستحيل عليه من الولد
والشريك ، وتجويز ما يمتنع عليه من رضاه بما هم عليه ، وأمره لهم ، وغير ذلك من إفكهم
« وَجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ » أى لما يغالهم من الشدة التى تغير ألوانهم . فالسواد حقيقى .
أو لما يلحقهم من الكآبة ، ويظهر عليهم من آثار الهيئات الظلمانية ورسوخ الرذائل النفسانية
فى ذواتهم . فالسواد مجاز بالاستعارة « أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ » أى عن
الإيمان والهدى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[٦٢] (اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

« وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ » أى يفوزهم وفلاحهم لإيمانهم بأسباب الفوز ، من الاعتقادات المبنية على الدلائل والأعمال الصالحة « لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » أى يتولى التصرف فيه كيف شاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[٦٤] (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَمُرُّونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ)

[٦٥] (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

[٦٦] (بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

« لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى هو وحده يملك أمرها وخزائن غيوبها وأبواب خيرها وبركتها « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَمُرُّونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ » أى خصه بالعبادة « وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ » أى الصارفين ما أنعم به عليهم ، إلى ما خلق لأجله .

فإن قيل : كان الظاهر (لو أشركت) لأن (أن) تقتضى احتمال الوقوع . وهو هنا

مقطوع بعدمه . فالجواب : أن هذا الكلام وارد على سبيل الفرض . والمحالات يصح فرضها لأغراض . والمراد به تهيجج الرسل وإقنات الكفرة والإيدان بغاية قبح الإشراك ، وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره ، فكيف بمن عداه ؟ وإطلاق الإحباط هنا يستدل به من ذهب إلى أن الردة مبطلّة للعمل مطلقاً ، كالحنفية . وغيرهم يرى الإحباط مقيداً بالاستمرار عليه إلى الموت ، وأنه هو المحبط في الحقيقة . وأنه إنما ترك التقيد به اعتقاداً على التصريح به في آية أخرى ، وهي قوله تعالى ^(١) (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » أي ما قدر وعظمته تعالى حق عظمته ، ولا عرفوا جلاله حق معرفته . حيث جعلوا له شركاء ووصفوه بما لا يليق بشئونه الجليلة . مع أن عظمته وكمال قدرته تتحير فيها الأوهام . فإن تبديل الأرض غير الأرض ، وطىّ السموات كطىّ السجل ، أهون شيء عليه . وفي (القبضة واليمين) مذهبان معروفان . مذهب السلف ، وهو إثبات ذلك من غير تسكين له ولا تشبيه ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير ولا إزالة للفظ الكريم عما تعرفه العرب وتضعه عليه بتأويل . يجرون على الظاهر ويكون علمه إليه تعالى ويقرون بأن تأويله (أي ما يؤول إليه من حقيقة) لا يعلمه إلا الله . وهكذا قولهم في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن ، ووردت بها الأخبار الصحاح .

(١) [٢ / البقرة / ٢١٧] .

المذهب الثاني - القول بأن ذلك من المجاز المعروف نظيره في كلام العرب. وإن الإطلاق لا ينحصر في الحقيقة . ثم من ذاهب إلى أن المجاز في المفردات، استعميت (القبضة) للملك أو التصرف و(اليمين) للقدرة . وذاهب إلى أنه في المركب ، بتمثيل حال عظمتة ونفاذ قدرته ، بحال من يكون له قبضة فيها الأرض ، ويمين بها تطوى السموات . وهذا ما عول عليه الزمخشري وبسطه أحسن بسط .

ثم أشار إلى أن من عظيم قدرته تعالى، أنه جعل النفخ في الصور سبب موت الكل تارة، وحياتهم أخرى ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

« وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ » أى هلك « مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » أى من خواص الملائكة . أو من الشهداء . روى ذلك عن بعض التابعين . وقال قتادة : قد استثنى الله ، والله أعلم ، إلى ما صارت نُفَيْتُهُ . وهذا هو الوجه . إذ لا يصار إلى بيان المبهمات إلا بقاطع « ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ » أى وقوف ، يقلمون أبصارهم دهشا وحيرة . أو ينتظرون ما يحل بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا » أى لأنه يتجلى لهم سبحانه لإقامة العدل والجزاء « وَوُضِعَ الْكِتَابُ » أى عرض كتب الأعمال على أهلها ليقرا كل واحد عمله في صحيفته .

أو (الْكَتَبُ) مجاز عن الحساب وما يترتب عليه من الجزاء ، ووضعه ترشيح له . والمراد بوضعه الشروع فيه . أو هو تمثيل . وجوه نقلها الشهاب «وَجَاءَ يَا نَبِيَّ بْنَ وَهَّابٍ» والشهاداء» أى الذين يشهدون للأمر وعليهم ، من الحفظة والأخبار المطلعين على أحوالهم . أى أحضروا للشهادة لهم أو عليهم لأطلاعهم على أحوالهم . وجوز إرادة المستشهدين فى سبيل الله تعالى ، تفويهاً بشأنهم ، وترفعاً لقدرهم ، بضمهم إلى النبيين فى الموقف . ولا يبعد «وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» أى فتوزن أعمالهم بميزان العدل ، ويوفون جزاء أعمالهم ، لا ينقص منها شيء ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ)
[٧١] (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتِيحتُ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ، قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[٧٢] (قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ)
[٧٣] (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)
«وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا» أى أفواجا متفرقة بعضها فى أثر بعض ، على تفاوت ضلالهم وغيهم ، رعاية للعدل فى التقديم والتأخير «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتِيحتُ أَبْوَابُهَا» أى ليدخلوها ، ولكل فريق باب

« وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهُا » أى الموكلون بتعذيبهم « أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ » أى من جنسكم تعرفون صدقهم وأمانتهم « يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا » أى وقتكم أو يوم القيامة ، حرصاً على صلاحكم وهدايتكم « قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ » أى وجبت « كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ » أى حكمه عليهم بالشقاوة ، وأنهم من أهل النار « قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ أَنْقَرُوا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ » أى مساق إغزاز وتشريف ، للإسراع بهم إلى دار الكرامة « زُمرًا » أى متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم فى الفضل « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَقُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ » أى من دنس المعاصى ، وطهرتم من خبث الخطايا « فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ » قال السمين : فى جواب (إِذَا) ثلاثة أوجه : أحدها - قوله (وَقُتِحَتْ) والواو زائدة . وهو رأى الكوفيين والأخفش . وإنما جىء هنا بالواو دون التى قبلها ، لأن أبواب السجون مغلقة إلى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح له ، ثم تغلق عليه . فناسب ذلك عدم الواو فيها . بخلاف أبواب السرور والفرح ، فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها . والثانى - أن الجواب قوله (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا) على زيادة الواو أيضاً . الثالث - أن الجواب محذوف . قال الزمخشري : وحقه أن يقدر بعد خالدين : أى لأنه يجيئ بعد متعلقات الشرط ماعطف عليه . والتقدير : اطمأنوا . وقدره المبرد : سمعوا . وعلى هذين الوجهين ، فتكون الجملة من قوله (وَقُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) فى محل نصب على الحال ، والواو واو الحال . أى جاءوها مفتوحة أبوابها . كما صرح بمفتحة حالا من (جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ) وهو قول المبرد والفارسي وجماعة . وزعم بعضهم أن هذه الواو تسمى واو الثمانية . لأن أبواب الجنة ثمانية . وردّه فى (المغنى) بأنه لو كان لواو الثمانية حقيقة ، لم تكن الآية منها . إذ ليس فيها ذكر عدد البتة ، وإنما فيها ذكر الأبواب . وهى جمع لا يبدل على عدد خاص . ثم الواو ليست داخلية عليه ، بل على جملة هو فيها . انتهى .

أى وهى - على قول مثبتها - الداخلة على لفظ الثمانية على سرد العدد . ذهاباً إلى أن بعض

العرب إذا عدوا قالوا : ستة سبعة وثمانية . إيذانا بأن السبعة عدد تام ، وأن ما بعده عدد مستأنف ، فأشبهت واو الاستئناف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ)

[٧٥] (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ » أى بإيصالنا إلى ما وعدنا وأنبأنا عنه على السنة رسله « وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ » أى أرض الآخرة . شبه نيلهم بأعمالهم لها ، بإرثهم من آباءهم . فكان الأعمال آباؤهم . كما قيل : * وأبى الإسلام لأب لي سواه * وكما يقال (الصدق يورث النجاة) « نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » أى يتبوا كل من جنته الواسعة ، أى مكان أراداه « فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ » أى الذين عملوا بما علموا « وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ » أى الملائكة السماوية حافين فى جنة الفردوس حول عرش الرحمن ، محققين به . وتقدم فى تفسير آية (١) (ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) فى الأعراف ، كلام فى جملة العرش ، فتذكره « يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ » أى بين الخلائق « بِالْحَقِّ » أى بالعدل « وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى على ما قضى بينهم بالحق ، وأنزل كلا منزلته التى هى حقه . والقائل : إما الحق جل جلاله ، أو الملائكة الحافون ، أو المؤمنون ممن قضى بينهم ، أو الكل ، فله الحمد عز وجل .

عن قتادة قال : افتتح الله أول الخلق بـ (الْحَمْدُ لِلَّهِ) فقال (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) وختم بالحمد فقال (وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

(١) [٧ / الأعراف / ٥٤] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٠ - سورة غافر

وسميت (المؤمن) قال المهايي : سميت به لاشتغالها على كلمات مؤمن آل فرعون ،
المتضمنة دلائل النبوة ورفع الشبه عنها ، والمواعظ والفصائح وسلامته عن أعدائه .
وعما أخذوا به ، وهي من أعظم مقاصد القرآن . وتسمى سورة غافر وسورة الطول .
وهي مكية وآيها ثمانون وخمس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (حم)

[٢] (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

« حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » الكلام في مفتتح هذه السورة وتاليه ، كالذى سلف في (الم السجدة) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

[٤] (مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)

« غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ » أى المن والفضل « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ » أى المرجع والجزاء « مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا » أى ما يخاصم في حجج الله وأدلته على وحدانيته بالإنكار لها ، إلا الذين جحدوا توحيده . قال الزمخشري : سجل على المجادلين في آيات الله بالكفر . والمراد الجدال بالباطل ، من الطعن فيها والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور الله . وقد دل على ذلك قوله ^(١) (وَجَدُّوْا بِالْبُطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) فأما الجدال فيها ، لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ومقارحة أهل العلم في استنباط معانيها ، ورد أهل الزيغ بها عنها ، فأعظم جهاد في سبيل الله . وقوله ^(٢) (جدال في القرآن كفر) وإبراده مفكرا ، تمييز

(١) [٤٠ / غافر / ٥] . (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٢٥٨

من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٧٤٩٩ (طبعة المعارف) .

منه بين جدال وجدال . انتهى « فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَيْلَادِ » أى للتجارات ، وتمتعهم بالتجوال والترداد ، فآلمهم إلى الزوال والنفاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ، وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ » أى الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم « مِنْ بَعْدِهِمْ » أى من بعد سماع أخبارهم ومشاهدة آثارهم « وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ » أى ليمكنوا منه ، ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل . من (الأخذ) بمعنى الأسر . والأخذ الأسير « وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ » أى قابلوا حجج الرسل بالباطل من جدالهم « لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ » أى ليزيلوا به الأمر الثابت بالحجة الصحيحة . لكنه لا يندحض وإن كثرت الشبه . لما أنه الثابت فى نفسه المتقرر بذاته « فَأَخَذْتُهُمْ » أى بالعذاب الدنيوى المعروف أخباره ، المشهود آثاره « فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ » أى فى هذه الدار . فيعتبر به عقاب تلك الدار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)
« وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ » قال (١)
ابن جرير: أى وكما حق على الأمم التى كذبت رسلها ، التى قصصت عليك ، يا محمد ، قصصها ، وحل بها عقابى . كذلك وجبت كلمة ربك على الذين كفروا بالله من قومك ، الذين يجادلون فى آيات الله . لأنهم أصحاب النار . ثم نوّه بالمؤمنين ، وبما أعدّ لهم ، بقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

[٨] (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[٩] (وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[١٠] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

«الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ» أى من الملائكة. وقد سبق في تفسير آية (١) (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) في الأعراف ، كلام في حمة العرش ، فراجع «وَمَنْ حَوْلَهُ» يعنى الملائكة المقربين «يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ» أى: ويقرّون بأنه لا إله لهم سواه. ويشهدون بذلك لا يستكبرون عن عبادته . وفائدة التصريح بإيمانهم ، مع جلالة ، هو إظهار فضيلة الإيمان وإبراز شرف أهله ، والإشعار بعلّة دعائهم للمؤمنين. حسبما ينطق به قوله تعالى «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» فإن المشاركة في الإيمان أقوى المناسبات وأتمها ، وأدعى الدواعى إلى النصح والشفقة . وفي نظم استغفارهم لهم في سلك وظائفهم المفروضة عليهم ، من تسييحهم وتحميدهم وإيمانهم ، إيدان بكمال اعتنائهم به ، وإشعار بوقوعه عند الله تعالى

(١) [٧ / الأعراف / ٥٤] .

في موقع القبول « رَبَّنَا » أى يقولون ربنا « وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا » أى شملت رحمتك وأحاط بالكل علمك « فَأَغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » أى صراطك المستقيم بمتابعة نبيك فى الأقوال والأعمال والأحوال « وَفِيهِمْ عَذَابُ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » أى عمل صالحاً منهم ، ليعم سرورهم بهم « إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ » أى : عقوبتها وجزائها « وَمَنْ تَقِرَّ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُمَادُّونَ لَمَعَتِ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَّقْتَتِلِهِمْ أَنْفُسَهُمْ » أى : لبغضه الشديد لكم ، أعظم من بغض بعضهم لبعض . وتبرؤ كل من الآخر ولعنهم حين تمذبون كما قال تعالى (١) (يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمُ بَعْضًا) أو أعظم من مقتكم أنفسكم وذواتكم . فقد يمتحنون أنفسهم حين تظهر لهم هيئاتها المظلمة وصفاتها المؤلمة ، وسواد الوجه الموحش وقبح المنظر المنفر « إِذْ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » أى تدعون على السنة الرسل عليهم السلام ، إلى الإيمان به سبحانه ، فتكفرون كبراً وعتواً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أُنْتَنِي وَأَحْيَيْتَنَا أُنْتَنِي فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى

خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ)

« قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أُنْتَنِي وَأَحْيَيْتَنَا أُنْتَنِي » أى أنشأنا أمواتاً مرتين . وأحييتنا فى اللسطين كما قال تعالى (٢) (وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) قال قتادة : كانوا أمواتاً فى أصلاب آبائهم ، فأحياهم الله فى الدنيا . ثم أماتهم الموت التى لا بد منها . ثم أحياهم للبعث يوم القيامة . فهما حياتان وموتتان « فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا » أى : فأقرنا

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٥] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٨] .

بما عملنا من الذنوب في الدنيا . وذلك عند وقوع العقاب المرتب عليها ، وامتناع المحيص عنه « فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ » أى : فهل إلى خروجنا من النار ، من سبيل ، لنرجع إلى الدنيا فنعمل غير الذى كنا نعمل . قال الزمخشري : وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط . وإنما يقولون ذلك تعللاً وتخييراً . ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك . وهو قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُوَ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَؤْمِنُوا ، فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ)

[١٣] (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ، وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ)

« ذَٰلِكُمْ » أى ذلكم الذى أنتم فيه من العذاب ، وأن لا سبيل إلى خروج قط « بِأَنَّهُوَ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَؤْمِنُوا » أى بسبب إنكاركم أن الألوهة له خالصة ، وقولكم ^(١) (أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا) وإيمانكم بالشرك « فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » أى فالقضاء له وحده لا للغير . فلا سبيل إلى النجاة لعلوه وكبريائه . فلا يمكن أحدا رد حكمه وعقابه « هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ » أى من الريح والسحاب والبرق والبرق والصواعق ونحوها « وَيُنَزِّل لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا » أى مطرا . وإفراده بالذكر من بين الآيات ، لعظم نفعه ، وتسبب حياة كل شيء عنه « وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ » أى . وما يتعظ بآياته تعالى ، إلا من يرجع إليه بالتوبة والإنابة .

(١) [٣٨ / ص / ٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

[١٥] (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ

مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ)

« فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » أى فاعبدوه مخلصين له الدين، عن شوب الشرك « وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » أى غاظهم ذلك « رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ » أى رفيع درجات عرشه كقوله ^(١) (ذِي الْمَعَارِجِ) وهى مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش . وهى دليل على عزته وملكوته . أو هو عبارة عن رفعة شأنه وعلو سلطانه وكلماته ، غير المتناهية « ذُو الْعَرْشِ » يُلْقِي الرُّوحَ » أى الوحي والعلم اللدنى الذى تحيا به القلوب الميتة « مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » أى أهل عنايته الأزلية ، واختصاصه للرسالة والنبوة « لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ » أى يوم القيامة الكبرى ، الذى يتلاقى فيه العبد بربه ليحاسبه على أعماله ، أو العباد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يَوْمَ هُمْ بَبْرُزُونَ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ،

لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

[١٧] (الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« يَوْمَ هُمْ بَبْرُزُونَ » أى من قبورهم . أو ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو بناء « لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ » أى من أعمالهم وأعيانهم وأحوالهم . وقوله « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ » ينادى به الحق سبحانه ، عند فناء الكل . أو وقت التلاقى والبروز . فيجيب هو

وحده «لِلَّهِ الْوَاحِدِ» أى المتفرد بالملك «الْقَهَّارِ» أى الذى قهر بالغلبة كل ما سواه «الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» أى بإبصار ما يستحق كل منهم إليه ، من تبعات سيئاته وثمرات حسناته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَأَنْذَرُهمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ)

«وَأَنْذَرُهمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ» أى الواقعة القريبة «إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ» أى من أهواله ترتفع القلوب عن مقارها ، فتصير لدى الحلق «كَظِيمِينَ» أى ممتلئين غمًا ، بما أفرطوا من الظلم «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ» أى قريب يهتم لشأنهم ، فيخفف عنهم غمومهم «وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ» أى من يشفع فى تخفيفها عنهم . إذ لا تقبل شفاعاة فيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[٢٠] (وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[٢١] (أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ)

[٢٢] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ، إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

[٢٣] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)

[٢٤] (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقُرُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)

[٢٥] (فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ

وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ، وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

« يَعْلَمُ خَاسِنَةَ الْعَيْنِ » أى نظراتها الخائنة. وهى الممتدة إلى مالا يحل « وَمَا تُخْفِي
الضُّدُورُ » أى تكنه من الضمائر والأسرار « وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ » أى بالعدل « وَالَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْءٌ » أى لأنهم لا يقدرُونَ على شئ. « إِنَّ اللَّهَ هُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا
مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ » يعنى حصونهم وقصورهم
وعددهم « فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ *
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقُرُونَ فَقَالُوا
سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ » أى بآيات نبوته « مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا
أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ » أى : قالوا أعيديا عليهم القتل ، كالذى
كان أولا. واستبقوا نساءهم للخدمة « وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » أى : وما مكرهم
فى دفع ما أراد الله من ظهور دينه ، إلا فى ضياع . إذ هو كالغشاء الذى يقذفه تيار الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ وَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ

يَبَدِّلَ دِينَكُمْ . أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ وَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ »

أى ما أنتم عليه من عبادة الأصنام « أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » أى فساد مملكتى .
إذ يتفق الكل على متابعتة وإجراء أحكامه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ
بِيَوْمِ الْحِسَابِ)

« وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ »
أى التجأت إليه وتوكلت عليه ، فهو ناصر دينه وممزر أهله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا
أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ
كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ،
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

« وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ » أى من فرعون وملئه
« أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا
فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ » أى من عذاب الدنيا إن
تعرضتم له . وقد أشار الزمخشري إلى ما فى طى هذا القول من اللطائف والأسرار ، بما ملخصه :
إن هذا المؤمن استدرجهم فى الإيمان باستشهاده على صدق موسى ، بإحضاره عليه السلام من
عند من تنسب إليه الربوبية ، بينات عدة لا بينة واحدة . وأتى بها معرفة . معناه البينات العظيمة
التي شهدتموها وعرفتموها على ذلك ، ليلين بذلك جاحهم ، ويكسر من سورتهم . ثم أخذهم

بالاحتجاج بطريق التقسيم ، فقال : لا يخلو من أن يكون صادقا أو كاذبا . فإن يك كاذبا فضرر كذبه عائد عليه . أو صادقا فيصحبكم ، إن تعرضتم له ، بعض الذي يعدكم . وإنما ذكر (بعض) في تقدير أنه نبي صادق ، والنبي صادق في جميع ما يعدُّ به ، لأنه سلك معهم طريق المناصحة لهم والمداواة . فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم ، وأدخل في تصديقهم له ، ليسمعوا منه ولا يردوا عليه صحته . وذلك أنه حين فرضه صادقا ، فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعدُّ . ولكنه أردفه (يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُّكُمْ) ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام ، ليريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وأثنى عليه ، فضلا عن أن يكون متعصبا له . وتقديم (الكاذب) على (الصادق) من هذا القبيل .

قال الناصر : ويناسب تقديم الكاذب على الصادق هنا ، قوله تعالى ^(١) (وَشَهِدَ شَهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَ وَهُوَ مِنَ الْكَذَّابِينَ* وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) فقدم الشاهد أماره صدقها على أماره صدق يوسف ، وإن كان الصادق هو يوسف ، دونها ، لرفع التهمة وإبعاد الظن ، وإدلالا بأن الحق معه ولا يضره التأخير لهذه الفائدة . وقريب من هذا التصرف لإبعاد التهمة ، مافي قصة يوسف مع أخيه . إذ بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه . انتهى . « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ » قال الزمخشري : يحتمل أنه إن كان مسرفا كذابا ، خذله الله وأهلكه ولم يستقم له أمر ، ففتخلصون منه . وأنه لو كان مسرفا كذابا لما هداه الله للنبوة ، ولما عضده بالبينات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يَقُومَ لَكُمْ أَلْمُكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ، قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

(١) [١٢ / يوسف / ٢٦ و ٢٧] .

« يَقَوْمٍ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَهَرْنَا فِي الْأَرْضِ » أى عالين وقاهرين ، فلا تفسدوا
أمركم على أنفسكم بأنفسكم ، ولا تعرضونا لعذابه تعالى « فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ
جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى » أى ما أشير عليكم إلا ما أستصوبه من قتله .
إذ البأس السماوى من أجل قتله ، أمر متوهم . فاتباعه غلط « وَمَا أَهْدِيكُمْ » أى بإراءة
رأى قتله « إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » وهو دفع تبدل دينكم وإظهار الفساد فى الأرض ،
بإظهار أحكامه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ)
[٣١] (مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ
ظُلْمًا لِلْعِبَادِ)

« وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى من قتله « مِثْلَ يَوْمِ
الْأَحْزَابِ » أى الطوائف الهالكة بالكذب « مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ » أى جزاءهم
من الفرق « وَعَادٍ » أى من الريخ العقيم « وَثَمُودَ » أى من الصيحة « وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ »
أى من الأمم المكذبة ، مما يدل على أن الهلاك سنة مستمرة لأهل التكذيب ، إذ لم يكن
لهم ذنب آخر يوجب « وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ » أى فلا يعاقبهم بغير ذنب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ)

« وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ » يعنى يوم القيامة ، أى عذابه . سعى بذلك
لما جاء فى حديث^(١) (إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر ، وماجت وارتمت ،

(١) لم أعر على هذا الحديث .

فنظر الناس إلى ذلك ، ذهبوا هاربين ينادى بعضهم بعضاً (أى : من هول فزع النفخة . وقال قتادة : ينادى كل قوم بأعمالهم . ينادى أهل الجنة أهل الجنة وأهل النار أهل النار . وقيل للمناداة أهل الجنة أهل النار ^(١)) (أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ) ومناداة أهل النار أهل الجنة ^(٢)) (أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ) . واختار البغوي وغيره ؛ أنه سُمي لمجموع ذلك . أى لوقوع الكل فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَوْمَ تُولُون مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

« يَوْمَ تُولُون مُدْبِرِينَ » أى ذاهبين فراراً من الفزع الأكبر ^(٣) (كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) « مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ » أى من عذابه ، من مانع ، لتقرر الحجة عليكم « وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ » أى يزيغه عن صراط ربه « فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ » أى من حجة ولا مرشد إلى النجاة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ، حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنَ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)

« وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ » أى من قبل موسى بالحجج البينة

(١) [٧ / الأعراف / ٤٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ٥٠] .

(٣) [٧٥ / القيامة / ١١ و ١٢] .

والبراهين النيرة ، على وجوب عبادته تعالى وحده . كقوله ^(١) (« أَرَبَابٌ مُتَقَرِّفُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ») فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ « أى مع ظهور استقامته الكافية فى الدلالة على صحة ما جاءكم به ، فلم يزل يقررها « حَتَّى إِذَا هَلَكَ » أى مات « قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا » أى يقرر حججه . فقطعتم من عند أنفسكم ، بعدم إرسال الله الرسول ، مع الشك فى إرسال من أعطاه البينات ، من فرط ضلالكم « كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ » أى فى التشكيك عند ظهور البراهين القطعية « مُرْتَابٌ » أى شك مع ظهور لواحق اليقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)
« الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ » أى برهان « أَتَتْهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ »
أى بطر للحق ، لا يقبل الحجة . جبار فى المجادلة . ألد فيصدر عنه أمثال ما ذكر ، من الإسراف والارتباب والمجادلة فى الباطل لطمس بصيرته ، فلا يكاد يظهر له الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ)
[٣٧] (أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَذِيبًا ، وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءِ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ)
« وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صِرَاحًا » أى قصرًا عاليًا ظاهرًا لكل أحد

(١) [١٢ / يوسف / ٣٩] .

« لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ » أى طرقها « فَأُطْلِعَ إِلَىٰ آلِهِ مُوسَىٰ » أى لأسأله عن إرساله ، أو لأفهم على كنهه « وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ وَكَذِبًا » قال ابن جرير ^(١) : أى لأظن موسى كاذباً فيما يقول ويدعى ، من أن له فى السماء رباً أرسله إلينا « وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ » أى سبيل الرشاد لما طبع على قلبه ، من كبره وتجبره وإسرافه وارتياحه « وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ » أى خسار وهلاك ، لذهاب نفقته على الصرح سدى ، وعدم نيته ، مما أرادته من الاطلاع ، شيئاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ)

« وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ » أى طريق الصواب الذى ترشدون إذا أخذتم فيه وسلكتموه . ثم أشار إلى تفصيل ما أجمله بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (يَتَّبِعُونَ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)

« يَتَّبِعُونَ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ » أى تمتع يسير ، لسرعة زوالها « وَإِنَّ الْآخِرَةَ » التى يوصل إليها سبيلى « هِيَ دَارُ الْقَرَارِ » أى الاستقرار والخلود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ

أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ

(١) انظر الصفحة رقم ٦٦ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ « أى بغير تقدير وموازنة بالعمل . بل أضعافاً مضاعفة . قال الزمخشري : قوله (بِغَيْرِ حِسَابٍ) واقع في مقابلة (إِلَّا مِثْلَهَا) بمعنى أن جزاء السيئة له حساب وتقدير ، لثلاث يزيد على الاستحقاق . فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب ، بل ما شئت من الزيادة والكثرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَيَقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ)

[٤٢] (تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَرِ)

« وَيَقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ » أى بوجوده علم ، إذ لا وجود له « وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ » أى الغالب الذى يقهر من عصاه « الْغَفَرِ » أى الذى يستر ظلمات نفوس من أطاعه ، بأنواره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ)

وَأَن مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)

[٤٤] (فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ، وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

« لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ » أى

الذى تدعونى إلى عبادته ، ليس له دعوة فى الدنيا لدفع الشدائد والأمراض ونحوها ،

ولا في الآخرة لدفع أهوالها ، على ما قاله المهايي . أو لا دعوة له في الدارين لعدمه بنفسه ، واستحالة وجوده فيهما ، على ما قاله القاشاني . وقال الشهاب : عدم الدعوة عبارة عن جماديتها وأنها غير مستحقة لذلك . وسياق (لَا جَرَمَ) عند البصريين أن يكدن (لَا) ردًا لما دعاه إليه قومه و (جَرَمَ) بمعنى كسب . أى وكسب دعاؤهم إليه بطلان دعوته . أى ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته . ويجوز أن يكون (لَا جَرَمَ) نظير (لا بد) من الجرم وهو القطع . فكما أنك تقول (لا بد لك أن تفعل) والبد من التبديد الذى هو التفريق ، ومعناه لا مفارقة لك من فعل كذا ، فكذلك (لَا جَرَمَ) معناه لا انقطاع لبطلان دعوة الأصنام . بل هي باطلة أبدا . هذا ما يستفاد من (الكشف) .

وفي (الصحاح) : قال الفراء : (لَا جَرَمَ) كلمة كانت في الأصل بمنزلة (لاحالة ، ولا بد) فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم ، وصارت بمنزلة (حقا) فلذلك يجب عنها باللام . ألا تراهم يقولون (لا جرم لآتينك) وقد حقق الكلام فيها ابن هشام في (المغني) في بحث . والجلال في (همع الهوامع) أنباء بحث إن والقسم ، فانظرهما . « وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ » أى فى الضلالة والطغيان وسفك الدماء « هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَقَدُوا مِمَّا قَالُوا لَكُمْ » أى من النصح عند معاينة الأحوال وما يحيق بكم « وَأَفْرَضَ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ » أى وأسلم أمرى إليه وأجعل له وأتوكل عليه ، فإنه الكافى من توكل عليه « إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » أى فيعلم المطيع منهم والعاصى ، ومن يستحق الثوبة والعقوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ، وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)

« فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا » أى فرفع الله عن هذا المؤمن من آل فرعون ، بإيمانه وتصديق رسوله موسى ، مكروه ما كان فرعون ينال به أهل الخلاف عليه ، من العذاب والبلاء ، فنجاه منه « وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ » أى بفرعون وقومه « سُوءُ الْعَذَابِ » يعنى الفرق أو النار . وعلى الأول ، فقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (النَّارُ يُمْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا
إِلَ الْفِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

[٤٧] (وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا
لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَتْتُمْ مُنْغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ)

[٤٨] (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ)

«النَّارُ يُمْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا» جملة مستأنفة مبينة لكيفية نزول العذاب بهم .
على أن (النَّارُ) مبتدأ وجملة (يُمْرَضُونَ) خبره . وعلى الثاني ، فالنار خبر المحذوف وهو
خبر العذاب السيئ . أو هي بدل من (سُوءَ الْعَذَابِ) . والمراد عرض أرواحهم عليها دائماً .
واكتفى بالطرفين المحيطين - الغدو والعشي - عن الجميع . وبه يستدل على عذاب القبر والبرزخ .
وقناه الله تعالى ، بمنه .

قال السيوطي : وفي (العجائب) للكرمانى : في هذه الآية أدل دليل على عذاب القبر .
لأن المعطوف غير المعطوف عليه . يعنى قوله تعالى « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ » أى هذا العرض
مادامت الدنيا ، فإذا قامت الساعة يقال لهم « أَدْخِلُوا إِلَ الْفِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » وهو
عذاب جهنم . لأنه جزاء شدة كفرهم « وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ » أى يتخاصمون فيها ،
الأتباع والمتبعون « فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا » أى أتباعاً
كالمكرهين « فَهَلْ أَتْتُمْ مُنْغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ
فِيهَا » أى نحن وأنتم . فكيف نغنى عنكم ؟ ولو قدرنا لأغنيا عن أنفسنا « إِنَّ اللَّهَ قَدْ
حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ » أى بأن أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ولا معقب لحكمه .
أو بأن قدر عذاباً لكل منا لا يدفع عنه ، ولا يتحملة عنه غيره . قال الشهاب : وهذا أنسب
بما قبله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ)

« وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ » أى لما يسوا من التخفيف عند الحاجة « ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ » أى يدفع عنا يوماً من أيام العذاب ، أو ألم يوم وشدته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، قَالُوا بَلَى ، قَالُوا فَادْعُوا ، وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

« قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » أى التكاثر على صدقهم ، المنذرة بهذه الشدة « قَالُوا بَلَى » أى جاءوا بها وأخبروا مع البينات « قَالُوا فَادْعُوا » أى إن كان ينفعكم ، وهيأت « وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » أى فى ضياع لا يجاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)

« إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » أى لننصرهم فى الدارين . أما فى الدنيا ، فبإهلاك عدوهم واستئصاله عاجلاً ، أو بإظهارهم بعدوهم وإظهارهم عليه ، وجعل الدولة لهم والعافية لأتباعهم . وأما فى الآخرة ، فبالنعم الأبدي والحبور السرمدي . و (الْأَشْهَادُ) جمع شاهد ، وهم من يشهد على تبليغ الرسل وتكذيبهم ظالماً . أو جمع شهيد ، كأشراف وشريف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)
 «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» قال ابن جرير^(١) :
 ذلك يوم لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم ، لأنهم لا يمتدرون إن اعتذروا إلا بباطل . وذلك أن الله
 قد أعذر إليهم في الدنيا ، وتابع عليهم الحجج فيها ، فلا حجة لهم في الآخرة إلا الاعتصام
 بالكذب ، بأن يقولوا^(٢) (وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) ولذا كانت لهم اللعنة ، وهي البعد
 من رحمة الله وشر ما في الدار الآخرة من العذاب الأليم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ)
 «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى» أي ما يهتدى به . فكذب به فرعون وقومه
 كما كذبت قريش «وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ» أي وتركنا عليهم بعده من
 ذلك التوراة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (هُدًى وَذِكْرَى لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ)
 «هُدًى» أي بياناً لأمر دينهم وما ألزمناهم من شرائعها «وَذِكْرَى لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ»
 أي لذوى الحجى والعقول منهم .

(١) انظر الصفحة رقم ٧٥ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ)

« فَأَصْبِرْ » أى إذا تلوت ما قصصناه عليك للناس ، فاصبر على أذى المشركين واصدع بما تؤمر « إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى بنصرك على من خالف ، لا خلف له وهو منجزه . واذكر نبأ موسى وفرعون « وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ » أى سله غفرانه وعفوه « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ » كقوله تعالى ^(١) « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

« إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ » أى يدفعون الحق بالباطل ، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة ، بلا برهان ولا حجة من الله « إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ » أى : إلا تكبر عن الحق وتعظم عن التفكر ، وغمط أن جاءهم به ، حسداً منهم على الفضل الذى آتاك الله ، والكرامة التى أكرمك بها من النبوة « مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ » قال ابن جرير ^(٢) : أى الذى حسدوك عليه أمر ليسوا بمدركيه ولا نائليه . لأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . وليس بالأمر الذى يدرك بالأماني . وقد قيل : إن معناه إن فى صدورهم إلا عظمة ، ما هم ببالغى تلك العظمة ، لأن الله مذلهم « فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ » قال ابن جرير ^(٣) :

(١) [٥٠ / ق / ٣٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧٦ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٧٧ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أى فاستجبر بالله يا محمد ، من شر هؤلاء الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان، ومن الكبر أن يعرض فى قلبك منه شيء « إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » أى لما يقولون وبما يعملون، فسيجازيهم .
تنبية :

قال كعب وأبو العالية : نزلت هذه الآية فى اليهود . وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم، وأنهم يملكون به الأرض . فأمر ﷺ أن يستعيز بالله من فتنته . قال ابن كثير: وهذا قول غريب ، وفيه تعسف بعيد . وإن كان قد رواه ابن أبى حاتم . ولم يذكره ابن جرير، على ولعه بالغريب والضعيف .

وفى (الإكليل) : ليس فى القرآن الإشارة إلى الدجال إلا فى هذه الآية ، أى على صحة هذه الرواية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » أى : لإنشأهما وابتداعهما من غير شيء ، أعظم من خلق البشر « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى لا ينظرون ولا يتأملون لغلبة الجهل عليهم . ولذا يعملون إعادة الشيء أعظم من خلقه عن عدم ، مع أنه أهون وأيسر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءَ ، قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ)

« وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ » أى ما يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئاً ، وهو

مثل الكافر الذى لا يتأمل حجج الله بعينيه فيتدبرها ويعتبر بها ، فيعلم وحدانيته وقدرته على خلق ماشاء ، ويؤمن به - والبصير الذى يرى بعينيه ما شخض لها ويبصره . وذلك مثل المؤمن الذى يرى بعينيه حجج الله فيقف فكر فيها ويتعظ ، ويعلم ما دلت من توحيد صانعه وعظيم سلطانه « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى ولا يستوى أيضاً المؤمنون بالله ورسوله ، المطيعون لربهم « وَلَا الْمُسِيءَ » وهو الكافر بربه ، العاصى له ، المخالف أمره « قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ » أى حججه تعالى . فيعتبرون ويتعظون . أى لو تذكروا آياته واعتبروا بها ، لعرفوا خطأ ما هم مقيمون عليه ، من إنكار البعث ، ومن فبح الشرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)
« إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا » أى فأيقنوا بحجيتها وأنكم مبعوثون ومجازون بأعمالكم ، فتوبوا « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يصدقون بحجيتها . يعنى المشركين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)

« وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » أى اعبدوني أُنِيبْكم . قال الرّمحشرى : والدعاء بمعنى العبادة ، كثير فى القرآن . ويدلّ عليه قوله تعالى « إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » أى صاغرين أذلاء . قال الشهاب : إطلاق الدعاء على العبادة مجاز ، لتضمن العبادة له . لأنه عبادة خاصة أريد به المطلق . وجعل الإجابة لترتيبها عليها استجابة ، مجازاً أو مشاكلة . وإنما أول به لأن ما بعده يدل عليه . والمقام يناسبه

الأمر بالعبادة . وقد جَوَّز أن يراد بالدعاء والاستجابة ظاهرهما . ويراد بالعبادة الدعاء مجازاً ، لأنه باب من العبادة عظيم ، وفرد من أفرادها نعيم . قال الشهاب : ولوقيل لاحاجة إلى التيجوز ، لأن الإضافة المراد بها العهد هنا ، فيفيد ما ذكر من غير تجوز - لكان أحسن . انتهى .
وعلى الوجه الثانى - وهو أن المراد بالدعاء السؤال - اقتصر كثير من المفسرين .
قال الميايمى (أَسْتَجِبْ لَكُمْ) لأن الدعاء من العبد غاية فى التذلل لربه ، وهو محبوب لربه .
فإذا أتى العبد بمحبوب الرب عظمه بالاستجابة . وإذا لم يستجب له فى الدنيا عوّضه فى الآخرة .
ولجبه التذلل أمر العباد بالعبادة ، فإن استكبروا كان لهم غاية الإذلال . اه . وقال الفاشانى :
الآية فى دعاء الحال . لأن الدعاء باللسان مع عدم العلم بأن المدعو به خير له أم لا ، دعاء المحبوبين .
وأما الدعاء الذى لا تتخلف عنه الاستجابة ، فهو دعاء الحال بأن يهيب العبد استعداداً لقبول ما يطلبه ، ولا تتخلف الاستجابة عن هذا الدعاء . كمن طلب المغفرة ، فتاب إلى الله ، وأتاب بالزهد والطاعة . انتهى .

وتقدم فى آية (١) (أُجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) فوائد تناسب هذا المقام ، فلتراجع .
ثم أشار تعالى إلى أنه كيف لا يلزم العباد عبادته ، وقد أنعم عليهم بما يقتضى شكره بالعبادة ،
مما أجلاه منافع الليل والنهار ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا ، إِنَّ اللَّهَ

لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

[٦٢] (ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

«اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ» أى الله الذى لاتصلح الألوهية إلا له ،

ولا تنبغى عبادة غيره ، هو الذى جعل لكم الليل مظلاً لتسكنوا فيه ، فتستردوا بالراحة فيه ،

(١) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

ما فاتكم من القوى في العمل بالنهار « وَالنَّهَارُ مُبْصِرًا » أى أن يبصر فيه أو به لتتحرروا لتحصيل الأكساب الدينية والدنيوية . فقد تفضل الله عليكم بهما وبما فيهما « إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ » أى ليشكروه بعبادته « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا إِلَهًا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ » أى عن طاعته إلى إثبات الشريك وعبادته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْحَدُونَ)

« كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْحَدُونَ » أى من الأمم المتقدمة المالهكة . أى فسلكتم أنتم معشر قريش مسلكهم ، وركبتم حججهم في الضلال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَرَّكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

« اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا » أى تستقرون عليها وتسكنون فوقها « وَالسَّمَاءَ بِنَاءً » أى مبنية مرفوعة فوقكم بغير عمد ترونها لمصالحكم وقوام دنياكم . وقد فسر (البناء) بالقبعة المضروبة . لأن العرب تسمى المضارب (أبنية) ، فهو تشبيه بليغ ، وهو إشارة إلى كرميتها . قاله الشهاب « وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ » أى يجعل كل عضو في مكان يليق به ، ليتم الانتفاع بها ، فتستدلوا بذلك على كمال حكمته « وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ » أى لذيدات المطاعم والمشارب لتشكروه وحده « ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » أى الذى لا تصلح الربوبية إلا له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« هُوَ الْحَيُّ » أى الذى لا يموت ، الدائم الحياة ، وكل شىء سواء فتنقطع الحياة غير دائمها « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » أى مفردين له الطاعة ، لا تشرکوا فى عبادته شيئاً « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى الثناء والشكر لله ، مالك جميع أجناس الخلق ، لا للأوثان التى لا تملك شيئاً ، ولا تقدر على ضر ولا نفع .
قال ابن جرير^(١) : وكان جماعة من أهل العلم يأمرسون من قال (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) أن يتبع ذلك (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) تأولوا منهم هذه الآية ، بأنها أمر من الله بِقِيلِ ذلك . ثم أسنده عن ابن عباس وابن جبير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

« قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى من الآلهة والأوثان « لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي » أى الآيات الواضحات من عنده ، على وجوب وحدته وتفرد بالعبادة « وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » أى أخضع له بالطاعة دون غيره من الأشياء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ

(١) انظر الصفحة رقم ٨١ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلِّغُوهُنَّ أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا ، وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتَوَفَّى
مِنْ قَبْلُ ، وَلَتَبَلِّغُوهُنَّ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ » أى مما يرجع إليه . أو خلق أباكم آدم منه « ثُمَّ
مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلِّغُوهُنَّ أَشَدَّكُمْ » أى يبيِّنكم لتبلغوا
أشدكم ، فتتكمَّل قواكم « ثُمَّ لَتَكُونُوا » أى إذا تنهى شبابكم وتنام خلقكم « شُيُوخًا
وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ » أى من قبل أن يصير شيخا « وَلَتَبَلِّغُوهُنَّ » أى ونفعل ذلك
لتبلغوا « أَجَلًا مُّسَمًّى » أى ميعاتا محدودا لحياتكم ، وهو وقت الموت . أو لجزائكم وهو
يوم القيامة « وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى ولكي تعقلوا حجج الله عليكم بذلك ، وتندبروا
آياته ، فتعرفوا بها أنه لا إله غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ)
« هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ » أى
يكونه من غير كلفة ولا معاناة . وقد تقدم فى (البقرة) الكلام على هذه الآية مطولا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ)
[٧٠] (الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)
[٧١] (إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ)
[٧٢] (فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ)
« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ » أى عن الرشد إلى الغى

« الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ » أى بكتاب الله ، وهو القرآن « وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْدَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ » أى الماء الحار . قال المهايى : لدفعهم برد اليقين من دلائل الكتاب والسنة « ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » أى يحرقون . قال المهايى : لإحراقهم الأدلة العقلية والنقلية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ)

[٧٤] (مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ،

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ)

« ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا » أى غابوا

فلم نعرف مكانهم . وهذا قبل أن يقرنوا معهم . أو ضلّاهم استعارة لعدم نفعها لها . فحضورهم كالعدم « بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا » أى ما كنا مشركين . وإنما كذبوا لحيرتهم واضطرابهم . أو بمعنى : تبين لنا أننا لم نكن نعبد شيئاً . قال القاشانى : لاطلاعهم على أن ما عبدوه وضيعوا أعمارهم فى عبادته ، ليس بشيء ، فضلاً عن إغناؤه عنهم شيئاً « كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ » أى أهل الكفر به ، عنه وعن رحمته ، فلا يخفف عنهم العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ)

« ذَٰلِكُمْ » أى العذاب « بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ

تَمْرَحُونَ » أى بسبب فرحكم فى الدنيا ، بغير ما أذن الله لكم به ، من الباطل والمعاصى ، وبمرحكم فيها . و (المرح) هو الأثر والبطر والخيل . وبين (الفرح) و (المرح) تجنيس بديع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ)
« أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ » أى منزل
المتعظمين عن الإيمان والتوحيد ، جهنم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ
فَالِئِنَّآ يُرْجَعُونَ)

« فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى فاصبر على جدال هؤلاء المتكبرين فى آيات الله ،
وعلى تكذيبهم ، فإن وعد الله إياك بالظفر عليهم ، حق ثابت « فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي
نَعِدُهُمْ » أى من العذاب والنقمة « أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ » أى قبل أن يحل بهم ما يحل « فَالِئِنَّآ
يُرْجَعُونَ » أى فنحكم بينهم بالحق ، وهو الخلود فى النار ، لمناسبة نقوسهم الكدرة الظلمانية ،
البعيدة عن الحق ، واستحكام ملكات رذائلهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن
لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ،
فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ » أى لتقف على ماوفينا لهم
من وعد النصر إياهم فى الدنيا « وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ » أى لمكان الطول .
مع أن فى نبئهم ما يشاكل نبأ المذكورين . والشئ يعتبر بشكله « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ

يَأْتِي بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ « أى بأمره . وهذا رد لمقترحهم وتعنتهم في طلب ماقص عنهم من آية ^(١) (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوءًا) الآية ، بأن الإتيان بذلك مرده مشيئة الله تعالى وإرادته به . وقد شاء أن تكون الآية العظمى تنزيله ، الأكبر من كل آية ، والأعظم من كل خارقة . فهو خير الآيات وأحسنها وأقوم المعجزات وأمتنها . كما قال تعالى ^(٢) (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِنْهَا) وقال تعالى ^(٣) (أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ) « فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ » أى عند عدم الإيمان بالآية المقترحة ، بعد إتيانها « فُضِيَ بِالْحَقِّ » أى من المؤاخذه ، بعد تقرير الحجة المقترحة لهم « وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ » أى في دعواهم الشريك ، وافتراءهم الكذب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)
[٨٠] (وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

[٨١] (وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ)
[٨٢] (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« الله » أى الذى لا يصلح الألوهية إلا له « الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ » أى مسخرة

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٠] . (٢) [٢ / البقرة / ١٠٦] .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٥١] .

« لَتَرَكِبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ » من الجلود والأوبار والأصواف
 « وَلَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ » أى بالمسافرة عليها « وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ » أى
 فى طريق البحر « تَحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ » أى دلائله الدالة على فرط رحمته وكل قدرته
 « فَآيَ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ » أى من الحصون
 والقصور والمباني والعدد والعدد « فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى مما لا يدفع به
 العذاب الأرضى ولا السماوى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ
 مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

[٨٤] (فَلَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ)

[٨٥] (فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا ، سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ

فِي عِبَادِهِ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ)

« فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » أى الخالى عن
 نور الهداية والوحى ، ورضوا بها عن قبول هداية الرسل ومعارفهم . واستهزأوا برسولهم
 لاستصغارهم بما جاءوا به ، فى جنب ما عندهم من العلم الوهمى « وَحَاقَ بِهِمْ » أى من عذاب الله
 « مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » أى جزاؤه « فَلَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَ
 وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ
 الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ » أى مضت فى خلقه ، أن لا يقبل توبة ولا إيماناً فى تلك الحال
 « وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ » أى وهلك ، عند مجئ بأسه تعالى ، الكافرون بربههم
 الجاحدون توحيد خالقهم . ففاتهم سعادة الأبد ، والعيش الرغد . نسأله تعالى المعافاة من غضبه
 وعقابه ، والموافاة مع زمرة أحبائه . آمين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤١ - سورة فصلت

(حمّ السجدة)

سميت بها لاشتغالها على آية سجدة . تدل على بطلان عبادة المظاهر بالسكينة . وأن الله يستحق بذاته أجلّ العبادات . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايى . وهى مكينة . وآياها أربع وخمسون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (حم)

[٢] (تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

« حم * تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » قال أبو السعود : إن جعل (حم) اسماً للسورة ، فهو إما خبر مبتدأ محذوف ، وهو الأظهر ، أو مبتدأ خبره (تَنْزِيلٌ) * وهو على الأول خبر بعد خبر . وخبر لمبتدأ محذوف ، إن جعل مسروداً على نخط التعميد . وقوله تعالى (مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) متعلق به ، مؤكداً لما أفاده التكوين من الفخامة الذاتية ، بالفخامة الإضافية . أو خبر آخر . أو (تَنْزِيلٌ) مبتدأ لتخصصه بالصفة ، خبره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (كَتَبَ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ وَ قُرْءَانًا غَرِيْبًا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« كَتَبَ » وهو على الوجوه الأول بدل منه ، أو خبر آخر ، أو خبر لمحذوف . ونسبة التنزيل إلى الرحمن الرحيم ، للإيذان بأنه مدار المصالح الدينية والدنيوية ، واقع بمقتضى الرحمة الربانية ، حسبما ينبي عنه قوله تعالى ^(١) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) « فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ » أى بيئت بالاشتمال على جميع المطالب الدينية ، مع الدلائل العقلية « قُرْءَانًا غَرِيْبًا » أى بلسان عربى يتيسر فيه من جميع الفوائد ما لا يتيسر فى غيره . وانتصاب (قُرْءَانًا) على المدح ، أو الحالية من (كَتَبَ) لتخصصه بالصفة ، أو من (ءَايَاتُهُ) « لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى مقداره ومعانيه . أو لأهل العلم والنظر .

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

«بَشِيرًا» أى للماملين به ، الناظرين فيه ، والمستخرجين منه ، بالفعيم المقيم «وَنَذِيرًا» أى للمعرضين عنه بخلود الأبد فى نار جهنم «فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ» أى أكثر هؤلاء القوم ، الذين أنزل هذا القرآن بشيرا ونذيرا لهم ، فلم يتدبروه «فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ» أى لا يصغون له ، عتوا واستكبارا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُ غَيْرَ مَا نَحْمَلُ)

«وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ» أى أعطية متكاثفة ، لا يصل إليها شىء مما تدعونا إليه ، من التوحيد وتصديق ما فى هذا القرآن من الأمر والنهى والوعود والوعيد «وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ» أى صمم ، لا نسمع ذلك ، استنقالاته وكرامية «وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ» أى فلا تواصل ولا تلاقى على ما ندعى إليه «فَاعْمَلْ» أى على ما تدعونا إليه ، وانصب له «إِنَّا نَحْمِلُ غَيْرَ مَا نَحْمَلُ» أى على ما ألفينا عليه آباءنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ، وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ)

[٧] (الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

[٨] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَٰهُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَىَّ »
 أى بالتوحيد وإخلاص العبادة ، من غير انحراف إلى الباطل والسبل المتفرقة « وَأَسْتَغْفِرُوهُ »
 أى بالتوبة من الشرك « وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » أى لا يزكون
 أنفسهم بطاعة الله ، أو لا ينفقون من أموالهم زكاتها . وهذا ما رجحه ابن جرير^(١) ، ذهاباً
 إلى أن ذلك هو الأشهر من معنى الزكاة . لاسيما مع ضخمة الإتياء . وفيه إشارة إلى أن من
 أخص صفات الكفار هو منع الزكاة ، ليحذر المؤمنون من ارتسكابه . وعن قتادة : إن الزكاة
 قنطرة الإسلام . فمن قطعها نجا ، ومن تخلف عنها هلك . قال ابن جرير^(٢) : وقد كان
 أهل الردة ، بعد نبي الله ، قالوا : أما الصلاة فنصلي . وأما الزكاة ، فوالله ! لا نغصب أموالنا .
 قال فقال أبو بكر : والله ! لا أفرق بين شيء جمع الله بينه . والله ! لو منعوني عقلاً مما فرض
 الله ورسوله ، لقاتلناهم عليه « وَهُمْ بِالْآخِرَةِ » أى بإحيائهم بعد مماتهم للمجازاة « هُمْ
 كَافِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى عليهم .
 أو غير منقوص . أو غير منقطع . أو غير محسوب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ
 أَنْدَادًا ، ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[١٠] (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي
 أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ يَلِينِ)

« قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ » أى فى مقدارها .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٢ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٩٣ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وعلمهم بصلة الوصول ، إما لما تلقوه خلفا عن سلف ، فاستفاض بينهم . أو لما سمعوه من الكتب السالفة ، كالتوراة ، فأذهنت بذلك نفوسهم ، حتى صار معبودا لها « وَتَجْعَلُونَ لَهُ وَانْدَادًا » أى أكفاء (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَكُفُوا أَحَدًا) « ذَلِكَ » أى الذى خلق الأرض فى يومين « رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ » أى جبالا ثوابت « مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا » أى أكثر خيرها « وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلشَّيَاطِينِ » أى مستوية بالامتزاج والاعتدال ، للطالبيين للأقوات والمعاش . أى قدرها لهم ، أو لمن سأل عن مبلغ الأجل الذى خلق الله فيه الأرض ، وجعل فيها الرواسى والبركة ، وتقدير الأقوات . فحده ، كما أخبر تعالى ، أنه أربعة أيام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)

« ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ » أى قصد إلى إيجادها . و (ثُمَّ) للتفاوت بين الخلقين فى الإحكام وعدمه ، واختلافهما فى الجهة والجوهر ، لا للتراخى فى الزمان ، إذ لازمان هناك . قاله القاشانى .

وقال ابن جرير^(١) : أى ثم ارتفع إلى السماء ، أى بلاكيميف ولا تمثيل « وَهِيَ دُخَانٌ » قال القاشانى : أى جوهر لطيف بخلاف الجواهر السكثيفة الثقيلة الأرضية . وقال القاضى : (دخان) أمر ظلمانى . ولعله أراد به مادتها . أو الأجزاء المصغرة التى ركبت منها . وأصله للرازى حيث قال : لما خلق تعالى الأجزاء التى لا تنتجزاً ، فقبل أن خلق فيها كيفية الضوء ، كانت مظلمة عديمة النور ، ثم لما ركبها وجعلها سموات وكواكب وشمسا وقراء ، وأحدث صفة

(٢) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

الضوء فيها ، فحينئذ صارت مستنيرة . فثبت أن تلك الأجزاء ، حين قصد الله تعالى أن يخلق منها السموات والشمس والقمر ، كانت مظلمة . فصح تسميتها بالدخان . لأنه لا معنى للدخان إلا أجزاء متفرقة ، غير متواصلة ، عديمة النور . ثم قال : فهذا ما خطر بالبال في تفسير الدخان . والله أعلم بحقيقة الحال . انتهى .

وقال بعض علماء الفلك في تفسير هذه الآية (وَهِيَ دُخَانٌ) : أى ذرات ، أى غازات أى سديم . ثم تجاذبت كما يتجمع السحاب فصارت كتلة واحدة . مصداقا لقوله تعالى (١) (أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا) أى كتلة واحدة . فدارت ثم تقطعت وتفصلت بالقوة الدافعة ، فتكونت الأرض والسموات ، تصديقا لقوله تعالى (فَفَتَقْتَهُمَا) أى فصلناها ، فصارتا كرات من الماء في يومين . أى ألفى سنة . لقوله تعالى (٢) (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) وفي هذا الوقت كان عرشه على الماء . أى كان ملكه وسلطانه على الماء ، والله أعلم . انتهى والله أعلم «فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» قال القاشاني : أى تعلق أمره وإرادته بإيجادهما ، فوجدتا في الحال معا . كالأمر الطمع ، إذا ورد عليه أمر الأمر المطاع لم يلبث في امتثاله . وهو من باب التمثيل . إذ لا قول ثمة . انتهى .

وقال ابن جرير (٣) : أى قال الله جل ثناؤه للسماء والأرض : جيئنا بما خلقت فيكما . أما أنت يا سماء ، فأطعني ما خلقت فيك من الشمس والقمر والنجوم . وأما أنت يا أرض فأخرجي ما خلقت فيك من الأشجار والثمار والنبات . وتشققي عن الأنهار (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) أى جيئنا بما أحدثت فينا من خلقك ، مستجيبين لأمرك ، لانعصى أمرك . انتهى .
يعنى أن إثبات المفاولة مع السماء والأرض من الحجاز . إما بالاستعارة المسكنية ، كما تقول (نطقت

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٠] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٧] .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

الحال) فتجعل الحال كإنسان يتكلم في الدلالة ، ثم يتخيل له النطق الذي هو لازم المشبه به ، وينسب إليه . وإما بالاستعارة التمثيلية بأن شبه فيه حالة السماء والأرض التي بينهما وبين خالقهما ، في إرادة تسكوينهما وإيجادهما ، بحالة أمير ذى جبروت له نفاذ في سلطانه ، وإطاعة من تحت تصرفه من غير تردد . وقدرت غير واحد قول من ذهب إلى أن في الجمادات تميزاً ونطقاً على ظاهر أمثال هذه النصوص . منهم ابن حزم . قال في (الفصل) : وأما قوله تعالى (قَالَتَا أَئِنَّمَا طَائِعِينَ) فقد علمنا بالضرورة والملاحظة أن القول في اللغة التي نزل بها القرآن ، إنما هو دفع آلات الكلام من أنابيب الصدر والحلق والحفك واللسان والشفقتين والأضراس ، بهواء يصل إلى آذان السامع ، فيفهم به مرادات القائل . فإذا لاشك في هذا ، فكل من لا لسان له ولا شفقتين ولا أضراس ولا حنك ولا حلق ، فلا يكون منه القول المعبود منا . هذا مما لا يشك فيه ذو عقل . فإذا هذا هكذا كما قلنا بالعيان ، فكل قول ورد به نصّ ولفظ مخبر به عن ليست هذه صفته ، فإنه ليس هو القول المعبود عندنا . لكنه معنى آخر . فإذا هذا كما ذكرنا ، فبالضرورة صحّ أن معنى قوله تعالى (أَنِينَا طَائِعِينَ) إنما هو على نفاذ حكمه عز وجل فيهما وتصريفه لهما . انتهى .

وكذا الحال في (أُنِينَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا) فإنهما لما نزل - وهما من الجمادات - منزلة العقلاء ، إذا أمرًا وخوطبًا على طريق المسكنية أو التمثيلية ، أثبت لهما ماهو من صفات العقلاء من الطوع والكراهة ترشيحاً . وهما مؤولان بد (طائع وكاره) لأن المصدر لا يقع حالاً بدون ذلك ، ويجوز كونهما مفعولاً مطلقاً . وإنما قال (طَائِعِينَ) بجمع المذكر السالم مع اختصاصه بالعقلاء المذكور . وكان مقتضى الظاهر (طائعات) أو (طائعتين) نظراً إلى الخطاب والإجابة والوصف بالطوع والكراهة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (فَقَضَيْنَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

« فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ » أى أحكمهن بإزالة رخاوة الدخان .
قال المهايى : ولم يجعل لادتها يوما . لأنها ككادة الأرض . فدخلت في يومها « وَأَوْحَىٰ
فِي كُلِّ سَّمَاءٍ أَمْرَهَا » أى ما أمر به فيها ودبره من الملائكة والخلق الذى فيها ، وما لا يعلم
« وَزَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ » فإنها كالسقف المرفوع المزين بمصابيح معلقة به ،
مما يدعو إلى الاستدلال بها على قدرة صانعها وحكمته « وَحِفْظًا » أى من الشياطين أن
تسترق أخبارها « ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَنُوحٍ)

« فَإِنْ أَعْرَضُوا » أى عن هذا الاستدلال ، وعن الإيمان بهذا العزيز الغالب على كل
شئ ، الذى اقتضى علمه ترتيب بعض الأمور « فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ
وَنُوحٍ » لأنكم مثلهما فى العناد ، ومثل عاد فى الاستكبار ، ومثل نوح فى استحباب
العمى على الهدى .

قال ابن جرير^(١) : قد بينا فيما مضى أن معنى الصاعقة كل ما أفسد الشئ وغيره عن
هيئته . وقيل فى هذا الموضع : غنى بها وقعة من الله وعذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ،

قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

[١٥] (فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ،

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ)

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

[١٦] (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِّنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ)

* إِذْ جَاءَهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ « قال الزمخشري : أى أتوهم من كل جانب ، واجتهدوا بهم ، وأعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض كما حكى الله تعالى عن الشيطان ^(١) (لَا يَنْتَهُمُ مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) يعنى لا يمتنعون من كل جهة ، ولا يمتنعون فيهم كل حيلة . وتقول (استدرت بفلان من كل جانب ، فلم يكن لى فيه حيلة) . وحاصله جعل الجهتين كناية عن جميع الجهات ، على ما عرف في مثله . والمراد بآتيانهم من جميع الجهات ، بذل الوسع فى دعوتهم على طريق الكناية . ويحتمل أن المعنى : جاءوهم بالوعظ من جهة الزمن الماضى وما جرى فيه على الكفار ، ومن جهة المستقبل وما سيجرى عليهم . فالمراد بما بين أيديهم الزمن الماضى ، وبما خلفهم المستقبل . ويجوز فيه العكس ، كما ذكر فى آية الكرسى « أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا » أى إرسال رسول « لَأَنْزَلَ مَلَكًا » أى من السماء بما تدعوننا إليه « فَأَنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ » أى من عبادة الله وحده « كَافِرُونَ * فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِفَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً » أى حتى نخاف عذابه ، لو تركنا عبادته ، أو عبدنا معه غيره « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً » أى فيجب أن يحذر عقابه ويتقوا عذابه « وَكَانُوا بِلِقَائِنَا » أى التى هى أقوى الدلائل « يَحْجِدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ » أى لعنواهم بالقوة « رِيحًا صَرْصَرًا » أى شديدة الصوت فى هبوبها « فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ » أى مشؤومات عليهم « لِّنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ » أى فى الآخرة . كما لم ينصروا فى الدنيا .

تنبيه :

قال الرازى : استدلل الأحكاميون من المنجمين بهذه الآية على أن بعض الأيام قد يكون

(١) [٧ / الأعراف / ١٧] .

نحساً وبعضها قد يكون سعدا . لأن النحس يقابله السعد ، والكدر يقابله الصافي . ثم أطال الرازي في الجواب والإيراد . ولا يخفى أن السعد والنحس إنما هو أمر إضافي لا ذاتي . وإلا لكان اليوم الذي يراه المنجمون نحسا ، مشؤوم الطالع على كل ما أشرقت عليه الشمس . وكذا ما يرونه سعدا . والواقع بخلاف ذلك . إذ اليوم النحس عند زيد ، قد يكون سعدا عند بكر . بل الساعة بل الدقيقة . فإين تلك الدعوى ؟ والقرآن أتى على أسلوب العرب البديع . ومن لطائفهم تسمية وقت الشدة والبؤس بالنحس ، ومقابلها بالسعد . فالنحس نحس على صاحبه ، والسعد سعد على صاحبه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَأَمَّا نُمُودٌ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَيعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ أَلْهَيْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« وَأَمَّا نُمُودٌ فَهَدَيْنَهُمْ » أى بيّنا لهم سبيل الحق وطريق الرشد . ونهيناهم أن يتبعوا الضلالة . وأمرناهم أن يقتصوا الهدى « فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَيعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ أَلْهَيْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى من الآثام ، بكفرهم بالله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَنَجِّينَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

« وَنَجِّينَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » أى يخشون ربهم ويخافون وعيده . وذلك بالإيمان به وحده وتصديق رسله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)

« وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » أى يوم يجمع ، لمزيد الفضيحة ،

بين الأولين والآخرين، أعداء الله المشركون والجاحدون، إلى النار فيجسء أولهم على آخرهم،
ليتم إلزام الحجة عليهم بين جميعهم ، فلا يبقى لهم مقال لأنهم لا يزالون يجادلون عن أنفسهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا » أى فبالغوا فى إنكار المخالفة « شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ » أى
بأنهم سمعوا الحجة فاعترضوا عنها ، وسمعوا الشبه فاتبعوها ، وسمعوا الفواحش فاستحسفوها
« وَأَبْصَرُهُمْ » أى بأنهم رأوا الآيات فلم يعتبروها ، ورأوا القبايح فاختاروها « وَجُلُودُهُمْ »
أى بأنهم باشروا المعاصى ، فوصل أثرها إلى القوة اللامسة منهم ، فيشهد كل عضو وجزء
« بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ، قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ
كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ » أى المدركة ألم العذاب الذى لا يدركه السمع والبصر « لِمَ شَهِدْتُمْ
عَلَيْنَا » أى بما يوجب إبلامكم « قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ » أى بهذه الشهادة « الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ »
أى أنطق كل شئ من الحيوان . فهو من العام الذى خصه العقل ، كقوله تعالى (١) « وَاللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى كل شئ من المقدورات . هذا ، على أن النطق على ظاهره وحقيقته .
وقيل المراد ظهور علامات على الأعضاء دالة على ما كانت متلبسة به فى الدنيا ، بتغير أشكالها
ونحوه . مما يلهم الله من رآه أنه صدر عنه ذلك ، لارتفاع الغطاء فى الآخرة . فالنطق مجاز

عن الدلالة . قال القاشانى : معنى (شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ) أى غيرت صور أعضائهم ، وصوّرت أشكالها على هيئة الأعمال التى ارتكبوها ، وبدلت جلودهم وأبشارهم فتنتطق بلسان الحال ، وتدل بالأشكال على ما كانوا يعملون . ولنطقها بهذا اللسان قالت (أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) إذ لا يخلو شيء ما من النطق . ولكن الغافلين لا يفهمون . انتهى . لكن قال الرازى : تفسير هذه الشهادة ، بظهور أمارات مخصوصة على هذه الأعضاء ، دالة على صدور تلك الأعمال منهم ، عدول عن الحقيقة إلى المجاز . والأصل عدمه .

ثم قال : وهذه الآية يحسن التمسك بها فى بيان أن البيئة ليست شرطا للحياة ، ولا شيء من الصفات المشروطة بالحياة . فإله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق فى كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء ، والله أعلم .

تنبيه :

قال الرازى : نقل عن ابن عباس أنه قال : المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج ، وإنه من باب السكنايات كما قال ^(١) (وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا) وأراد النكاح . وقال ^(٢) (أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْفَاسِطِ) والمراد قضاء الحاجة . فتكون الآية وعيدا شديدا فى الزنى . انتهى .

وقد أشار الإمام ابن الأثير فى (المثل السائر) إلى ترجيح هذا المعنى . حيث ذكر هذه الآية فى الترجيح الذى يقع بين معنيين ، يدل عليهما لفظ واحد ، يكون حقيقة فى أحدهما ، مجازا فى الآخر . وعبارته : الجلود ههنا تفسر حقيقة ومجازا . أما الحقيقة فيراد بها الجلود مطلقا ، وأما المجاز فيراد بها الفروج خاصة ، وهذا هو المانع البلاغى الذى يرجح جانب المجاز على الحقيقة ، لما فيه من لطف السكناية عن المسكنى عنه . وقد يسأل ههنا فى الترجيح بين الحقيقة والمجاز ، عن غير الجانب البلاغى .

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٥] . (٢) [٤ / النساء / ٤٣] و [٥ / المائدة / ٦] .

ويقال : ما بيان هذا الترجيح ؟ فيقال : طريقه لفظ الجلود عامّ ، فلا يخلو إما أن يراد به الجلود مطلقاً ، أو يراد به الجوارح التي هي أدوات الأعمال خاصة . ولا يجوز أن يراد به الجلود على الإطلاق ، لأن شهادة غير الجوارح التي هي الفاعلة ، شهادة باطلة . إذ هي شهادة غير شاهد . والشهادة هنا يراد بها الإقرار . فتقول اليد : أنا فعلت كذا وكذا . وتقول الرجل : أنا مشيت إلى كذا وكذا . وكذلك الجوارح الباقية تنطق مقررة بأعمالها . فترجح بهذا أن يكون المراد به شهادة الجوارح . وإذا أريد به الجوارح ، فلا يخلو إما أن يراد به الكل أو البعض . فإن أريد به الكل ، دخل تحته السمع والبصر . ولم يكن لتخصيصهما بالذكر فائدة . وإن أريد به البعض ، فهو بالفرج أخص منه بغيره من الجوارح ، لأمرين : أحدهما - أن الجوارح كلها قد ذكرت في القرآن الكريم شاهدة على صاحبها بالمعصية ما عدا الفرج . فكان حمل الجلد عليه أولى ، ليستكمل ذكر الجميع . الآخر - إنه ليس في الجوارح ما يكره التصريح بذكره إلا الفرج . فكفى عنه بالجلد ، لأنه موضع يكره التصريح فيه بالسمي على حقيقته .

فإن قيل : إن تخصيص السمع والبصر بالذكر ، من باب التفصيل ، كقوله تعالى (١) (فَكَيْفَ يُؤْنَخِلُ وَرُءَاؤُهُ) والنخل والرمان من الفاكهة ، قلت في الجواب : هذا القول عليك لالك . لأن النخل والرمان إنما ذكرا لتفصيل لهما في الشكل أوفى الطعم ، والفضيلة ههنا في ذكر الشهادة ، إنما هي تعظيم لأمر المعصية . وغير السمع والبصر أعظم في المعصية . لأن معصية السمع إنما تكون في سماع غيبة ، أو في سماع صوت مزمار أو وتر ، أو ما جرى هذا المجرى . ومعصية البصر إنما تكون في النظر إلى محرم : وكلتا المعصيتين لاحدّ فيها . وأما المعاصي التي توجد من غير السمع والبصر ، فأعظم . لأن معصية اليد توجب القطع . ومعصية الفرج توجب جلد مائة أو الرجم . وهذا أعظم . فكان ينبغي أن يخص بالذكر

السمع والبصر . وإذا ثبت فساد ما ذهب إليه ، فلم يكن المراد بالجلود إلا الفروج خاصة . انتهى كلام ابن الأثير .

وناقشه ابن أبي الحديد في (الملك الدائر) بما حصله : أن حمل الجلد على الفرج إنما يتعين ، إذا كان بين لفظي الجلد والفرج أو معناهما مناسبة . ولا نجد مناسبة إلا أن يكون لأجل أن الجلد جزء من أجزاء ماهية الفرج ، فمبني عن السكل بالبعض ، وهو بعيد جدا . انتهى .

وأقول : مقصود من أثر عنه إرادة الفروج بالجلود هو إرادة الفرد الأهم والأقوى . وذلك لأن الجلود تصدق على ماحواء الجسم من الأعضاء والعضلات التي تكتسب الجريمة . ولا يخفى أن أهمها بالعناية وأولها بالإرادة هو الفروج . لأن معصيتها تربي على الجميع . وقد عهد في مفسري السلف اقتصارهم في التأويل من العام على فرد الأهم . كقصرهم (سبيل الله) على الجهاد ، مع أن (سبيل الله) يصدق على كل ما فيه خير وقربة ونفع ومعونة ، على الطاعة . إلا أن أهم الجميع هو جهاد الذين يصدون عن الحق . فذكر الجهاد لا ينفي غيره . وهذه فائدة ينبغي أن يحرص على فهمها كل من له عناية بالتفسير . فإنها من فوائده الجليلة . وينحل بها إشكالات ليست بالقليلة ، والله الموفق . وقوله تعالى « وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » إما من تمام كلام الجلود ، أو مستأنف من كلامه تعالى : وعلى كلٍّ ، فهو مقرر لما قبله ، بأن القادر على الخلق أول مرة ، قادر على إنطاق كل شيء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ

وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ)

« وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ »

أى وما كنتم تستترون عند فعلكم الفواحش والمنكرات ، مخافة أو كراهة أن يشهد عليكم ما ذكر . أى ليس استتارهم للخوف مما ذكر ، بل من الناس . فذ (أَنْ يَشْهَدَ) مفعول له ،

بتقدير مضاف . أو من أن يشهد أو عن أن يشهد . أو أنه ضمن معنى الظن ، فهو في محل نصب . وفي الآية تنبيه على أن المؤمن ينبغي أن يتحقق ، أنه لا يمر عليه حال إلا وعليه رقيب ، كما قال أبو نؤاس ^(١) :

إذا ما خلوت الدهر يوما ، فلا تقل خلوت . ولكن قل : على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليك ، يغيب
« وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ » أى ما ظننتم أن الله يعلم
فينطق الجوارح ، ولكن ظننتم أنه لا يعلم كثيرا ، وهو ما علمت خفية . فما استترتم عنها
واجترأتم على المعاصي . وإذا كان (أن يشهد) مفعولا له ، فالمعنى ما استترتم بالحجب ،
لخيفة أن تشهد عليكم الجوارح . فلذا ما استترتم عنها . لكن لأجل ظنكم أن الله لا يعلم
كثيرا ، فلذا سمعتم في الاستتار عن الخلق ، لا عن الخالق ، ولا عما تنطق به الجوارح .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنَّاَصْبَحْتُمْ مِّنَ
الْخٰسِرِينَ)

« وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنَّاَصْبَحْتُمْ مِّنَ الْخٰسِرِينَ » أى أهلككم بالجرأة على
مخالفته فى الدنيا ، ومجادلته فى القيامة « فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الْخٰسِرِينَ » أى لأعمال النجاة
والدرجات فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ، وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِّنَ الْمُعْتَبِينَ)
« فَإِنْ يَصْبِرُوا » أى على النار « فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » أى منزل ومسكن « وَإِنْ
يَسْتَعْتِبُوا » أى يسألوا العتبي وهى الرجعة إلى الذين يحبون « فَمَا هُمْ مِّنَ الْمُعْتَبِينَ » أى
المجاين إليه ، فلا يخفف عنهم العذاب .

(١) انظر الصفحة رقم ٦١٥ من ديوانه (طبعة ١٩٥٣) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَفِيضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءً فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ)
 [٢٦] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوْءُ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ)

« وَفِيضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءً » أى بعثنا لهم نظراء من الشياطين اقترنوا بهم « فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » أى حسنوا لهم أعمالهم كلها ، الحاضرة والمستقبلية . فالطرفان كفاية عن الجميع ، أو ما بين أيديهم من جرائم الدنيا ، وما خلفهم من التكذيب بالمعاد . قال الشهاب : وتفسير أمور الدنيا بما بين أيديهم ، لحضورها عندهم ، كالشيء الذى بين يديك تقلبه كيف تشاء . والآخرة بما خلفهم ، لعدم مشاهدتها ، كالشيء الذى خلفك ، أو لكونها ستلحق بهم . وقد يعكس فيجعل ما بين أيديهم الآخرة لأنها مستقبلية ، وما خلفهم الدنيا لمضيها وتركها ، كما مرّ قريباً .

وقال القاشانى في تفسير الآية : أى قدرنا لهم أخدانا وأقرانا من شياطين الإنس أو الجن ، من الوهم والتخيل ، لتباعدهم من الملأ الأعلى ، ومخالفتهم بالذات للنفوس القدسية والأنوار الملكوتية ، بانغماسهم فى المواد الهيولانية . واحتجابهم بالصفات النفسانية ، وانجذابهم إلى الأهواء البدنية والشهوات الطبيعية . فناسبوا النفوس الأرضية الخبيثة والكدرية المظلمة . وخالفوا الجواهر القدسية . فجعلت الشياطين أقرانهم وحجبوا عن نور الملكوت (فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) أى ما يحضرهم من اللذات البهيمية والسبعية ، والشهوات الطبيعية (وَمَا خَلْفَهُمْ) أى من الآمال والأمانى التى لا يدركونها « وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » أى فى القضاء الإلهى ، بالشقاء الأبدى « فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ » من المكذبين

بأنبيائهم، الضالين المضلين « مِّنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا « أَيْ سَتَرُوا زينة أدلة القرآن عن اتباعهم ، الذين زينوا لهم شبهاتهم الواهية « لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ » أَيْ إذا قرأه ، ولا تصغوا له ، كيلا يؤثر عليكم وعظه « وَأَلْفَوْا فِيهِ » أَيْ ائتوا باللغو عند قراءته ، ليختلط . فلا يمكنه القراءة . والمراد باللغو ما لا أصل له . أو ما لا معنى له « أَعْمَلَكُمْ تَغْلِبُونَ » أَيْ تصدون من أراد استماعه ، عن استماعه ، فلا يسمعه . وإذا لم يسمعه ، ولم يفهمه ، لم يتبعه . فتغلبون بكيدكم هذا حججه ، اننى يغلب بها عقولكم .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أََسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[٢٨] (ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ، لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ، جَزَاءُ مِمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

« فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أََسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ » أَيْ المسك الأبدى . وفى النظم الكريم من البديع ، التجريد . وهو أن يفتزع من أمر ذى صفة ، آخر مثله ، مباغة فيها . لأنها نفسها دار الخلد . ويجعله للظرفية الحقيقية ، تسكف لا داعى له . مع أن المذكور أبلغ . قاله الشهاب « جَزَاءُ مِمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ » أَيْ ينكرون أو يلغون . وذكر الجحود الذى هو سبب اللغو .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا » أى ندوسهما انتقاما منهما « لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ » قال القاشانى : أى حنق المحجوبون واغتاظوا على مَنْ أضلهم من الفريقين ، عند وقوع العذاب . وتغنوا أن يكونوا فى أشد من عذابهم وأسفل من دركاتهم ، لما لقوا من الهوان والم النيران وعذاب الحرمان والخسران ، بسببهم . وأرادوا أن يشفوا صدورهم برؤيتهم فى أسوأ أحوالهم ، وأنزل مراتبهم . كما ترى مَنْ وقع فى البلية ، بسبب رفيق أشار إليه بما أوقعه فيها ، يتحدرّ عليه ويتغيّظ ، ويكاد أن يقع فيه ، مع غيخته ويتحرقق . انتهى .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُعَدُّونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ » أى وحدوه بنفى غيره ، وعرفوه بالإيقان حق معرفته « ثُمَّ اسْتَقَمُوا » أى فى أخلاقهم وعقائدهم وأعمالهم . وذلك بالسلوك فى طريقه تعالى ، والنبات على صراطه ، مخلصين لأعمالهم ، عاملين لوجهه ، غير ملتفتين بها إلى غيره « تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ » أى فى الدنيا ، بإلهامهم . أو عند الموت ، أو حين البعث « أَلَّا تَخَافُوا » أى ما تقدمون عليه بعد مماتكم « وَلَا تَحْزَنُوا » أى على ما خلفتم من دنياكم ، من أهل وولد . فإننا نخلفكم فى ذلك كله . أو من الفرع الأكبر وهوله ، فإنكم آمنون لآية^(١)

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٣] .

(لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) والتزليل يفسر بعضه بعضا .
أوالآيتان في مقامين وبشارتين . وفصله تعالى أوسع ، وجوده أعم وأشمل . قال القاشاني : وإنما
تنزلت الملائكة عليهم للمناسبة الحقيقية بينهم في التوحيد الحقيقي ، والإيمان اليقيني ، والعمل
الثابت على منهاج الحق والاستقامة في الطريقة إليه . غير ناكثين في عزيمة ، ولا منحرفين
عن وجهة ، ولا زائغين في عمل . كما ناسبت نفوس المحجوبين من أهل الرذائل الشياطين ،
بالجواهر المظلمة والأعمال الخبيثة . فتنزلت عليهم . انتهى . وقوله تعالى « وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ
الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » أى في الدنيا ، حال الإيمان بالغيب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى
أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ)

[٣٢] (نَزَّلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ)

« نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » أى أحبائكم في الدارين . للتناسب
بيننا وبينكم . كما أن الشياطين أولياء الكافرين ، لما بينهم من الجنسية والمشاركة في الظلمة
والكدورة . قال ابن كثير : أى تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار : نحن كنا قرناءكم
في الحياة الدنيا . نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله . وكذلك نكون معكم في الآخرة .
نؤنس منكم الوحشة في القبور ، وعند النفخة في الصور . ونؤمنكم يوم البعث والنشور .
ونجاوزكم الصراط المستقيم . ونوصلكم إلى جنات الفعيم . وقال الرازي : معنى كونهم أولياء
للمؤمنين ، أن للملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية ، بالإلهامات والمكاشفات اليقينية .
كما أن للشياطين تأثيرات في الأرواح ، بإلقاء الوسوس فيها ، وتخيل الأباطيل إليها . وبالجملة ،
فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة ، حاصل من جهات كثيرة معلومة ، لأرباب

المكاشفات والمشاهدات . فهم يقولون : كما أن تلك الولاية كانت حاصلة في الدنيا ، فهي تكون باقية في الآخرة . فإن تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال . بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى . وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة . وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس ، والقطرة بالنسبة إلى البحر . والتعلقات الجسمانية هي التي تحول بينها وبين الملائكة . كما قال ﷺ^(١) : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم ، لنظروا إلى ملكوت السموات . فإذا زالت العلائق الجسمانية ، والتدبيرات البدنية ، فقد زال الغطاء والوظء ، فيتصل الأثر بالمؤثر ، والقطرة بالبحر ، والشعلة بالشمس . انتهى .

وهو مشرب صوفي ومنزاع فلسفي ، فيه شية من الرقة « وَلَكُمْ فِيهَا » أى في الآخرة « مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ » أى من الروح والريحان والنعيم المقيم « وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ » أى تتمنون « نَزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ » أى إكراما معداً لكم ، من غفور لذنوبكم ، ورحيم بتفضله وتطوله .

(١) هذا هو نص الحديث ، كما جاء في مسند الإمام أحمد بالصفحة رقم ٣٥٣ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ليلة أمرى بى ، لما انتهينا إلى السماء السابعة فنظرت فوق فإذا أنا برعد وبرق وصواعق . قال ، فأنتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ، ترى من خارج بطونهم . قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا . فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل منى فإذا أنا برهج ودخان وأصوات . فقلت : ماهذا يا جبريل ؟ قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بنى آدم أن لا يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض ، ولولا ذلك لرأوا العجائب :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) «وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» أى لا أحد أحسن مقالا ممن دعا الناس إلى عبادته تعالى، وكان من الصالحين المؤمنين، والمسلمين وجوههم إليه تعالى في التوحيد .

لطائف :

الأولى - قال القاشاني : وإنما قدم الدعوة إلى الحق والتكميل ، لكونه أشرف المراتب ، ولاستلزامه السكال العلمى والعملى . وإلا لما صحت الدعوة . انتهى .
الثانية - فى الآية إشارة إلى ترغيبه ﷺ فى الإعراض عن المشركين ، وعما كانوا يقولونه من اللغو فى التنزيل ، مما قصه تعالى عنهم فيما تقدم . وإرشاده إلى المواظبة على التبليغ ، والدعوة ، ببيان أن ذلك أحسن الطاعات ورأس العبادات . فهذا هو سر انتظام هذه الآية فى إثر ماسبق . وثمة وجه آخر . وهو أن مراتب السعادات اثنان : كامل وأكمل . أما الكامل فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملا فى ذاته . فإذا فرغ من هذه الدرجة ، اشتغل بعدها بتكميل الناقصين . فقوله تعالى (١) «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا» إشارة إلى المرتبة الأولى ، وهى اكتساب الأحوال التى تفيد كمال النفس فى جوهرها . فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة ، وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية ، وهى الانتقال بتكميل الناقصين . وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق . وهو المراد من قوله تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا) الآية .

واعلم أن من آناه الله قريحة قوية ، ونصيبا وافيا من العلوم الإلهية ، عرف أنه لا ترتيب أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن ، أفاده الرازى .

(١) [٤١ / فصلت / ٣٠] . و [٤٦ / الأحقاف / ١٣] .

الثالثة - يدخل في الآية كل من دعا إلى الله تعالى بطريق من الطرق المشروعة ، وسبيل من السبل الماثورة . لأن الدعوة الصحيحة هي الدعوة النبوية . ثم ما انتهج منهجها في الصدع بالحق ، وإشاره على الخلق .

الرابعة - في الآية دليل على وجوب الدعوة إلى الله تعالى - على ما قرره الرازي - لأن الدعوة إلى الله أحسن الأعمال . وكل ما كان أحسن الأعمال ، فهو واجب .

الخامسة - احتج من جوز قول (أنا مسلم) بدون تعليق على المشيئة ، بهذه الآية . وقال : إطلاقها يدل على أن ذلك هو الأولى . والمسألة معروفة بسطها الغزالي في (الإحياء) .

وللإمام ابن حزم في (الفِصَل) تحقيق لطيف لا بأس بإيراده . قال رحمه الله : اختلف الناس في قول المسلم (أنا مؤمن) فروبنا عن ابن مسعود وجماعة من أصحابه الأفاضل ومن بعده من الفقهاء ، أنه كره ذلك . وكان يقول (أنا مؤمن إن شاء الله) وقال بعضهم : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله . وكانوا يقولون : من قال أنا مؤمن ، فليقل إنه من أهل الجنة .

ثم قال ابن حزم : والقول عقدنا في هذه المسئلة ، أن هذه صفة يعلمها المرء من نفسه . فإن كان يدري أنه مصدق بالله عز وجل ، وبمحمد ﷺ وبكل ما أتى به عليه السلام . وأنه يقر بلسانه بكل ذلك ، فواجب عليه أن يعترف بذلك . كما أمر تعالى ، إذ قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) ولا نعمة أو كد ، ولا أفضل ولا أولى بالشكر ، من نعمة الإسلام . فواجب عليه أن يقول (أنا مؤمن مسلم قطاع عند الله تعالى ، في وقتي هذا) ولا فرق بين قوله (أنا مؤمن مسلم) وبين قوله (أنا أسود وأنا أبيض) وهكذا سائر صفاته التي لا يشك فيها . وليس هذا من باب الامتداح والتعجب في شيء . لأنه فرض عليه أن يحصن دمه بشهادة التوحيد . قال تعالى ^(١) (قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ قَبْلِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

(١) [٢ / البقرة / ١٣٦] .

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) وقول ابن مسعود عندنا صحيح . لأن الإسلام والإيمان اسمان منقولان عن موضوعهما في اللغة ، إلى جميع البر والطاعات . فإنما منع ابن مسعود من القول بأنه (مسلم مؤمن) على معنى أنه مستوف لجميع الطاعات . وهذا صحيح . ومن ادعى لنفسه هذا فقد كذب بلا شك . وما منع رضى الله عنه من أن يقول المرء (إني مؤمن) بمعنى مصدق . كيف ؟ وهو يقول (قل آمنت بالله ورسوله) أى صدقت . وأما من قال فقل إنك في الجنة ، فالجواب أننا نقول : إن مبتلى على ما نحن عليه الآن ، فلا بد لنا من الجنة بلا شك . وبرهان ذلك أنه قد صح من نصوص القرآن والسنة والإجماع ، أن من آمن بالله ورسوله ﷺ وبكل ما جاء به ، ولم يأت بما هو كفر ، فإنه في الجنة . إلا أننا لا ندرى ما يفعل بنا في الدنيا ، ولا نأمن من مكر الله تعالى ، ولا إضلاله ، ولا كيد الشيطان . ولا ندرى ماذا نكسب غدا . ونعوذ بالله من الخذلان . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

«وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ» أى لكون الأولى من مقام العقل تَجَرَّ صاحبها إلى الجنة ومصاحبة الملائكة . والثانية من مقام النفس تَجَرَّ صاحبها إلى النار ومقارنة الشياطين «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» أى ادفع السيئة حيث اعترضتك ، بالتي هي أحسن منها ، وهي الحسنة . على أن المراد بالأحسن الزائد مطلقا . أو بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنيات . وإنما عدل عن مقتضى الظاهر وهو (ادْفَعْ بِالْحَسَنَةِ) إلى الأبلغ - لأن من دفع بالأحسن هان عليه الدفع بما دونه . وهذا الكلام أبلغ في الحمل والحث على ما ذكر . لأنه يوصى إلى أنه

مهم ينبغي الاعتناء به والسؤال عنه . قال القاشاني : أى إذا أمكنك دفع السيئة من عدوك بالحسنة ، التى هى أحسن ، فلا تدفعها بالحسنة التى دونها ، فكيف بالسيئة ؟ فإن السيئة لا تندفع بالسيئة ، بل تزيد وتعلو ارتفاع النار بالحطب . فإن قابلتها بمثلها كفت منحطاً إلى مقام النفس ، متبعاً للشيطان ، سالكاً طريق النار ، ملقياً لصاحبك فى الأوزار ، وجاعلاً له ولنفسك من جملة الأشرار ، متسبباً لازدياد الشر ، معرضاً عن الخير . وإن دفعتها بالحسنة ، سكنت شرارته ، وأزات عداوته ، وثبتت فى مقام القلب على الخير ، وهديت إلى الجنة ، وطردت الشيطان ، وأرضيت الرحمن ، وانخرطت فى سلك الملائكة ، ومحوت ذنب صاحبك بالندامة . ثم أشار تعالى إلى علة الأمر وثمرته بقوله « فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ » أى صديق أو قريب « حَمِيمٌ » أى شديد الولاء . وأصل الحميم الماء الشديدة حرارته . كنى به عن الولي المخلص فى وده ، لما يجد فى نفسه من حرارة الحب والشوق والاهتمام نحو مواليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

« وَمَا يُلْقَاهَا » أى هذه الخصلة الشريفة ، والفضيلة العظيمة ، وهى مقابلة الإساءة بالإحسان « إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا » أى على تجميع الشدائد . أو على طاعته تعالى وأمره ، تخلقاً بالعلم والعفو « وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » أى من الخير وكال النفس . ومن الله تعالى بالتخلق بأخلاقه . ومن الثواب وكال العقل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« وَمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » أى وإما

يلقي الشيطان في نفسك وسوسة من حديث النفس، إرادة حملك على مجازاة المسيء بالإساءة، والانتقام منه ، فاستجبر بالله واعتصم من خطواته ، بالرجوع إلى جنبه تعالى ، واللجأ إلى حضرته ، من شره ووسوسته ونزغه . قال ابن كثير: قدمنا أن هذا المقام لانظير له في القرآن إلا في سورة الأعراف وهو قوله تعالى^(١) (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ* وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ « وفي سورة المؤمنون وهو قوله سبحانه^(٢) (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ* وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ* وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ

وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) [سجدة]

« وَمِنْ آيَاتِهِ » أى حججه تعالى على خلقه ، ودلالته على وحدانيته وعظيم سلطانه « اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ » أى اختلافهما ، ومما قبة كل واحد منهما صاحبه « وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » أى نورهما وإشراقهما وتقدير منازلهما ، واختلاف سيرهما في سماءهما ، لبقاء صلاح الكون « لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ » لأنهما مسخران بتسخير خالق قادر عليم، فهما مخلوقان « وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » أى تفردونه بالعبادة . فإن من طاعته أن تخلصوا له العبادة ، ولا تشرکوا في طاعته أحدا . لأنها لا تنبغي لأحد سواه .

تنبيه :

استدل بالآية الشيخ أبو إسحق في (المهذب) على صلاة الكسوف . قال : لأنه لا صلاة تتعلق بالشمس والقمر غيرها . وأخذ من ذلك تفضيلها على صلاة الاستسقاء ، لكونها في القرآن ، بخلافها . كذا في (الإكليل) .

(١) [٧ / الأعراف / ١٩٩ و ٢٠٠] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٩٦-٩٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ)

« فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا » أى عن عبادته كبرا وعتوا « فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ » أى من الملائكة « يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ » أى لا يملون عبادته ، لأنها قرة أعينهم وحياة أنفسهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِينَ أَحْيَاَهَا لَمْ يُحْيِ الْمَوْتَى ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [٤٠] (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ، أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [٤١] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ)

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً » أى ساكنة لا حركة لمشب فيها ولا نبات ولا زرع « فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ » أى اهتزت بالنبات وتحركت بزينة ، وربت بارتفاعه على سطحها ، أى صارت ربوة مرتفعة « إِنَّ الَّذِينَ أَحْيَاهَا » أى هذه الأرض الدارسة ، فأخرج منها النبات ، وجعلها تهتز بالزرع من بعد يسسها « لَمْ يُحْيِ الْمَوْتَى ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * » إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا » أى يميلون عن حججنا وأدلتنا ، ويزيفون عنها تكذيباً لها وجحوداً لها « لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا » أى لإحاطة علمه بهم ، وكونه بالمرصاد لهم ، فسيجزئهم .

تبيينه :

شملت الآية من يضع الكلام في الآيات على غير مواضعه ، كما فسرها ابن عباس . قال في (الإكليل) : ففيها الرد على من تعاطى تفسير القرآن بما لا يدل عليه جوهر اللفظ ، كما يفعله الباطنية والاتحادية والملاحدة وغلاة المتصوفة « أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالَّذِي كُرِيَ » أى بهذا القرآن « لَمَّا جَاءَهُمْ » أى فهم هالكون . فالخبر محذوف . أو الجملة بدل من جملة (إِنَّ الَّذِينَ يُحْذِرُونَ فِيَّ ، أَيْدِينَا) « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ » أى منيع محمى عن التغير والتبديل ، وعن محاكاته بنظير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » أى لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات .

قال القاشاني : لا من جهة الحق فيبطله بما هو أبلغ منه وأشد إحكاما في كونه حقا وصدقا . ولا من جهة الخلق فيبطلونه بالإلحاد في تأويله ، ويغيرونه بالتحريف لكونه ثابتا في اللوح محفوظ من جهة الحق . كما قال (١) (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وفيه تمثيل لتشبيهه بشخص حمى من جميع جهاته . فلا يمكن أعداء الوصول إليه لأنه في حصن حصين من حماية الحق المبين . هذا على أن ما بين يديه وما خلفه ، كناية عن جميع الجهات . كالصباح والمساء كناية عن الزمان كله . أو المعنى : لا يتطرق إليه باطل في كل ما أخبر عنه من الأخبار الماضية والآتية . والماضية ما بين يديه ، والآتية ما خلفه . أو العكس

(١) [١٥ / الحجر / ٩] .

كما مرَّ «تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» قال ابن جرير^(١) : أى هو تنزيل من عند ذى حكمة ، بتدبير عباده وصرفهم فيما فيه مصالحهم ، محمود على نعمه عليهم بأياديه عندهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ)

« مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ » أى ما يقول لك كفار قومك ، إلا مثل ما قال للرسول كفار قومهم ، من الكلمات المؤذية والمطاعن فى الكتب المنزلة . أى فاصبر كما صبروا « إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ » أى لذئوب التائبين إليه من ذنوبهم ، بالصفح عنهم « وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ » أى لمن أصرَّ على كفره وذنوبه ، ومات قبل التوبة منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ، أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » أى بيّنت أدلته وما فيه ، بلسان نعرفه لفهم ما فيه . قال الزمخشري : كانوا لتعنتهم يقولون : هلا نزل القرآن بلغة العجم ؟ فقيل : لو كان كما يقترحون ، لم يتركوا الاعتراض والتعنت وقالوا : لولا فصلت آياته ؟ أى بيّنت وخلصت بلسان نفقه « أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ » الهمزة همزة الإنكار ، يعنى : لأنكروا وقالوا : أفرآن أعجمي ورسول عربي ؟ أو مرسل إليه عربي ؟ والمعنى : إن آيات الله

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

على أى طريقة جاءتهم ، وجدوا فيها متمتتا . لأن القوم غير طالبيين للحق . وإنما يتبعون أهواءهم . انتهى .

قال الشهاب : والأعجمى أصله (أعجم) . ومعناه من لا يفهم كلامه للسكنة أو لغرابة لغته . وزيدت الياء للمبالغة . كما فى أحمري . ويطلق على كلامه مجازا . لكنه اشتهر حتى الحق بالحققة . وأما العجمى فالمسبوب إلى العجم . وهم من عدا العرب . وقد يخص بأهل فارس ولغتهم العجمية أيضا . فبين الأعجمى والعجمى عموم وخصوص وجهى . انتهى « قُلْ هُوَ الَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً » أى : هو للمؤمنين بالغيب هداية تهديهم إلى الحق ، وتبصرهم بالمعرفة . وشفاء يزيل أمراض قلوبهم من الرذائل . كالنفاق والشك . أى تبصرهم بطريق النظر والعمل ، فتعلمهم وتزكهم « وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى » أى لا يسمعون ولا يفهمونه . بل يشتبه عليهم لاستيلاء الغفلة عليهم ، وسد الغشاوات الطبيعية طرق أسماع قلوبهم وأبصارها . فلا ينفذ فيها ولا يتنبهوا بها ولا يتيقظوا « أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ » أى مثلهم فى عدم قبولهم الحق ، واستماعهم له ، مثل من يصيح به من مسافة شاطئة ، لا يسمع من مثلها الصوت ، فلا يسمع النداء . وذلك لبعدهم عن منبع النور الذى يدرك به الحق ويرى . وانهما كهم فى ظلمات الهيولى . قال الشهاب : وجعل النداء من مكان بعيد ، تمثيلا لعدم فهمهم وانتفاعهم بما دُعوا له . يقال : أنت تُنادى من مكان بعيد ، أى لا تفهم ما أقول . وقيل : إنه على حقيقته ، وإنهم يوم القيامة ينادون كذلك ، تفضيحا لهم . القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ

مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ » قال ابن جرير ^(١) : أى فاختلف فى العمل

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٩ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بما فيه الذين أوتوه من اليهود. وقال ابن كثير: أى كذب وأوذى، فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ » وهى العدة بالقيامة وفصل الخصومة حينئذ .
 أى لولا أنه تعالى قدر الجزاء فى الآخرة « لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ » أى بتمجيل العذاب^(١) (بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا)^(٢) (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ)
 « وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ » أى موقع للريب والاضطراب لأنفسهم وأتباعهم، لعمى بصائرهم وتبلد عقولهم . وإلا فالحق أجلى من أن يخفى . وقال ابن كثير : أى وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم ، لما قالوا . بل كانوا شاكِّين فيما قالوه ، غير محققين لشيء كانوا فيه . هكذا وجهه ابن جرير . وهو محتمل . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)
 « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ » أى من عمل بطاعة الله ، فائتمر لأمره وانتهى عما نهاه ، فلنفسه نفعه . لأنه يجازى عليه جزاء الحسن « وَمَنْ أَسَاءَ » أى عمل السيى وعصى « فَعَلَيْهَا » ضره . لأنه جنى على نفسه بذلك ، ما أكسبها سخط الله تعالى والعقاب الأليم « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » أى لا يعاقب أحداً إلا بذنبه ، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ، وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ إَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا إِذْ نَسَّكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ)

(١) [١٨ / الكهف / ٥٨] . (٢) [٥٤ / القمر / ٤٦] .

«إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ» أى لا يعلمها إلا هو . أو المعنى : إذا سئل عنها يقال : الله عالم بها «وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامٍهَا» أى أوعيتها «وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ» أى مقروناً بعلمه . قال الزخشرى : يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله من الخداج والتمام والذكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَئِنَّ شُرَكَاءِى» أى الذين كنتم تشركونهم فى عبادتى «قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ» أى أعلمناك ما منا من يشهد لهم بالشركة ويقرّ بها الآن . فـ (شَهِيدٍ) فاعيل من الشهادة . ونفى الشهادة كناية عن التبرؤ منهم . أو هو منهم إنكار لعبادتها . فيكون كذباً ، كقولهم ^(١) (وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ)

«وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ» أى يعبدون من الأوثان ، فلم تنفعهم ولم تدفع عنهم شيئاً «وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ» أى وأيقنوا يومئذ ما لهم من ملجأ يلاجئون إليه من عذاب الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ)

«لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ» أى لا يعل من مسألته ربه بالخير ، كلال وصحة الجسم «وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ» أى الضرّ فى نفسه من سقم أو جهد فى معيشته «فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ» أى من روح الله ورحمته ، ومن أن يكشف ما نزل به . قال الزخشرى : بولغ فيه من طريقين : من طريق بناء (فعلول) ومن طريق التكرير . والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيقتضاه وينكسر .

(١) [٦ / الأنعام / ٢٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَلَئِنْ أَدْخَلْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ، فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

« وَلَئِنْ أَدْخَلْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَتْهُ » أى بتفريجها عنه « لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي » أى حق نلتها بعملى ، لا بفضل من الله . ججدا للنعيم « وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ » أى للحالة الحسنى من الكرامة . تحصرنا ورجا بالغيب ، وتلاعبا بما شاء الهوى « فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا » أى فلنخبرن هؤلاء المتمنين على الله الأباطيل ، بحقيقة أعمالهم . ولنبصرنهم عكس ما اعتقدوا فيها « وَلَنُذِيقَهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ » وهو تخليدهم فى النار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ)

« وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ » أى إذا كشفنا ما به من ضر ، ورزقناه غنى وصحة وسعة ، أعرض عما دعى إليه من الطاعة ، وتكبر وشخ بأنفه عن الإجابة « وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » أى كثير . يديم تضرعه ، ويستغفر فى الابتهاال أنفاسه . وقد استعير (العرض) لكثرة الدعاء . كما يستعار له (الطول) أيضا . فيقال : أطل فلان الدعاء ، إذا أكثر . وكذلك أعرض دعاءه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُتَمِّمٌ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ » أى القرآن « مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُتَمِّمٌ كَفَرْتُمْ بِهِ » أى من غير نظر واتباع دليل « مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ » أى من أضل منكم . فوضع الموصول موضع الصلة ، شرحا لحالهم وتعليلًا لمزيد ضلالهم . والشقاق الخلاف . لكون المخالف في شق وجانب ممن خالفه . قال الشهاب : الآية رجوع لإلزام الطاعنين والملاحدين . وختم السورة بما يلتفت لفت بدئها ، وهو من الكلام المنصف . وفيه حث على التأمل ، واستدراج للإقرار . مع مافيه من سحر البيان . وحديث الساعة وقع في البين تنميًا للوعيد . وتنبيهًا على ما هم عليه من الضلال البعيد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

« سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ » يعنى وقائع النبى ﷺ بنواحي بلد المشركين من أهل مكة وأطرافها . وظهوره على الناس تصديقًا للوعد « وَفِي أَنْفُسِهِمْ » أى من غلبتهم وقهرهم وكسر شوكتهم . كما وقع في بدر وفتح مكة « حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » أى أن هذا القرآن ، بوعد ووعيده ، هو الحق الثابت ، إذ لا برهان بعد عيان . فقد نصر الله رسوله وصحبه ، وخذل الباطل وحزبه « أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » أى لا يخفى عليه شئ ما ، مما يفعله خلقه ، وهو مجازيهم عليه . ففيه وعد ووعيد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ، أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ)

« أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ » أى فى شك عظيم من البعث بعد المات ،

ومعادهم إلى ربهم « أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ » أى فلا يخرج عن إحاطته شئ .^(١)

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) .

(١) [٦٧ / الملك / ١٤] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٢ - سُورَةُ الشُّورَى

سميت بالشورى ؛ لإشعار آياتها بذلة الدنيا وعزة الآخرة ، وصفات طالبيها ، مع اجتماع قلوبهم بكل حال . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايى : وهى مكية . وقيل إن فيها مدنيا . ومرة مرارا تحقيق ذلك ، وآياتها ثلاث وخمسون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حم)

[٢] (عسق)

« حم * عسق » قد روى بعض المفسرين ها هنا ، فى تفسير (حم * عسق) آثارا واهية جدا لا يعول عليها . بل هى ، كما قال ابن كثير منكرة ، وقد قدمنا أن الصواب أن هذه الحروف ، أوائل السور الكريمة ، أسماء لها . و (حم * عسق) اسمان للسورة ولذلك فصل بينهما ، وعدّآ آيتين . وقيل اسم واحد ، والفصل ليفاسب سائر الحواميم ، فيكون آية واحدة . وهو الوجه عندى لاشتهارها بهما معا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » كلام مستأنف ، وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق لما فى تضاعيف سائر الكتب المنزلة على الرسل المقدمة فى الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق . أو أن إيجاءها مثل إيجائها ، بعد تفويها بذكر اسمها والتنبيه على نخامة شأنها . والسكاف فى حيز النصب على أنه مفعول لـ (يُوحَى) على الأول - وعلى أنه نعت لمصدر مؤكد له ، على الثانى . و (ذَلِكَ) على الأول إشارة إلى ما فيها . وعلى الثانى إلى إيجائها . وما فيه من معنى البعد ، للإيدان بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل . أى مثل ما فى هذه السورة من المعانى ، أوحى إليك فى سائر السور ، وإلى من قبلك من الرسل فى كتبهم . على أن مناط المائلة ما أشير إليه من الدعوة إلى التوحيد والإرشاد

إلى الحق وما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد . أو مثل إيجائها ، أوحى إليك عند إيجاء سائر السور . وإلى سائر الرسل عند إيجاء كتبهم إليهم . لا إيجاء مغاير له . كما في قوله تعالى ^(١) : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ ﴾ الآية . على أن مدار المثلية كونه بواسطة الملك . وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية ، للإيدان باستمرار الوحي ، وأن إيجاء مثله عادته . وفي جعل مضمون السورة أو إيجائها مشبها به ، من تفخيمها مالا يخفى . وكذا في وصفه تعالى بوصفي العزة والحكمة . وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل ، مع ما فيه من التشويق . وقرئ (يوحى) على البناء للمفعول ، على أن (كذلك) مبتدأ (ويوحى) خبره المسند إلى ضميره . أو مصدر و (يوحى) مسند إلى (إليك) . و (الله) مرتفع بما دل عليه (يوحى) كأنه قيل : من يوحى ؟ فقيل : الله . (الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) صفتان له ، أو مبتدأ ، كما في قراءة (نوحى) . والعزير وما بعده خبران له . أو العزيز الحكيم صفتان له . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

« لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » خبران له . وعلى الوجه السابقة ، استئناف مقرر لعزته وحكمته . أفاده أبو السعود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ)

وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ، إِلَّا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[٦] (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ)

بَوَكِيلٍ)

(١) [٤ / النساء / ١٦٣] .

« نَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ » أى يتشققن لتأثرهن من تجليات عظمته ، ويتلاشين من علو قهره وسلطنته ، يدل عليه مجيئه بعد (الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) أو من دعائهم له ولدا ، كما فى سورة مريم « وَالْمَلَكُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ » أى يسألون المغفرة لذنوب من فى الأرض من المؤمنين به « أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » أى شركاء وأندادا « اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ » أى رقيق على أفعالهم يحفظ أعمالهم ليجازيهم بها يوم القيامة « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » أى بموكل لحفظ أعمالهم . وإنما أنت منذر^(١) (فَأَنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)
« وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى » أى أهلها ، وهى مكة « وَمَنْ حَوْلَهَا » أى من العرب وسائر الناس « وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ » أى يوم القيامة الذى تكون فيه الفضيحة أعظم ، لأنه يجمع فيه الخلائق « لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » أى منهم فريق فى الجنة ، وهم الذين آمنوا بالله ، واتبعوا ما جاءهم به رسول الله ﷺ . وفريق فى السعير ، أى النار الموقدة المسعورة على أهلها . وهم الذين كفروا بالله وخالفوا ما جاءهم به رسوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ، وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

(١) [١٣ / الرد / ٤٠] .

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » أى أهل دين واحد وملة واحدة « وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ » أى ولكن لم يفعل ذلك فيجعلهم أمة واحدة ، لمنافة ذلك ما يقتضيه حكمة خلق الإنسان من تنوع أفراده المستلزم اختلاف أمياله ومشاربهم . ولذا شاء ما اقتضاه خلقهم واستعدادهم . فكلفهم وبني أمرهم على ما يختارون . فأدخل من شاء في رحمته وهم المؤمنون ، وفي عذابه ، الكافرين . قال أبو السعود : ولا ريب في أن مشيئته تعالى لكل من الإدخالين ، تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله « وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » أى والكافرون بالله ما لهم من وليّ يتولاهم يوم القيامة ، ولا نصير ينصرهم من عقاب الله فينقذهم من عذابه ، لأنه يدخلهم في قهره . وتوصيفهم بالظالمين ، إشارة إلى عدل المؤمنين في باب الاعتقادات والأخلاق والأعمال والأفعال ، وأنه تعالى يوالىهم وينصرهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَمْ أَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[١٠] (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

« أَمْ أَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » أى يتولونهم . مع أنه لا ولاية لهم في الحقيقة ، إذ لا قدرة ولا قوة « فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ » أى هو الذى يجب أن يتولى وحده ، ويعتقد أنه المولى والسيد دون غيره ، لتوليه سبحانه كل شيء ، وسلطانه وحكمه . والفاء جواب شرط مقدر . كأنه قيل بعد إنكار كل وليّ سواه : إن أرادوا وليا بحق ، فالله هو الولي بالحق ، لا ولي سواه « وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى هو المحيى القادر ،

فكيف تستقيم ولاية غيره. وقوله «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ» إِلَى اللَّهِ ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» تهديد لما يأتى بعد ، من الأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه ، الذى هو وصية الله تعالى لأتباعه ، وشرعته لخلقه . وتنبيه على أن خلاف من خالف من المشركين والكافرين ، إنما مردّه إلى الله تعالى وحكمه وقضائه . وأنه لا دين إلا دينه ، ولا عبادة إلا عبادته ، ولا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ما حرمه . والقصد الرد على مشركى مكة وأمثالهم ، فى تشريعهم ما لم يأذن به الله ، وتحكيمهم اتباع الآباء وأفانين الأهواء . فإن السورة مكية . ومع ذلك ، فتدل الآية على أن ما اختلف فيه المختلفون وتنازعوا فى شيء من الخصومات ، يجب أن يكون التحاكم فيه إلى رسول الله ﷺ ، وأن لا يؤثر على حكومته حكومة غيره . كقوله تعالى ^(١) (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) وتدل أيضا على الرجوع إلى الحكم من كتاب الله ، والظاهر من سنة رسول الله ﷺ ، إذا اختلفوا فى تأويل آية واشتبه عليهم . وعلى تفويض ما لم تصل إلى دركه العقول ، إلى الله تعالى ، بأن يقال : الله أعلم . كفى قوله ^(٢) (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) وقوله «ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبِّي» بتقدير (قل) أو هو حكاية لقوله ﷺ . أى الذى هذه الصفات صفاته ، ربّي لا آلهتكم التى تدعون من دونه ، التى لا تقدر على شيء « عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ » أى فى أمورى كلها « وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » أى أرجع فى المعاد ، أو من الذنوب ، أو فى الأمور المعضلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ، يَذَرُوكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)
« فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ » أى من جنسكم « أَزْوَاجًا »

(١) [٤ / النساء / ٥٩] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٨٥] .

أى نساء «وَمِنَ الْأُنثَمِ أَرْوَاجًا» أى أصنافا مختلفة ، أود كورا وإناتا «يَذَرُوكُمْ فِيهِ»
 أى يكثركم . من (الذرء) وهو البث . يقال : ذرأ الله الخلق ، بثهم كثرهم . وفسر
 بـ (يخلقكم) . وضمير (فِيهِ) للبطن أو الرحم . وقال الزمخشري : أى فى هذا التدبير ،
 وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجا ، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم اتوالد والتناسل .
 والضمير فى (يَذَرُوكُمْ) يرجع إلى المخاطبين والأنعام ، مغلبا فيه المخاطبون العقلاء على
 الغيب مما لا يعقل . فإن قلت : ما معنى يذروكم فى هذا التدبير ؟ وهلا قيل : يذروكم به ؟
 قلت : جعل هذا التدبير كالنفع والمعدن للبث والتكثير . انتهى .

وقيل (فى) مستعارة للسببية «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» قال
 ابن جرير^(١) : فيه وجهان : أحدهما أن يكون معناه : ليس هو كشيء . وأدخل المثل فى الكلام ،
 توكيدا للكلام ، لكونهما بمعنى واحد . والآخر أن يكون معناه : ليس مثله شيء . وتكون
 الكاف هى المدخلة فى الكلام . انتهى .

وبقى ثالث وهو أن المثل بمعنى الصفة . أى ليس كصفته صفة . ورابع - وهو ما عول
 عليه المحققون - أن المراد من (مِثْلِهِ) ذاته . كما فى قولهم : مثلك لا يبتخل ، على قصد المبالغة
 فى نفيه عنه . فإنه إذا نفى عن يناسبه . كان نفيه عنه أولى . ثم سلكت هذه الطريقة فى شأن
 من لا مثل له سبحانه . ووجه المبالغة أن الكناية من باب دعوى الشيء ببيئته . وقد بينت
 الكناية فى الآية بوجه آخر أشار إليه الشُّمْنَى . وهو أنه نفى للشيء بنفى لازمه . لأن نفى
 اللازم يستلزم نفى الملزوم . كما يقال : ليس لأخى زيد أخ . فأخو زيد ملزوم . والأخ لازمه .
 لأنه لا بد لأخى زيد من أخ هو زيد . فنُفِيَ هذا اللازم . والمراد نفى ملزومه . أى ليس لزيد أخ .
 إذ لو كان له أخ لكان لذلك الأخ أخ . هو زيد . فكذا نفى أن يكون لمثل الله مثل . والمراد
 نفى مثله تعالى - إذ لو كان له مثل ، لكان هو تعالى مثل مثله ، لتحقيق المائلة من الجانبيين .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

فلا يصح نفى مثله (أى نفى مثل ذلك المثل) وبالجمله ، فأطلق نفى مثل المثل ، وأريد لازمه من نفى المثل . قال بعض الأفاضل : طالما كنت أجد فى نفسى من هذا شيئاً . وذلك أن محصل هذا أن نفى المثل لازم لحقيقة الآية . وقد تقرر أولاً أنها تقتضى إثباته . ولذا أولوها بالأوجه المذكورة . فكيف يعقل أن إثبات الشيء ونفيه يلزمان معاً لشيء واحد ؟ مع تصريحهم بأن تنافى اللوازم يقتضى تنافى الملزومات . وبفرض صحة أن كلا منهما لازم لها ، فقصرها على هذا دون ذاك تحكم . مع أن القصد إبطال دلالتها على المحال . ولا يكفى فيه قولنا إنه غير مراد كما لا يخفى . ثم ظهر أن إثبات المثل ليس لازماً لحقيقة الآية قطعاً . بل هو محتمل فقط . كما تحتمل نفيه . وإن كان الأول أقرب ، لكن عارضه فى خصوص هذه المادة ، أنه لو كان له مثل الخ . فبطل ذلك الاحتمال من أصله . فالتعميل فى نفى المثل على هذه المقدمة القطعية بخلاف المثال ، فافهم ذلك . وقال العصام : هذا - أى كون الآية من باب الكناية - وجه تلقاه الفحول بالقبول . ورجحوه بأن الكناية أبغ من التصريح . وعدم الزيادة أحق بالترجيح . وفيه بحث ، وهو أن نفى مثل المثل لا يستلزم نفى المثل . لأن الشيء ليس مثل مثله . بل المثل المشارك للشيء فى صفة ، مع كون الشيء أقوى منه فيها وبمنزلة الأصل . والمثل بمنزلة الملحق به المتقارب منه . انتهى .

ورده السيلكوتى فقال : ما قيل إن نفى مثل المثل لا يستلزم نفى المثل لأن مثل الشيء أضعف منه ، فتوهم محض . لأن المائلة هى الشركة فى أخص الصفات والمساواة فى جميع الرجوه مما به المائلة . صرح به فى (شرح العقائد النسفية) انتهى . ومثل هذه اللطائف الأدبية مما تتجلى به أجياد الأفهام . وتتشعب فى أودية بدائعه عيون محاسن الكلام .

تنبيه :

قال السيوطى فى (الإكليل) : فى الآية رد على المشبهة . وأنه تعالى ليس بجوهر ولا بجسم ولا عرض ولا لون ولا حال فى مكان ولا زمان . انتهى .

وكان حقه أن يتم الاستنباط . فكما أن صدر الآية فيه رد على المشبهة ، فكذا تتمتها وهو قوله تعالى (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) رد على المعطلة . ولذا كان أعدل المذاهب مذهب السلف . فإنهم أثبتوا النصوص بالتزويه من غير تعطيل ولا تشبيه . وذلك أن المعطلين لم يفهموا من أسماء الله تعالى وصفاته إلا ما هو اللائق بالخلق . ثم شرعوا في نفي تلك المفاهيم ، فجمعوا بين التمثيل والتعطيل . فتلوا أولاً وعطلوا آخرأ . فهذا تشبيه وتمثيل منهم ، المفهوم من أسمائه وصفاته تعالى ، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم . فطلوا ما يستحقه سبحانه وتعالى من الأسماء والصفات اللائقة به عز وجل . بخلاف سلف الأمة وأجلاء الأئمة . فإنهم يصفون الله سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه وبما وصف به نبيه ﷺ . من غير تحريف ولا تشبيه . قال تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) فرد على المشبهة بنفي التثنية . ورد على المعطلة بقوله (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) قال الحافظ ابن عبد البر : أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة في الكتاب والسنة ، وحملها على الحقيقة لا على المجاز . إلا أنهم لم يكتفوا شيئاً من ذلك . وأما الجهمية والمعتزلة والخوارج ، فكلهم ينكرها ولا يحمل منها شيئاً على الحقيقة . ويزعمون أن من أقر بها مشبهه ، وهم عند من أقر بها نافون للمعبود . انتهى .

قال الذهبي : صدق والله ! فإن من تأول سائر الصفات ، وحمل ما ورد منها على مجاز الكلام ، أداه ذلك السلب إلى تعطيل الرب وأن يشابه الممدوم . كما نقل عن حماد بن زيد أنه قال : مثل الجهمية كقوم قالوا : في دارنا نخلة . قيل : لها سعف ؟ قالوا : لا . قيل لها كرب ؟ قالوا : لا . قيل لها رطب ؟ قالوا : لا . قيل : فلها ساق ؟ قالوا : لا . قيل : فما في داركم نخلة . قلت : كذلك هؤلاء النفاة قالوا إلهنا الله تعالى . وهو لا في زمان ولا في مكان ولا يرى ولا يسمع ، ولا يبصر ولا يتكلم ، ولا يرضى ولا يريد ، ولا ولا . وقالوا : سبحانه المنزه عن الصفات . بل نقول : سبحانه الله العلي العظيم السميع البصير المريد ، الذي كلم موسى تسليماً ، واتخذ إبراهيم خليله ، ويرى في الآخرة ، المتصف بما وصف به نفسه ، ووصفه به

رساله ، المنزه عن سمات المخلوقين وعن جحد الجاحدين . ليس كمثل شئ . وهو السميع البصير .

وقال الذهبي رحمه الله أيضا : مقال متأخرى المتكلمين ، أن الله تعالى ليس في السماء ولا على العرش ولا على السموات ولا في الأرض ولا داخل العالم ولا خارج العالم ولا هو بائن عن خلقه ولا متصل بهم . وقالوا : جميع هذه الأشياء صفات الأجسام والله تعالى منزّه عن الجسم . قال لهم أهل السنة والأثر : نحن لا نخوض في ذلك ونقول ما ذكرناه اتباعا للنصوص ولا نقول بقولكم . فإن هذه السلوب نعوت للمدوم . تعالى الله جل جلاله عن العدم . بل هو موجود متميز عن خلقه ، موصوف بما وصف به نفسه ، من أنه فوق العرش بلا كيف . انتهى .

وقال الإمام ابن تيمية في (الرسالة التدمرية) في القاعدة الأولى : إن الله سبحانه موصوف بالإثبات والنفي . فالإثبات كإخباره بأنه بكل شئ عليم ، وعلى كل شئ قدير ، وأنه سميع بصير ، ونحو ذلك . والنفي كقوله (لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ) وينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال ، إلا إذا تضمن إثباتا . وإلا فجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال . لأن النفي المحض عدم محض . والعدم المحض ليس بشئ . وما ليس بشئ فهو كما قيل ليس بشئ ، فضلا عن أن يكون مدحا أو كالا . ولأن النفي المحض يوصف به المعدوم والمتنع . والمعدوم والمتنع لا يوصف بمدح ولا كمال . فلهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمنا لإثبات مدح ، كقوله ^(١) (اَللّٰهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَاْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ) إلى قوله (وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا) فنفي السنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيام ، فهو مبين لكمال أنه الحي القيوم وكذلك قوله (وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا) أى لا يكرمه ولا يتقله . وذلك مستلزم لكمال قدرته وتامها . بخلاف المخلوق القادر ، إذا كان يقدر على الشئ بنوع كلفة

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٥] .

ومشقة ، فإن هذا نقص في قدرته وعيب في قوته . وكذلك قوله ^(١) (لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) فإن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السموات والأرض . وكذلك قوله ^(٢) (وَأَقْدَمَ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) فإن نفي مس اللغوب ، الذى هو التعب والإعياء ، دل على كمال القدرة ونهاية القوة . بخلاف المخلوق الذى يلحقه من التعب والكلال ما يلحقه . وكذلك قوله ^(٣) (لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) إنما نفي الإدراك الذى هو الإحاطة كما قاله أكثر العلماء ، ولم ينف مجرد الرؤية . لأن المعلوم لا يرى ، وليس فى كونه لا يرى مدح . إذ لو كان كذلك لكان المعلوم ممدوحا . وإنما المدح فى كونه لا يحاط به ، وإن رُئِيَ . كما أنه لا يحاط به وإن علم ، فكما أنه إذا علم لا يحاط به علما ، فكذلك إذا رُئِيَ لا يحاط به رؤية . فكان فى نفي الإدراك من إثبات عظمتة ، ما يكون مدحا وصفة كمال . وكان ذلك دليلا على إثبات الرؤية لعلى نفيها . لكنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة . وهذا هو الحق الذى اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها . وإذا تأملت ذلك وجدت كل نفي لا يستلزم ثبوتا ، هو مما لم يصف الله به نفسه . فالذين لا يصفونه إلا بالسلوب ، لم يثبتوا فى الحقيقة إلهام محمودا ، بل ولا موجودا . وكذلك من شاركهم فى بعض ذلك . كالذين قالوا لا يتكلم أو لا يرى أو ليس فوق العالم أولم يستو على العرش . ويقولون : ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا مابين للعالم ولا بجانب له ، إذ هذه الصفات يمكن أن يوصف بها المعلوم ، وليست هى صفة مستلزمة صفة ثبوت . ولهذا قال محمود بن سبكتكين لمن ادعى ذلك فى الخالق : مِيزْنَا بَيْنَ هَذَا الرَّبِّ الَّذِى ثَبَّتَهُ وَبَيْنَ الْمَعْدُومِ . وكذلك كونه لا يتكلم أولا ينزل ، ليس فى ذلك صفة مدح ولا كمال . بل هذه الصفات فيها تشبيه له بالمنقوصات أو المعلومات . فهذه الصفات منها ما لا يتصف به إلا المعلوم ومنها ما لا يتصف به إلا الجمادات والناقص . فمن قال لاهو مابين للعالم ولا مداخل للعالم ، فهو بمنزلة

(١) [٣٤ / سبأ / ٣] . (٢) [٥٠ / ق / ٣٨] . (٣) [٦ / الأنعام / ١٠٣] .

من قال لاهو قائم بنفسه ولا بغيره ولا قديم ولا محدث ولا متقدم على العالم ولا مقارن له . ومن قال إنه ليس بحى ولا سميع ولا بصير ولا متكلم ، لزمه أن يكون ميتا أصم أعمى أبكم . فإن قال العمى عدم البصر عما من شأنه أن يقبل البصر ، ومالم يقبل البصر كالحائط لا يقال له أعمى ولا بصير ، قيل له هذا اصطلاح اصطلاحتموه . وإلا فما يوصف بعدم الحياة والسمع والبصر والكلام يمكن وصفه بالموت والعمى والخرس والعجمة . وأيضا فكل موجود يقبل الاتصاف بهذه الأمور ونقائضها . فإن الله قادر على جعل الجاد حيا كما جعل عصا موسى حية ابتاعت الجبال والعصى . وأيضا فالذى لا يقبل الاتصاف بهذه الصفات أعظم نقصا مما يقبل الاتصاف بها مع اتصافه بنقائضها . فالجاد الذى لا يوصف بالبصر والاعمى ولا الكلام ولا الخرس ، أعظم نقصا من الحى الأعمى الآخرس . فإن قيل إن البارئ لا يمكن اتصافه بذلك ، كان فى ذلك من وصفه بالنقص أعظم مما إذا وصف بالخرس والعمى والصمم ونحو ذلك . مع أنه إذا جعل غير قابل لها كان تشبيها له بالجاد الذى لا يقبل الاتصاف بواحد منها . وهذا تشبيه بالجمادات لا بالحيوانات . فكيف من قال ذلك على غيره مما يزعم أنه تشبيه بالحى . وأيضا فنفس نقي هذه الصفات نقص ، كما أن إثباتها كمال . فالحياة من حيث هى ، مع قطع النظر عن تعيين الموصوف بها ، صفة كمال . وكذلك العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والعقل ونحو ذلك . وما كان صفة كمال فهو سبحانه أحق أن يتصف به من المخلوقات . فلو لم يتصف به مع اتصاف المخلوق به ، لكان المخلوق أكمل منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ،

إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[١٣] (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

وَمَا وَصَّيْنَا بِهِمْ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِي
إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ

« لَهُ وَمَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى مفاتيح الأرزاق وخزائن الملك والملكوت
« يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أى يوسع رزقه وفضله على من يشاء من خلقه ويغنيه ،
ويقتر على آخرين « إِنَّهُ وَبِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » * شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا
وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ « اعلم أنه تعالى لما عظم وحيه إلى النبي ﷺ بقوله ^(١) (كَذَلِكَ يُوحَى
إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ذكر فى هذه الآية تفصيل ذلك ،
وهو ما شرعه له ولهم من الاتفاق على عبادته وحده لا شريك له كما قال ^(٢) (وَمَا أَرْسَلْنَا
مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِىَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) وفى الحديث ^(٣) :
نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد . معنى : عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ،
وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم . كقوله تعالى ^(٤) (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) .
وتخصيص هؤلاء الخمسة ، وهم أولو العزم عليهم السلام ، بالذكر ، لأنهم أكابر الأنبياء
وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة . ولاسمالة قلوب الكفرة ، لاتفاق الكل
على نبوة بعضهم . وابتدأ بنوح عليه السلام لأنه أول الرسل . والمعنى : شرع لكم من الدين

(١) [٤٢ / الشورى / ٣] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٤٨ - باب واذا ذكر فى الكتاب مريم ،

حديث رقم ١٦١٧ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٤٥ (طبعنا) .

(٤) [٥ / المائدة / ٤٨] .

ما وصى به جميع الأنبياء من عهد نوح عليه السلام إلى زمن نبيينا عليه الصلاة والسلام .
 والتعبير بالتوصية فيهم والوحى له ، للإشارة إلى أن شريعته ﷺ هي الشريعة الكاملة .
 ولذا عبر فيه بـ (الَّذِي) التي هي أصل الموصولات . وإضافه إليه بضمير العظمة ، تخصيصاً له
 ولشريعته بالتشريف وعظم الشأن وكال الاعتناء . وهو السر في تقديمه على ما بعده مع تقدمه
 عليه زماناً « كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ » أى من إخلاص العبادة لله وإفراده
 بالألوهية والبراءة مما سواه من الأوثان « اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ » وهو من صرف
 اختياره إلى ما دعى إليه « وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ » أى يوفق للعمل بطاعته واتباع رسله
 من يقبل إلى طاعته ويتوب من معاصيه . ثم أشار إلى حال أهل الكتاب ، إثر بيان
 حال المشركين ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْ لَا كَلِمَةُ
 سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا
 الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)

« وَمَا تَفَرَّقُوا » أى فى دينهم وصاروا شيعاً « إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ » أى
 الدلائل الصحيحة والبراهين اليقينية على حقية ما لديهم « بَعِيًا بَيْنَهُمْ » أى ظلماً وتعدياً
 وطلباً للرئاسة « وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو تأخير العذاب
 إلى يوم القيامة « لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ » أى باستئصالهم ، لاستيجاب جنائياتهم لذلك « وَإِنَّ
 الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ » وهم أهل مكة الذين من الله عليهم بالكتاب العزيز
 « لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ » أى موقع لاتباعهم فى الشك ، لكثرة ما يبتونه من الوسوس
 الصادة عن سبيل الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَلِذَلِكَ فَادْعُ ، وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ
ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ، اللَّهُ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ،
اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

« فَلِذَلِكَ فَادْعُ » أى فلأجل ما ذكر من التفرق والشك المريب ، فادع الناس كافة
إلى إقامة الدين لمقاومة الباطل ودحره ، وهتك وساوسه « وَاسْتَقِمْ » أى على الدعوة إليه
والصدع به « كَمَا أُمِرْتَ » أى أوحى إليك « وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ » وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ
اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ » أى : أى كتاب كان ، لا كالذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض . وفيه
تحقيق للحق ، وبيان لاتفاق الكتب فى الأصول ، وتأليف لقلوب أهل الكتابين ،
وتعريض بهم . أفاده أبو السعود « وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ » أى لأسوى بينكم فى دعوة
واحدة كما قال تعالى ^(١) (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ
إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا) الآية . ثم أشار إلى أن ما وراء الأمر المذكور والتبليغ به
من الحساب ، فهو إليه تعالى . فقال « اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ
لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » أى لاختصومة ولا محاجة بعد هذا . لأن الحق قد ظهر . ولم يبق
للمحاجة حاجة ، ولا للمخالفة محل سوى المكابرة . والحجة فى الأصل مصدر بمعنى الاحتجاج .
كما ذكره الراغب . وتكون بمعنى الدليل . والمراد هو الأول دون الثانى . وهو ظاهر
« اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا » أى يوم القيامة ، فيقضى بالحق فيما اختلفنا فيه « وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ »
أى المعاد والمرجع للجزاء .

(١) [٣ / آل عمران / ٦٤] .

تنبيهان :

الأول - تفسير العدل بما ذكرناه، لأنه الذى يقتضيه سياق الكلام لاسيما والسورة مكية. ولم يكن مظهره صلوات الله عليه بها فصل الخصومات والقضاء فى الحكومات. نعم من ذهب إلى ذلك فإنما وقف مع عمومها . ومنه قول قتادة : أمر النبي ﷺ أن يعدل حتى مات . والعدل ميزان الله فى الأرض . به يأخذ للمظلوم من الظالم . وللضعيف من الشديد . وبالعدل يصدق الله الصادق ويكذب الكاذب . وبالعدل رد الممتدى ويوبخه .

الثانى - قال ابن كثير: اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلة. كل منها منفصلة عن التى قبلها. حكم برأسها. قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي. فإنها أيضا عشرة فصول كهذه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا أُسْتُجِيبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

« وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ » أى يخاصمون فى دينه الذى ابتعث به خاتم أنبيائه ، وهم الذين أوردوا الكتاب، المذكورون قبل ، ليصدوا عن الهدى طمعاً فى عود الجاهية « مِنْ بَعْدِ مَا أُسْتُجِيبَ لَهُمْ » أى استجاب له الناس. أى بالاستسلام والانقياد لدينه حسبما قادم إليه العقل السليم والنظر الصحيح وسيرة الداعى وهديه وحسن دعوته وتصديق الكتب المنزلة له وسلامة الفطرة « حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ » أى زائلة لأنها فى باطل . والباطل لا بقاء له مع قوة الحق « عِنْدَ رَبِّهِمْ » أى فى حكمه وقضائه وتقديره. قال أبو السعود: وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة، مجازاة معهم على زعمهم الباطل « وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ » أى عظيم، لمكابرتهم الحق بعد ظهوره « وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » وهو عذاب النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ)

« اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ » أى متلبساً به فى أحكامه وأخباره « وَالْمِيزَانَ » أى وأنزل الميزان وهو العدل الذى يوزن به الحقوق ويسوى به الخلاف « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ » قال أبو السعود : أى شئ قريب . أو قريب مجيئها . أو الساعة بمعنى البعث . والمعنى أنها على جناح الإتيان . فاتبع الكتاب واعمل به وواظب على العدل قبل أن يفاжئك اليوم الذى توزن فيه الأعمال ويوفى جزاؤها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ، أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

« يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا » أى خائفون منها . قال ابن جرير^(١) : لأنهم لا يدرون ما الله فاعل بهم فيها « وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ » أى المتحقق وجوده لا محالة « أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ » أى لإنكارهم عدل الله وحكمته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)

[٢٠] (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

«اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ» أى يُلطف بهم فى تدبير إِبصال ما يفتقرون من خير الدين والدنيا «يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ* مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ وَفِي حَرْثِهِ» وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ وَفِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ». قال الزمخشري : سمي ما يعمله العامل مما يبتغى به انفاذة والزكاء ، حرثاً على المجاز - أى بتشبيهه بالزراع من حيث أنه فائدة تحصل بعمل الدنيا . ولذلك قيل (الدنيا مزرعة الآخرة) و الفرق بين عملي العاملين بأن من عمل للآخرة ، وفق في عمله وضوعفت حسناته . ومن كان عمله للدنيا أعطى شيئاً منها ، لا ما يريده و يبتغيه ، وهو رزقه الذى قسم له وفرغ منه ، وما له نصيب قط في الآخرة . ولم يذكر فى معنى عامل الآخرة وله فى الدنيا نصيب على أن رزقه المقسوم له ، واصل إليه لا محالة - للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدد من زكاء عمله وفوزه فى المآب . انتهى . وهذه الآية كآية^(١) (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ) الخ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ، وَلَوْلَا

كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢٢] (تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ، لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ،

ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)

[٢٣] (ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ،

قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ، وَمَنْ يَقْتَرِفْ

حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ)

«أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَالَهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ» (أَمْ) منقطعة، فيها معنى (بل والهمزة) ولا بد من سبق كلام ، خبراً أو إنشاء ، يضرب عنه ويقرر ما بعده . وما سبق قوله ^(١) (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوْحًا) الخ فهو معطوف عليه ، وما بينهما من تنمة الأول . والمراد بشركائهم ، إما شياطينهم لأنهم شاركوهم في الكفر وحلّوهم عليه . وإما أوثانهم . وإضافتها إليهم لأنهم متخذوها شركاء وإن لم تكن كذلك في الحقيقة . وعلى الثاني ، فإسناد الشرع إليها ، لأنها سبب ضلالهم وافتقارهم بما تدبّروا به . أو لأنها على صورة المشرّع الذى سنّ هذا الضلال لهم . ويجوز كون الاستفهام المقدّر حينئذٍ للإنكار . أى ليس لهم شرع ولا شارع . كما فى قوله ^(٢) (أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا) «وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ» أى القضاء السابق بأن الجزاء فى القيامة لا فى الدنيا . أو لولا ما وعدهم الله به من أنه يفصل بينهم ويبين فى الآخرة . فالفصل بمعنى البيان «لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ» أى لفرغ من الحكم بين الكافرين والمؤمنين ، بتعجيل العذاب للكافرين «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» * تَرَى الظَّالِمِينَ «أى يوم البعث «مُشْفِقِينَ مِّمَّا كَسَبُوا» أى من السيئات «وَهُوَ وَاَقِعٌ بِهِمْ» أى نازل بهم لاحالة «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» * ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا» أى لأسألكم على دعايتكم إلى ما أدعوكم إليه من الحق الذى جئتكم به، والنصيحة التى أنصحكم ، ثواباً وجزاء وعوضاً من أموالكم تعطونيها «إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ» أى أن تودونى فى القرابة التى بينى وبينكم ، وتصلوا الرحم التى بيننا . ولا يكن غيركم ، يامعشر قريش، أولى بحفظى ونصرتى ومودتى منكم .

قال الشهاب : المودة مصدر مقدر بـ (أن والفعل) . والقربى مصدر كالقرابة . و (فى)

(١) [٤٢ / الشورى / ١٣] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٤٣] .

للسببية . وهى بمعنى اللام لتقارب السبب والعلّة . والخطاب ، إما لقريش أو لجميع العرب ، لأنهم أقرباء فى الجملة . انتهى . والاستثناء منقطع . ومعناه نفى الأجر أصلاً . لأن ثمرة مودتهم عائدة إليهم ، لكونها سبب نجاتهم . فلا تصلح أن تكون أجراً له . وقيل : المعنى أن تودوا قرابتى الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم . وقيل (اَلْقُرْبَى) التقرب إلى الله تعالى . أى إلا أن تموددوا إلى الله فيما يقربكم إليه . والمعنى الأول هو الذى عول عليه الأئمة . ولم يرتض ابن عباس رضى الله عنه ، غيره . فى البخارى^(١) عنه ، رضى الله عنه ؛ أنه سئل عن قوله تعالى (إِلَّا أَلْمُودَّةَ فِي الْقُرْبَى) فقال سميد بن جبير : القربى آل محمد . فقال ابن عباس : عجبت . إن النبى ﷺ ، لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة . فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة .

قال ابن كثير : انفرد به البخارى - أى عن مسلم - ورواه الإمام أحمد . وهكذا روى الشعبي والضحاك وعلى بن أبى طلحة والعوفى ويوسف بن مهران وغير واحد عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، مثله . وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وأبو مالك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم . وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى عن ابن عباس قال : قال لهم رسول الله ﷺ : لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودونى فى نفسى ، لقرابتى منكم ، وتحفظوا القرابة التى بينى وبينكم . وروى الإمام أحمد^(٢) عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : لا أسألكم على ما أتيتكم به من البينات والهدى أجراً ، إلا أن تودوا الله تعالى ، وأن تقرّبوا إليه بطاعته . وهكذا روى عن قتادة والحسن البصرى مثله . وأما رواية أنها نزلت بالمدينة فيمن فآخر

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤٢ - سورة الشورى ، ١٠ - باب

قوله إِلَّا أَلْمُودَّةَ فِي الْقُرْبَى ، حديث رقم ١٦٤٣ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٦٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

والحديث رقم ٢٤١٥ (طبعة المعارف) .

العباس من الأنصار ، فإسناده ضعيف . على أن السورة مكية . وليس يظهر بين الآية وتلك الرواية في هذا السياق مناسبة . وكذا ما رواه ابن أبي حاتم أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله ! من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم ؟ قال : فاطمة وولدها رضى الله عنهم ، فإن في إسناده مبهما لا يعرف ، عن شيخ شيعى ، وهو حسين الأشقر ، فلا يقبل خبره في هذا المحل وذكر نزول الآية في المدينة بعيد . فإنها مكية . ولم يكن إذ ذاك لفاطمة رضى الله عنها أولاد بالسكينة . فإنها لم تتزوج بعلى رضى الله عنه إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة . والحق تفسير هذه الآية بما فسرهما به خبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، كما رواه عنه البخارى . ولا ننكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم . فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخرا وحسبا ونسبا . ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة . كما كان عليه سلفهم ، كالعباس وبنيه وعلى وأهل بيته وذريته رضى الله عنهم أجمعين وقد ثبت في الصحيح ^(١) أن رسول الله ﷺ قال في خطبته : إني تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله وعترتى . وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض . وروى الإمام أحمد ^(٢) عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ! إن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضا لقوهم ببشر حسن . وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها . قال فغضب النبي ﷺ غضبا شديدا وقال : والذي نفسى بيده ! لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم الله ورسوله . هذا ملخص ما أورده ابن كثير رحمه الله تعالى ، وسبقه في الإيساع في ذلك تقى الدين ابن تيمية في (منهاج السنة) من أوجه عديدة . قال في الوجه الثالث : إن هذه الآية في سورة الشورى . وهى مكية باتفاق أهل السنة .

(١) أخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٠٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

والحديث رقم ١٧٧٢ (طبعة المعارف) .

بل جميع آل حم مكيات . وكذلك آل طس . ومن المعلوم أن علياً إنما تزوج فاطمة بالمدينة بعد غزوة بدر . والحسن ولد في السنة الثالثة من الهجرة . والحسين في السنة الرابعة فتكون هذه الآية قد نزلت قبل وجود الحسن والحسين بسنين متعددة . فكيف يفسر النبي ﷺ الآية بوجود مودة قرابة لا تعرف ولم تخلق .

ثم قال : الوجه الرابع - إن تفسير الآية الذي في الصحيحين عن ابن عباس يناقض ذلك . فهذا ابن عباس ترجمان القرآن وأعلم أهل البيت ، بعد علي ، يقول : ليس معناها مودة ذوى القربى . ولكن معناها لا أسألكم بامعشر العرب وبامعشر قريش عليه أجرا . لكن أسألكم أن تصلوا القرابة التي بيني وبينكم . فهو سأل الناس الذين أرسل إليهم أولاً ، أن يصلوا رحمه فلا يمتدوا عليه حتى يبلغ رسالة ربه . الوجه الخامس - أنه قال : (لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) لم يقل إلا المودة للقربى ولا المودة لذوى القربى . فلو أراد المودة لذوى القربى لقال المودة لذوى القربى كما قال ^(١) (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى) وقال ^(٢) (مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى) وكذلك قوله ^(٣) (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ) وقوله ^(٤) (وَآتِ الْأَمْوَالَ عَلَى حُبِّهِ) ذَوَى الْقُرْبَى) وهكذا في غير موضع . فجميع ما في القرآن من التوصية بحقوق ذوى قربي النبي ﷺ ، وذوى قربي الإنسان ، إنما قيل فيها (ذوى القربى) . لم يقل (في القربى) . فلما ذكر هنا المصدر دون الاسم ، دل على أنه لم يرد (ذوى القربى) . الوجه السادس - أنه لو أريد المودة لهم لقال : المودة لذوى القربى ، ولم يقل في القربى . فإنه لا يقول من طلب المودة لغيره : أسألك المودة في فلان ، ولا في قربي فلان . ولكن أسألك المودة لفلان ، والمحبة لفلان . فلما قال المودة في القربى ، علم أنه ليس المراد لذوى القربى .

(١) [٨ / الأنفال / ٤١] . (٢) [٥٩ / الحشر / ٧] .
(٣) [١٧ / الإسراء / ٢٦] . (٤) [٢ / البقرة / ١٧٧] .

الوجه السابع - أن يقال إن النبي ﷺ لا يسأل على تبليغ رسالة ربه أجرا البتة . بل أجره على الله كما قال (١) (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) وقوله (٢) (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ) وقوله (٣) (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ) ولكن الاستثناء هنا منقطع ، كما قال (٤) (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا) ولا ريب أن محبة أهل بيت النبي ﷺ واجبة . لكن لم يثبت وجوبها بهذه الآية ، ولا محبتهم أجر للنبي ﷺ . بل هو مما أمرنا الله به كما أمرنا بسائر العبادات . وفي الصحيح (٥) عنه أنه خطب أصحابه بغدير يدعى (خا) بين مكة والمدينة فقال (أذكركم الله في أهل بيتي) وفي السنن (٦) عنه أنه قال (والذي نفسى بيده ! لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرايتي) فمن جعل محبة أهل بيته أجرا له يوفيه إياه ، فقد أخطأ خطأ عظيما . ولو كان أجرا له لم نُنَبِّ عليه نحن ، لأننا أعطيناه أجره الذي يستحقه بالرسالة . فهل يقول مسلم مثل هذا ؟؟؟

الوجه الثامن - إن (القربى) معرفة باللام . فلا بد أن يكون معروفا عند المخاطبين الذين أمر أن يقول لهم (لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا) وقد ذكر أنها لما نزلت ، لم يكن قد خلق الحسن والحسين ، ولا تزوج عليؑ بفاطمة . فالقربى التي كان المخاطبون يعرفونها ، يتمتع أن تكون هذه . بخلاف القربى التي بينه وبينهم ، فإنها معروفة عندهم ، كما تقول (لا أسألك إلا المودة في الرحم التي بيننا) وكما تقول (لا أسألك إلا العدل بيننا وبينكم) (ولا أسألك إلا أن

(١) [٣٨ / ص / ٨٦] . (٢) [٥٢ / الطور / ٤٠] و [٦٨ / القلم / ٤٦] .

(٣) [٣٤ / سبأ / ٤٧] . (٤) [٢٥ / الفرقان / ٥٧] .

(٥) أخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .

(٦) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٢٠٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

والحديث رقم ١٧٧٧ (طبعة المعارف) .

تتق الله في هذا الأمر) . انتهى « وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً » أى يكتسب طاعة « نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا » أى بمضاعفته « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ » أى لمن تاب وأتاب « شَكُورٌ » لسعيهم بتضعيف جزاء حسناته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يُخَيِّمَ عَلَىٰ قَلْبِكَ ، وَيَخْتَمُ اللَّهُ الْأَبْطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)
« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى بدعوى النبوة والوحى « فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يُخَيِّمَ عَلَىٰ قَلْبِكَ » قال ابن كثير : أى : لو افترت عليه كذبا كما يزعم هؤلاء الجاهلون ، يختم على قلبك . أى : يطبع على قلبك ويسلبك ما كان آتاك من القرآن . كقوله (١) جل جلاله (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَا خَدَاةَ لَهُ * بِالْإِيمَانِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) أى لا تقمنا منه أشد الانتقام ، وما قدرا أحدا من الناس أن يحجز عنه . انتهى .

وهذا تفسير بالأشياء والنظائر من الآيات ، يؤثره كثير من الأمة ، ما وجد إليه سبيلا . فإن التنزيل يفسر بعضه بعضا . ومآل الآية على هذا المعنى ، كما أوضحه أبو السمود ، هو الاستشهاد على بطلان ما قالوا ، ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله تعالى ، لمنعه من ذلك قطعا ، نختم على قلبه بحيث لم يخطر بباله معنى من معانيه ، ولم ينطق بحرف من حروفه . وحيث لم يكن الأمر كذلك ، بل تواتر الوحى حيننا فحيننا ، تبين أنه من عند الله تعالى .

وقال الزمخشري : فإن يشاء الله يجعلك من المحتوم على قلوبهم ، حتى تفترى عليه الكذب . فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله ، إلا من كان فى مثل حالهم . وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله ، وإنه فى البعد مثل الشرك بالله والدخول فى الجملة المحتوم على

قلوبهم . ومثل هذا أن يخون بعض الأمناء فيقول : لعل الله خذلنى . لعل الله أعمى قلبى . وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب . وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله ، والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم . انتهى .

قال الشهاب : فعناه ؛ إن يشأ الله يختم على قلبك كما فعل بهم . فهو تسليية له صلوات الله عليه ، وتذكير لإحسانه إليه وإكرامه ، ليشكر ربه ويترحم على من ختم على قلبه ، فاستحق غضب ربه ، ولولا ذلك ما اجترأ على نسبته لما ذكر . ولذا أتى (بأن) فى موضع (لو) إرخاء للعنان ، وتلميحا للبرهان . على أنه لا يتصور وصفه بما ذكره . فالتفريع بالنظر للمعنى المكنى عنه . وحاصله أنهم اجترؤوا على هذا الحال ، لأنهم مطبوعون على الضلال . انتهى « وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » استئناف مقرر لنفى الافتراء عما يقوله عليه الصلاة والسلام ، بأنه لو كان مفترى لحقه . إذ من سنته تعالى محو الباطل وإثبات الحق بوحيه . فليس (يمح) مجزوما بالعطف على الجزاء ، بل معطوف على مجموع الجملة والكلام السابق . ولذا أعيد لفظ الجلالة ورفع (يحق) . قال الرغزى : ويجوز أن يكون عدة لرسول الله ﷺ ، بأنه يمحو الباطل الذى هم عليه من البهت والتكذيب ، ويثبت الحق الذى أنت عليه بالقرآن ، وبقضائه الذى لا مرد له من نصرتك عليهم . إن الله عليم بما فى صدوركم وصدورهم ، فيجبرى الأمر على حسب ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » أى يقبل رجوعه إذا راجع توحيد الله وطاعته ، من بعد كفره « وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ » أى معاصيه التى تاب منها « وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » أى من خير أو شر ، وهو مجازيكم عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ ،
وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

[٢٧] (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ
بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ، إِنَّهُ وَبِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ)

«وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أى يستجيب لهم . تخفف اللام كالحذف
فى قوله تعالى ^(١) (وَإِذَا كَانُوا عَلَى أَثَرٍ طَاعْتِهِمْ عَلَى طَاعَتِهِمْ «وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ» أى
على ثوابهم ، منةً منه وطولاً «وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ
لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ» أى تجاوزوا الحد الذى حدّه لهم إلى غيره ، بركونهم ما حظه
عليهم . لأن الغنى مبطّرة مآثرة ^(٢) (كَثَلَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَمِطْغَى * أَنْ رَّأَاهُ اسْتَفْغَى)
«وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ» أى ولكن ينزل من رزقه ما يشاءه بقدر ، لكفايتهم
«إِنَّهُ وَبِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ» قال الزمخشري : أى يعرف ما يؤول إليه أحوالهم ،
فيقدر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم ، فيفقر ويغنى ، ويعنع ويعطى ، ويقبض
ويسط ، كما توجبه الحكمة الربانية . ولو أغناهم جميعاً لبغوا ، ولو أفقرهم لهلكوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِّنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ، وَهُوَ
الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ)

«وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِّنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ» أى بركات الغيث

(١) [٨٣ / المطففين / ٣] . (٢) [٩٦ / العلق / ٧٦] .

ومنافعه وآثاره من الخصب والرخاء «وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ» أى الذى يتولى الخلق بإحسانه ،
والحمود على أياديه عندهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ،
وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ)

« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ »
أى حشرهم يوم القيامة « إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ » أى متمكن منه ، لا يتعذر عليه وإن تفرقت أوصالهم .

تنبيه :

ذهب بعض الباحثين فى آيات القرآن الفلكية والعوالم العلوية إلى معنى آخر فى هذه
الآية . وعبارته : يفهم من هذه الآية أن الله تعالى خلق فى السموات دواب ، ويستدل
من قوله تعالى ^(١) (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)
أن هذه الدواب ليست ملائكة كما قال المفسرون ، بل حيوانات كحيوانات الأرض .
ولا يبعد أن يكون بينهم حيوان عاقل كالإنسان ، ويلزم لحياة تلك الحيوانات أن يكون
فى السموات نباتات وأشجار وبحار وأنهار كما تحقق فى هذا العصر لدى علماء الرصد .

ثم قال : لعمري ، إن هذه الآية التى نزلت على محمد ﷺ قبل ألف وثلاثمائة وعشرين سنة ،
لآية لأهل هذا العصر وأية آية ، آية لأهل العلم والفلسفة الذين يبذلون الأموال والأرواح
بلا حدة ولا حساب ، ليتوصلوا إلى معرفة سر من أسرار الكائنات . ومع هذا الجهد العنيف
والجهد المتواصل منذ ثلاثمائة سنة ، لم يتوصلوا إلا بالظن إلى ما أنبأت به هذه الآية .

(١) [٢٤ / النور / ٤٥] .

وجل ما توصلوا إليه بالبرهان العقليّ ، إن الأرض أصغر من الشمس وأنها تدور حولها . وإن الكواكب السيارات كريات . وأن النجوم الثوابت شموس ، ولها سيارات تدور حولها . ولما ثبت لديهم جميعا وجود الماء والهواء ، وحصول الصيف والشتاء في هذه السيارات ، ظنوا أنه يوجد فيها عالم كعالم الأرض . وبدأ البعض منهم يفكرون بإيجاد الوسائل للمخبرة بالكهربائية مع سكان المريخ الذي هو أقرب السيارات إلينا . وليس ذلك بالمستحيل فَنَّا . ويستدل على إمكانيته من آخر الآية نفسها وهو قوله تعالى (وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) فلا يبعد أن يتخابرا ويجتمعوا فكريا ، إذا لم يجتمعا جسما . فلينظر الفلكيون إلى ما حوته هذه الآية المكنوزة في القرآن . وليعلم المعجبون منا بالعلوم العصرية ، الضاربون صفحا عن العلوم الإسلامية ، ما في كتاب الله من الحكمة والبيان .

وقال أيضا : لا يخفى أن القرآن العظيم نزل لبيان الحق وتعليم الدين، أولا وبالذات . لكن، تهيدا لهذه السبيل، أتى بشذرات من العلوم الفلكية والطبيعية ، وصرف بصائر الناس إلى التفكير في خلق السموات والأرض ، وما هن عليه من الإبداع . فوجه أبصارهم إلى التأمل في خلق الإنسان وما هو عليه من التركيب العجيب ، إلى غير ذلك من الأمور الفلكية والطبيعية في أكثر من ثلاثمائة آية . فلفسروا رحمهم الله ، لما فسروا هذه الآيات، شرحوا معانيها على مقدار محيط علمهم بالعلوم الفلكية والطبيعية . ولا يخفى ما كانت عليه هذه الآلات في زمنهم من النقصان . لا سيما علم الفلك . فهم معذرون إذا لم يفهموا معاني هذه الآيات التي تحير عقول فلاسفة هذا العصر ، المتضلعين بالعلوم العقلية . لذلك لم يفسروا هذه الآيات حق تفسيرها ، بل أولوها وصرفوا معانيها عن الحقيقة إلى المجاز أو الكناية . انتهى كلامه . وقال عالم فلكي أيضا : يقول العلماء إنه من المحقق أن هذه السيارات مسكونة بحيوانات تشبه الحيوانات التي على أرضنا هذه ، ويكون كل كوكب منها أرضا بالنسبة لحيواناته . وباقي الكواكب سماوات بالنسبة لها .

قال : والظاهر أن القول بوجود الحيوانات في هذه الكواكب صحيح . لأن الله تعالى يقول في كتابه ^(١) (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) ويقول ^(٢) (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ) «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» أى فبسبب معاصيكم وما اجترتم من الآثام . «وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» أى من الذنوب فلا يعاقب عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) .

«وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ» أى بمعجزين ربكم إن أراد عقوبتكم ، لأنكم في قبضة تصرفه «وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» أى إذا أراد عذابكم فاتقوه واخشوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ) [٣٣] (إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَمَنَّ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

«وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ» أى السفن الجارية «فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ» أى الجبال

(١) [٤٢ / الشورى / ٢٩] . (٢) [٥٥ / الرحمن / ٢٩] .

« إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلِلَنَّ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ » أى فيمبقين ثوابت على ظهر البحر « إِنْ فِي ذَلِكَ » أى فى جرى هذه الجوارى فى البحر ، بتسخير الله تعالى الريح لجربها « لَأَبْلُتِ » أى لعبرة وعظة وحجة بينة على القدرة الأزلية « لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » أى لكل مؤمن . وإنما آثر وصفيه المذكورين ، تذكيراً بما ينبغى أن يكون المؤمن عليه من وفرة الصبر وكثرة الشكر . إذ لا يكمل الإيمان بدونهما (والإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (أَوْ يُوقِنَنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ)

[٣٥] (وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ)

« أَوْ يُوقِنَنَّ » أى أو يهلكهن بالفارق « بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ » وقوله تعالى « وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ » عطف على علة مقدرة مثل لينقم منهم (وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ) أى يخاصمون الرسول فى آياته على توحيده أنهم ما لهم من محيد عن عذابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَمَا أَوْتَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى

لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[٣٧] (وَالَّذِينَ يَخْتَدِفُونَ كِبَارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ)

[٣٨] (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

«فَمَا أَوْتَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ» أى مما زين للناس حبه من الشهوات «فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» أى فهو متاع لكم ، تتمتعون به فى الدنيا . وليس من الآخرة «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ» أى من ثوابه الأخرى «خَيْرٌ وَأَبْقَى» وذلك لخصوصه عن الشوائب ودوامه «لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» أى فى أمورهم وقيامهم بأسبابهم «وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ» أى يصفحون عن أساء إليهم «وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ» أى حينما دعاهم إلى توحيده ، والبراءة من عبادة غيره «وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ» أى لا ينفردون برأى حتى يتشاوروا ويجمعوا عليه . وذلك من فرط تدبرهم وتيقظهم ، وصدق تآخيههم فى إيمانهم وتحابهم فى الله تعالى «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» أى فيؤدّون ما فرض عليهم من الحقوق لأهلها ، من زكاة وثققة . وما ندبوا إليه من مواساة وصدقة ومعمونة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

«وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ» أى بالعدالة . احترازاً عن الذلة والانظلام ، لكونهم فى مقام الاستقامة ، قائمين بالحق والعدل الذى ظلّه فى نفوسهم . قاله القاشانى . وقال ابن جرير^(١) : اختلف أهل التأويل فى الباغى الذى حمد تعالى ذكره ، المنتصر منه بعد بغيه عليه . فقال بعضهم : هو المشرك إذا بغى على المسلم . وقال آخرون : بل هو كل باغ بغى فحمد المنتصر منه . وإليه ذهب السدى حيث قال : ينتصرون ممن بغى عليهم من غير أن يعتدوا .

قال ابن جرير : وهذا القول الثانى أولى فى ذلك بالصواب . لأن الله لم يخص من ذلك معنى دون معنى . بل حمد كل منتصر بحقٍ ممن بغى عليه . فإن قال قائل : وما فى الانتصار

(١) انظر الصفحة رقم ٢٧ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

من المدح ؟ قيل : إن في إقامة الظالم على سبيل الحق ، وعقوبته بما هو له أهل ، تقويما له . وفي ذلك أعظم المدح . انتهى . وكذا قال الزمخشري . فإن قلت : أهم محمودون على الانتصار ؟ قلت : نعم . لأن من أخذ حقه غير متعمد حد الله وما أمر به فلم يسرف في القتل ، إن كان ولي دم ، أورد على سفیه محاماة على عرضه وردعاً له ، فهو مطيع . وكل مطيع محمود . قال الفخمي : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق . ثم أشار تعالى إلى أن الانتصار يجب أن يكون مقيدا بالمثل ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

[٤١] (وَلَمَنْ أُنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ)

[٤٢] (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا » أى جزاء سيئة السيء ما مثلهما . إذ الفقصان حيف والزيادة ظلم . ثم بين تعالى أن العفو أولى ، فقال « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ » أى بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء « فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » أى ثوابه عليه . وفي إبهامه ، ما يدل على عظمه . حيث جعل حقا على العظيم الكريم « إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » أى البادئين بالسيئة والمعتدين في الانتقام « وَلَمَنْ أُنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ » أى بعد ما ظلم . فالمصدر مضاف لمفعوله ، أو هو مصدر المبني للمفعول « فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ » أى للمعاقب ، ولاللعاب والمائب . لأنهم انتصروا منهم بحق . ومن أخذ حقه ممن وجب ذلك له عليه ، ولم يتعد ولم يظلم ، فكيف يكون عليه سبيل ؟ « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ » أى يبدءوهم بالظلم والإضرار ،

أَوْ يَمْتَدُونَ فِي الْإِنْتِقَامِ « وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » أَيْ يَتَكَبَّرُونَ فِيهَا وَيُفْسِدُونَ
« أَوْ لَأَمْلِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أَيْ : بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ وَبَغْيِهِمْ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

« وَلَمَنْ صَبَرَ » أَيْ عَلَى الْأَذَى « وَغَفَرَ » أَيْ لِمَنْ ظَلَمَهُ وَلَمْ يَنْتَصِرْ « إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ
الْأُمُورِ » أَيْ الَّتِي نَدَبَ اللَّهُ عِبَادَهُ ، وَعَزَمَ عَلَيْهِمُ الْعَمَلَ بِهَا .

تنبیه :

نقل السيوطي في (الإكليل) عن السكيا الهراسي أنه قال : قد ندب الله إلى العفو في
مواضع من كتابه ، وظاهر هذه الآية (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ » أن
الانتصار أفضل . قال ، وهو محمول على من تعدى وأصر ، لثلاث تجرأ الفساق على أهل الدين .
وآيات العفو فيمن ندم وأقلع . انتهى . وعجيب فهمه الأفضلية من الآية ، فإنها لا تدل عليه ،
عبارة ولا إشارة . فإنه تعالى لم يرغب في الانتصار . وإنما بين أنه مشروع لهم إذا شاءوا . ثم
بين بعده أن مشروعيته بشرط رعاية المائلة . ثم بين أن العفو أولى ، وهو الذي انتهى إليه
الكلام ، ، وتم به السياق . وكذلك لا حاجة إلى حمل الانتصار على من تعدى . وذلك لأن
الانتصار بالمثل من فروع علم العقوبات والجزاء المشروعة لإقامة الحق والعدل ، ودفع الظلم
عن النفس والصغار ، ورفع الأحقاد والأضغان . وأما العفو والصفح ، فذاك من فروع علم
الأخلاق وتهذيب النفوس . لأنه من باب المسامحة بالحق وإسقاط المستحق ، رغبة في تركية
النفس وهضمها لها وحرصا على خير الأمرين وأوفر الأجرين . وكلاهما من محاسن الشريعة
الحنيفية ، وتوسطها بين الاقتصاص البتة والعفو كلياً ؛ لأن العقل السليم يرى فيهما إفراطا
وتفريطا . والدين دين الفطرة . وهي تتقاضى القصاص بالمثل ، وتراه حقا لها بجبلتها والقضاء
الأدبي والوواع الرحاني يرشدها إلى ما هو أمثل إن شاءت ، ويبرهن لها أمثلته ،

مما لا يبعد، إذا راجعت نفسها وثابت إلى رشدها، أن تؤثره ولا تؤثر عليه . كيف ؟ وقد دل قوله تعالى (إِنَّهُوَ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) كما قال الزمخشري ، على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة والاعتداء ، خصوصا في حال الحرد والتهاب الحمية . فربما كان المجازى من الظالمين وهو لا يشعر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ ، وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّنْ سَبِيلٍ)

« وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ » أى : ومن خذله عن الرشاد ، فليس له من وليّ يليه ، فيهديه لسبيل الصواب ، ويسدده من بعد إضلال الله إياه « وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّنْ سَبِيلٍ » أى رجعة إلى الدنيا . وذلك استعتاب منهم في غير وقته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الْذُلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ، وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ)

[٤٦] (وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ)

[٤٧] (أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ، مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ)

« وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا » أى النار « خَشِعِينَ مِنَ الذَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ » أى من طرف قد خفي من ذله وصفاره « وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخُسْرَىٰ عَلَى الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ » أى بالتعريض للعذاب المخلد، وتفويت النعيم المؤبد « أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ * وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ * أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ » أى أجبوا أيها الناس . داعى الله وآمنوا به « مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ » أى لا يردده الله بعد ما حكم به . ف « من » صلة (مَرَدَّ) أو هى صلة (يَأْتِي) أى من قبل أن يأتى يوم من الله لا يمكن رده « مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ » أى إنكار لما اقترتموه ، لأنه محصى عليكم . أو نكير بغير على الله فى مؤاخذتكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (فَإِن أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ، إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ، وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَبْغَا قَدَمَتَ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ)

« فَإِن أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » أى رقيباً تحفظ عليهم أعمالهم وتحصيها « إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ » أى إبلاغهم ما أرسلت به ، فإذا فعلت فقد قضيت ما عليك « وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَبْغَا قَدَمَتَ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ » أى جحود نعم ربه ، فلا يذكر إلا البؤس والبلاء ، ولا يتفكر إلا فيما أنزله به من الفساد والشقاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ)

[٥٠] (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا ، وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ، إِنَّهُ وَعَلِيمٌ قَدِيرٌ) «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ وَعَلِيمٌ قَدِيرٌ» أى إنه تعالى يجعل أحوال العباد فى الأولاد مختلفة على مقتضى المشيئة . وتقديم الإناث ، إما لأنها أكثر لتكثير النسل ، أو لتطبيب قلوب آبائهن ، تنبيهاً بأنهن سبب لتكثير مخلوقاته ، فلا يجوز الحزن من ولادتهن وكرهتهن ، كما يشاهد من بعض الجهلة . وقال الثعالبي : إنه إشارة إلى ما فى تقدم ولادتهن من الين (ومن عين المرأة تبكيها بأنثى) .

قال الشهاب : والضمير فى (يُزَوِّجُهُمْ) للأولاد ، وما بعده حال منه ، أو مفعول ثانٍ إن ضمن معنى التصيير . يعنى يجعل أولاد من يشاء ذكورا وإناثا مزدوجين . كما يفرد بعضهم بالذكور وبعضهم بالإناث . . ويجعل بعضهم لا أولاد له أصلا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ وَعَلِيٌّ حَكِيمٌ)

«وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا» أى إلهاما وقذفاً فى القلب منه ، بلا واسطة «أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ» أى يكلمه بحيث يسمع كلامه ولا يراه ، كما كلم موسى عليه السلام «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» أى من ملائكته كجبريل «فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ» أى فيوحى ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن ربه ، ما يشاء إيماءه ، من أمر ونهى وغير ذلك ، على سبيل

الإلقاء والنفث في الروح والإلهام ، أو الهتاف أو المنام « إِنَّهُ وَعَلَىٰ » أى من أن يواجه ويخاطب . بل يفنى ويتلاشى من يواجهه ، لعلوه من أن يبقى معه غيره ، أو يحتمل شيء حضوره . قاله القاشانى .

وقال المهايى : أى لا يبلغ البشر حد مكالمته شفاها ، ولا يحتمل سماع كلامه مع رؤيته . انتهى . « حَكِيمٌ » أى يدبر بالحكمة وجوه التكليم ، ليظهر علمه فى تفصيل المظاهر ، ويكمل به عبادته ، ويهتدوا إليه ويعرفوه . وقال المهايى : أى حكيم فى تبليغ كلامه العلى إلى البشر الضعيف .

تنبيه :

فى (الإكليل) : استدلت بالآية ، عائشة رضى الله عنها ، على أن النبى ﷺ لم ير ربه . واستدل مالك بقوله (أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا) على أن من حلف لا يكلم زيدا ، فأرسل إليه رسولا أو كتابا ، أنه يحث . لأنه تعالى استثناء من الكلام ، فدل على أنه منه . انتهى . وفيه بعد . إذ لا يقال لمن ألهمه الله ، إنه كله إلا مجازا . فلا يكون الاستثناء متصلا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[٥٣] (صِرَاطٍ أَلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، أَلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)

« وَكَذَٰلِكَ » أى مثل ذلك الإيحاء على الطرق الثلاثة « أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا » أى وحيا من أمرنا . وسماء روحا لأنه تحيا به القلوب الميتة . قال الشهاب : فهو استعارة أو مجاز مرسل ، لما فيه من الهداية والعلم الذى هو كالحياء . وقيل : هو جبريل .

و (أَوْحَيْنَا) مضمن معنى (أَرْسَلْنَا) . والمعنى : أرسلناه إليك بالوحي « مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ » أى الروح أو الكتاب أو الإيمان « نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنِ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا » أى بالتوفيق للقبول والنظر فيه « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » أى خلقا وملكا « أَلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » أى فى الآخرة . فيقضى بينهم بالعدل . إذ لا حاكم سواه ، فيجازى كلا بما يستحقه من ثواب أو عقاب . نسأله تعالى أن يحسن لنا المسآب . إنه الكريم الوهاب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣ - سورة الزخرف

سميت به لدلالة آيته على أن الدنيا في غاية الخسة في نفسها ، وغاية العداوة مع ربها ،
بحيث لا تليق بالأصالة إلا لأعدائه . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . أفاده المهايى .
وهى مكية . قيل : إلا آية^(١) (وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ) وآيها تسع وثمانون .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٤٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حم)

[٢] (وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ)

[٣] (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

« حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى معانيه ومواظله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ)

« وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ » أى رفيع القدر ، بحيث لا رفعة وراءها « حَكِيمٌ » أى ذو الحكمة الجامعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ)

« أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ » أى أنهم لم يهتموا بنصرف عنكم الذكر لإسرافكم . وإنما كانت الحاجة إلى الذكر للإسراف ، إذ لو كانوا على السيرة العادلة والطريقة الوسطى لما احتجج إلى التذكير . بل التذكير يجب عند الإفراط والتفريط . ولهذا بعث الأنبياء فى زمان الفترة . قاله القاشانى .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٦] (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ)
 [٧] (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)
 [٨] (فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ)

« وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا » أى قوة « وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ » أى سلف في القرآن في غير موضع منه ، ذكر قصصهم وحالهم في تكذيبهم وتعذيبهم وما مثلناه لهم .
 أى فليتوقع هؤلاء المستهزون من العقوبة مثل ما حل بسلفهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٩] (وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)
 [١٠] (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

« وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ *
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا » أى مهادا تستقرون عليها « وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا »
 أى طرقا تتطرقونها من بلدة إلى بلدة ، لمعيشكم ومتاجرکم « لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » أى بتلك
 السبل إلى حيث أردتم من القرى والأمصار .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١١] (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا ، كَذَلِكَ
 تُخْرَجُونَ)

« وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ » أى بمقدار الحاجة إليه . فلم يجعله طوفانا يهلك ،

ولارذاذا لا يفت، بل غيثا مغيثا « فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا » أى أحيينا به بلدة ميتا من النبات،
قد درست من الجذب وغفت من القحط « كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ » أى من بعد فناءكم
ومصيركم بالأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَوْنَ كِبُونَ)

[١٣] (لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ)

[١٤] (وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ)

« وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا » أى خلق كل شىء فزوجهم، فجعل منه الذكر والأنثى.
« وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَوْنَ كِبُونَ » أى من السفن والبهائم ما ترون كبرونه
« لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ » أى مطيقين « وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ »
أى لصائرون إليه ، وراجعون بعد مما كنا .

تنبیه :

فى (الإكليل) : فى الآية استحباب هذا الذكر عند ركوب الدابة والسفينة . وكان ﷺ يقول كلما استوى على راحلته أو دابته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ)

« وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » أى جعل هؤلاء المشركون لله من خلقه نصيبا . وذلك

قولهم للملائكة (هم بنات الله) قال القاشاني : أى اعترفوا بأنه خالق السموات والأرض ومبدعهما وفاطرهما . وقد جسموه وجزأوه بإثبات الولد له ، الذى هو بعض من الوالد ، مماثل له فى النوع ، لكونهم ظاهرين جسمانيين ، لا يتجاوزون عن رتبة الحس والخيال ، ولا يتجردون عن ملابس الجسمانيات ، فيدركون الحقائق المجردة والذوات المقدسة ، فضلا عن ذات الله تعالى . فكل ما تصوروا وتخيلوا ، كان شيئا جسمانيا . ولهذا كذبوا الأنبياء فى إثبات الآخرة والبعث والنشور ، وكل ما يتعلق بالمعاد . إذ لا يتمدى إدر كهيم الحياة الدنيا ، وعقولهم المحجوبة عن نور الهداية ، أمور المماش . فلا مناسبة أصلا بين ذواتهم وذوات الأنبياء ، إلا فى ظاهر البشرية . فلا حاجة إلى ما وراءها . انتهى « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ » أى لجحود نعم ربه ، التى أنعمها عليه . يبين كفرانه لمن تدبر حاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَمْ أُتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ)

« أَمْ أُتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ » أى : بل اتخذ . والهمزة للإنكار تهجيلا لهم . وتعجيبا من شأنهم ، حيث لم يرضوا بأن جعلوا لله من عباده جزءا ، حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين وهو الإناث دون الذكور . على أنهم أنقر خلق الله عن الإناث ، وأمقتهم لمن . ولقد بلغ بهم المقت إلى أن وأدوهن . كأنه قيل : هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة ، فرضا وتمثيلا ، أما تستحيون من الشطط فى القسمة ، ومن ادعائكم أنه آتاكم على نفسه بخير الجزأين وأعلاها ، وترك له شرها وأدناها ؟ قاله الزمخشري .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا » أى من البنات « ظَلَّ وَجْهُهُ وَ مُسْوَدًّا » أى من الكآبة والغم والحزن « وَهُوَ كَظِيمٌ » أى مملوء قلبه من الكرب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أَوْ مَنْ يُنشِئُوا فِي الْحَلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ)

« أَوْ مَنْ يُنشِئُوا فِي الْحَلِيِّ » أى تربي في الزينة ، يعنى البنات « وَهُوَ فِي الْخِصَامِ » أى فى المجادلة « غَيْرُ مُبِينٍ » أى لمن خاصمة ببرهان وحجة ، لعجزه وضعفه . والمعنى : أو من كان كذلك جعلتموه جزءا من خلقه ، وزعمتم أنه نصيبه منهم ؟

تنبيه :

قال إلكيا المراسى : فيه دليل على إباحة الحلى للنساء . وسئل أبو العالية عن الذهب للنساء ، فلم ير به بأسا ، وتلا هذه الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ)

« وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا » أى جعلوا ملائكة الله الذين هم عنده ، يسبحونه ويقدمونه ، إناثا . فقالوا (هم بنات الله) جهلا منهم بحق الله سبحانه ، وجراءة منهم على قيل الكذب .

قال القاشانى : لما سمعوا من أسلافهم قول الأوائل من الحكماء فى إثبات النفوس الملكية وتأنيثهم إياها ، إما باعتبار اللفظ وإما باعتبار تأثرها وانفعالها عن الأرواح المقدسة العقلية ، مع وصفهم إياها بالقرب من الحضرة الإلهية - توهموا أنوثتها فى الحقيقة ، التى هى بإزاء الذكورة فى الحيوان مع اختصاصها بالله . فجعلوها بنات . ولما يعتقدونها العامى إلا صورة إنسية لطيفة فى غاية الحسن . انتهى . « أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ » أى أحضروا خلق الله إياهم فوصفوه بذلك لعلمهم بهم وبرؤيتهم إياهم ؟ وهو تجهيل لهم ، وتهكم بهم « سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ » أى على الملائكة بما هم مبرءون عنه « وَيُسْأَلُونَ » أى عنها يوم القيامة ، بأن

يأتوا ببرهان على حقيقتها، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلا. وفيه من الوعيد ما فيه. لأن كتابتها، والسؤال عنها ، يقتضى العقاب والمجازاة عليها ، وهو المراد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ، مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

[٢١] (أَمْ أَتَيْنَاهُمُ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَمُ هُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ)

«وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ* أَمْ أَتَيْنَاهُمُ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَمُ هُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ» هذا بيان لضلالهم آخر، فى جدلهم وخصامهم وتمنتهم . وقد استدلل المعتزلة بظاهر الآية فى أنه تعالى لا يشاء الشرور والمعاصى . وأهل السنة تأولوا الآية بما يلاقى العقد الصحيح . وهو عموم مشيئته تعالى لكل شئ ، الناطق به غير ما آية . ولما كانت هذه الآية وأخواتها من معارك الأنظار قديما وحديثا ، آثرت أن أنقل هنا ما لمحقيقى المفسرين ، جرياً على قاعدتنا فى التقاط تفاسير ما للمتقدم، وتحلية مصنفاتنا بها ، فمقول : قال القاشانى : لما سمعوا من الأنبياء تعليق الأشياء بعشيئة الله تعالى ، افترضوه وجعلوه ذريعة فى الإنكار . وقالوا ذلك لاعن علم وإيقان ، بل على سبيل العناد والإفحام . ولهذا ردّهم الله تعالى بقوله (مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ) إذ لو علموا ذلك لكانوا موحدين ، لا ينسبون التأثير إلا إلى الله . فلا يسمعون لإعبدته دون غيره . إذ لا يرون حينئذٍ لغيره نفعا ولا ضرراً (إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) لتكذيبهم أنفسهم فى هذا القول بالفعل ، حين عظموهم وخافوهم وخوفوا أنبياءهم من بطشهم ، كما قال قوم هود^(١) (إِنْ نَقُولُ إِلَّا نُعْتِرُكَ بِبَعْضِ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ) ولما خوفوا إبراهيم عليه السلام كيدهم، أجاب بقوله^(٢) (وَلَا

(١) [١١ / هود / ٥٤] . (٢) [٦ / الأنعام / ٨٠] .

أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا (١) إِلَى قَوْلِهِ (٢) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ (٣) انتهى .

وفي البيضاوى وحواشيه : إن هذا القول استدلال منهم على امتناع النهى عن عبادة غيره تعالى أو على حسنها . يعنون أن عبادتهم الملائكة بمشيئته تعالى . فيكون مأموراً بها أو حسنة . ويتمتع كونها منها عنها أو قبيحة . وهذا الاستدلال باطل . لأن المشيئة لا تستلزم الأمر أو الحسن ، لأنها ترجيح بعض الممكنات على بعض ، حسناً كان أو قبيحاً . ولذلك جهلهم في استدلالهم هذا . والحاصل أن الإنكار متوجه إلى جعلهم ذلك دليلاً على امتناع النهى عن عبادتهم ، أو على حسنها : لا إلى هذا القول . فإنه كلمة حق أريد بها باطل . انتهى . وقال الناصر في (الانتصاف) : نحن معاشر أهل السنة نقول : إن كل شيء بمشيئته تعالى ، حتى الضلالة والهدى ، اتباعاً لدليل العقل ، وتصديقاً لنص النقل . في أمثال قوله تعالى (٤) (يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) وآية الزخرف هذه لا تريد هذا المعتقد الصحيح إلا تمهيداً ، ولا تقيده إلا تصويباً وتسديداً . فنقول : إذا قال الكافر (لو شاء الله ما كفرت) فهذه كلمة حق أراد بها باطلاً ، أما كونها كلمة حق ، فلما مهدناه . وأما كونه أراد بها باطلاً ، فراد الكافر بذلك أن يكون له الحجة على الله ، توها أنه يلزم من مشيئة الله تعالى لضلالة من ضل ، أن لا يعاقبه على ذلك . لأنه إنما فعل مقتضى مشيئته .

ثم قال : فإذا وضع ما قلناه ، فإنما رد الله عليهم مقالهم هذه . لأنهم توهموا أنها حجة على الله . فدحض الله حججهم ، وأكذب أمفيهم ، وبين أن مقالهم صادرة عن ظن كاذب وتحرص محض ، فقال (٥) (مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) (٦) (إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) وقد أفصحت أخت هذه الآية مع هذه الآية عن هذا التقدير . وذلك قوله تعالى

(١) [٦ / الأنعام / ٨١] . (٢) [١٦ / النحل / ٩٣] و [٣٥ / فاطر / ٨] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٠] .

في سورة الأنعام^(١) (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) فبين تعالى أن الحامل لهؤلاء على التكذيب بالرسول ، والإشراك بالله ، اغترارهم بأن لهم الحجة على الله بقولهم^(١) (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) فشبه تعالى حالهم في الاعتماد على هذا الخيال ، بحال أوائلهم . ثم بين أنه معتمد نشأ عن ظن خلب وخيال مكذب ، فقال^(١) (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) ثم لما أبطل أن يكون لهم في مقاتلتهم حجة على الله ، أثبت تعالى الحجة له عليهم بقوله^(٢) (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ) ثم أوضح أن الرد عليهم ليس إلا في احتجاجهم على الله بذلك . لا لأن المقالة في نفسها كذب . فقال^(٢) (فَلَوْ شَاءَ أَهْدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ) وهو معنى قولهم (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) من حيث أن (لو) مقتضاها امتناع الهداية لامتناع المشيئة . فدللت الآية الأخيرة على أن الله تعالى لم يشأ هدايتهم . بل شاء ضلالتهم . ولو شاء هدايتهم لما ضلوا . فهذا هو الدين القويم ، والصراط المستقيم ، والنور اللامع والمنهج الواضح . والذي يدحض به حجة هؤلاء ، مع اعتقاد أن الله تعالى شاء وقوع الضلالة منهم ، هو أنه تعالى جعل للعبد تأتيا وتيسرا للهداية وغيرها . من الأفعال الكسبية . حتى صارت الأفعال الصادرة منه مناط التكليف . لأنها اختيارية . يفرق بالضرورة بينها وبين العوارض القسرية . فهذه الآية أقامت الحجة . ووضحت ، لمن اصطفاه الله للمعتقدات الصحيحة ، المحجة . ولما كانت تفرقة دقيقة لم تنظم في سلك الأفهام الكشيفة . فلا جرم أن أفهامهم تبددت . وأفكارهم تبددت . فغلت طائفة القدرية واعتقدت أن العبد فعال لما يريد على خلاف مشيئة ربه . وجارت الجبرية فاعتقدت أن لا قدرة للعبد البتة ولا اختيار . وأن جميع الأفعال صادرة منه على سبيل الاضطراب . أما أهل الحق فمنحهم الله من هدايته قسطا .

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٩] .

وأرشدهم إلى الطريق الوسطى . فانتهجوا سبل السلام . وساروا ورائد التوفيق لهم إمام . مستضيئين بأنوار العقول المرشدة ، إلى أن جميع الكائنات بقدره الله تعالى ومشيتته . ولم يغب عن أفهامهم أن يكون بعض الأفعال للعبد مقدورة . لما وجدوه من التفرقة بين الاختيارية والقسرية بالضرورة . لكنهما قدرة تقاربان بلا تأثير . وتميز بين الضروري والاختياري في التصوير . فهذا هو التحقيق . والله ولي التوفيق : انتهى .

وقد سبق في آية (الأنعام) نقول عن الأئمة في الآية مسبهة : فراجعها إن شئت . وقوله تعالى (أَمْ أَدَّبْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ) أى من قبل هذا القرآن (فَهُمْ بِهِ سَمْتَمِسُونَ) أى يعملون به ويدينون بما فيه ويحتجون به عليك . نظير قوله تعالى في الآية الأخرى ^(١) (قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) بمعنى باعلم كتابا موحي فيه ذلك . وقوله تعالى : القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّثْتَدُونَ) «بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّثْتَدُونَ» أى لاجحة لهم إلا تقليد آبائهم ، الجهلة مثلهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ) «وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ» أى كما فعل هؤلاء المشركون من دفاع الحجة بالتقليد ، فعل من قبلهم من أهل الكفر بالله .

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] .

قال القاضي : وفيه تسليمة له ﷺ ، ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم ، وأن مقلديهم أيضا لم يكن لهم سند منظور فيه . وتخصيص المترفين ، إشعار بأن النعم وحب البطالة ، صرفهم عن النظر إلى التقليد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قُلْ أَوْ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

« قُلْ » وقرئ قل « أَوْ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ » أى جاحدون منكرون ، وإن كان أهدى . إقناطاً للنذير من أن ينظروا أو يفكروا فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (فَأَتَقَمَّنَا مِنْهُمْ ، فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)

« فَأَتَقَمَّنَا مِنْهُمْ » أى بمذاب الاستئصال « فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ » أى آخر أمرهم ، مما أصبح مثلاً وعبرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ » قال القاضي : أى اذكر وقت قوله هذا ، ليروا كيف تبرأ عن التقليد وتمسك بالدليل . أوليقلوده إن لم يكن لهم بدٌّ من التقليد ، فإنه أشرف آبائهم « لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ » إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ » أى برىء من عبادتكم أو معبودكم . و (بَرَاءٌ) بفتح الباء الموحدة كما هو قراءة العامة ، مصدر كالطلاق والعقاق ، أريد به معنى الوصف بمبالغة . فلذا أطلق على الواحد وغيره . وقرئ بضم الباء وهو اسم مفرد صفة بمبالغة ، كطوال وكرام ، بضم الطاء والكاف . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ)

« إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي » استثناء مفقوع أو متصل . على أن (ما) يعلم أولى العلم وغيرهم ، وأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام . أو (إلا) بمعنى (غير) صفة لـ (ما) . أى إني برى ، من آلهة تعبدونها غير الذى فطرني . أى خلقني « فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ » أى للدين الحق ، واتباع سبيل الرشد . والسين إما للتأكيد ، ويؤيده آية الشعراء (يَهْدِينِ) بدونها . والقصة واحدة ، والمضارع فى الموضعين للاستمرار . وإما للتسويق والاستقبال ، والمراد هداية زائدة على ما كان له أولاً . فيتغير ما فى الآيتين من الحكاية أو المحكى ، بناء على تكرار قصته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَجَعَلَهَا » أى شهادة التوحيد « كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ » أى موصى بها ، موروثه متداولة محفوظة . كقوله تعالى ^(١) (وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ) « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى لى يرجعوا إلى عبادته ، ويلجأوا إلى توحيده فى سائر شؤونهم . أو لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وُحِدَ منهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ)

« بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ » يعنى أهل مكة « وَءَابَاءَهُمْ » أى من قبلهم بالحياة ، فلم أعجلهم على كفرهم « حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ » أى دعوة التوحيد أو القرآن « وَرَسُولٌ مُّبِينٌ » أى ظاهر الرسالة بالآيات والحجج التى يحتج بها عليهم فى دعوى رسالته .

(١) [٢ / البقرة / ١٣٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ)

«وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ» أى جاحدون . فازدادوا في ضلالهم ، لضمهم إلى شركهم ، معاندة الحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِينَ عَظِيمٍ)

«وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِينَ عَظِيمٍ» أى من إحداهما ، مكة والطائف . فالتعريف للعهد «عَظِيمٍ» أى بالجاه والمال . فإن الرسالة منصب عظيم لا يليق إلا بعظيم عندهم . قال القاضي : ولم يعلموا أنها رتبة روحانية . تستدعى عظم النفس ، بالتحلي بالفضائل والكلمات القدسية ، لا الزخرف بالزخارف الدنيوية . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا ، وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)

«أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ» إنكار ، فيه تجهيل وتعجيب من تحكهم فيما لا يتولاه إلا هو تعالى . والمراد بالرحمة النبوة «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أى فجعلنا بعضهم غنيا وبعضهم فقيرا «وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ» أى بالغنى «فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا» أى مسخرا في العمل ، وما به قوام المعاش ، والوصول إلى المنافع . لا لسكالي في الموسع عليه ، ولا لفقير في المقتر عليه . بل لحاجة التضام والتآلف ، التي بها ينظم شملهم . وأما النفحات الربانية ، والعلوم الدنيوية ،

فليست مما يستدعى سعة ويسارا . لأنها اختصاص إلهي ، وفيض رحمانى ، يمن به على أنفس مستعديه ، وأرواح قابليه . و (السخرى) بالضم منسوب إلى السخرة بوزن (غرفة) وهى الاستخدام والقهر على العمل . « وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » يعنى أن النبوة خير مما يجمعون من الحطام الفانى . أى : والعظيم من أعطيها وحازها ، وهو النبي ﷺ . لا من حاز الكثير من الشهوات المحبوبة . ثم أشار تعالى إلى حقارة الدنيا عنده ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)

[٣٤] (وَ لِّلْيُؤْتِيَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ)

[٣٥] (وَزُخْرَفًا ، وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ)

« وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً » أى متفقة على الكفر بالله تعالى . أى لولا كراهة ذلك « لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ » أى لتكثير النعم عليه ، مع كفره بالمنعم فيزداد عذابا « لِّيُؤْتِيَهُمْ » بدل من (لِمَن) « سُقْفًا » بفتح السين وسكون القاف ، وبضمهما ، جما « مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ » أى مصاعد من فضة « عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ » أى يرتقون « وَلِيُؤْتِيَهُمْ أَبْوَابًا » أى من فضة « وَسُرُرًا » أى من فضة « عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ وَزُخْرَفًا » أى : ولجعلنا لهم مع ذلك زخرفا ، أى زينة من ذهب وجواهر فوق الفضة . ثم أشار إلى أن لا دلالة فى ذلك على فضيلتهم بقوله « وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى : وما كل هذه الأشياء التى ذكرت ، من السقف من الفضة والمعارج والأبواب والسرر من الفضة ، والزخرف ، إلا متاع يستمتع به أهل الدنيا فى الدنيا « وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ » أى : وزين الدار

الآخرة وبهاؤها عند ربك للمتقين ، أى الذين اتقوا الله تخافوا عقابه . فجدّوا فى طاعته وحذروا معاصيه خاصة دون غيرهم . قال المهايى : يعنى لاختصاصية فى ذلك المتاع ، بحيث يدل عدمه على عدم منصب النبوة ، وإعما الذى يدل عدمه على عدم النبوة ، التقوى . فالنبوة إنما تكون لمن كمل تقواه . سواء كانت عنده الدنيا أم لا . وإعما كانت الزينة الدنيوية أحق بالكفار ، لأنها تثير ظلمة الأهوية المانعة من رؤية الحق . بحيث يصير صاحبها أعشى . انتهى .

تنبيه :

ما قدمناه من أن معنى (وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) على تقدير (لولا كراهة ذلك) وأن معنى كونهم أمة واحدة اجتماعهم على أمر واحد وهو الكفر ، أى أن كراهة الاجتماع على الكفر هى المانعة من تمتيع الكافر بها على الوجه المذكور - هو ما ذكره المفسرون . فورد عليه أنه حين لم يوسع على الكافرين للفتنة التى كان يؤدى إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها ، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟ فأجيب بأن التوسعة عليهم مفسدة أيضا ، لما تؤدى إليه من الدخول فى الإسلام لأجل الدنيا . والدخول فى الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين . فكانت الحكمة فيما دبر حيث جعل فى الفريقين أغنياء وفقراء . وغلب الفقر على الغنى . هذا ما قاله الزمخشري .

وعندى أن لا حاجة لتقدير الكراهة . وأن معنى الآية غير ما ذكره . وذلك أن المعنى : لولا أن يكونوا خلقوا ليكونوا أمة واحدة ، للترافد والتعاون والتضام ، ومابه قوام حياتهم كالجسم الواحد ، لجعلنا للناس ما ذكر من الزين والحلى لدخوله تحت القدرة الكاملة . إلا أن ذلك مبطل للحكمة ومخرب لنظام الوجود . وإنما عبّر عن الناس بمن يكفر بالرحمن ، رعاية للأكثر وهم الكفار ؛ فإنهم الذين طبقوا ظهر الأرض وملأوا وجهها . وحطاً لقدرة الدنيا وتصغيرا لشأنها ، بأن تؤتى لمن هو الأدنى منزلة . والأخس قدرا . وخلاصة المعنى : أن خلقهم

أمة واحدة مدنيين بالطبع ، مانع من بسط الدنيا عليهم جميعهم . وهذا هو معنى (لولا) المطرد ، أن مابعدا أبدا مانع من جوابها . ولذلك يقولون (حرف امتناع لوجود) .
فليس المعنى على ما ذكره أبدا كما يظهر واضحا لمن أنعم النظر . وبالجملة ، فالآية هذه تنمة لما قبلها ، في جواب أولئك الظانين ، أن العظمة الدنيوية تستمتع النبوة . فبين تعالى حكمته في تفاوت الخلق في الآية الأولى . وهي التسخير . وفي الثانية حقارة الدنيا عنده وأنه لولا التسخير لآناها أخط الخلق وأبعدهم منه ، مبالغة في الإعلام بضعفها . وهذا مصداق ماورد من أن الدنيا لا ترن عند الله جناح بعوضة ، وأن ما عنده خير وأبقى .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَمَنْ يَمْشِ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ وَشَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ وَاقَرَيْنِ)

« وَمَنْ يَمْشِ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ » أى يعرض عنه ، فلم يخف سطوته ولم يخش عقابه « نُقَيِّضْ لَهُ وَشَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ وَاقَرَيْنِ » أى نجعل له شيطانا يغويه ويضله عن السبيل القويم دائما ، لمقارنته له . قال القاشانى : قرئ (يعش) بضم الشين وفتحها : والفرق أن عشا يستعمل إذا نظر نظر العشى لعارض أو متعمدا ، من غير آفة في بصره . وعشى إذا إيف بصره . فعلى الأول معناه : ومن كان له استعداد صافٍ وفطرة سليمة لإدراك ذكر الرحمن ، أى القرآن النازل من عنده وفهم معناه . وعلم كونه حقا ، فتعاضى عنه لغرض دنيوى وبغى وحسد ، أولم يفهمه ولم يعلم حقيقته ، لاحتجابه بالغواشى الطبيعية ، واشتغاله باللذات الحسية عنه ، أو لا غتراره بدينه وما هو عليه من اعتقاده ومذهبه الباطل (نُقَيِّضْ لَهُ وَشَيْطَانًا) جنيا فيغويه بالتسويل والتزيين لما انهمك فيه من اللذات ، وحرص عليه من الزخارف . أو بالشبه والأباطيل المغوية لما اعتكف عليه بهواه من دينه . أو إنسيا يغويه ويشاركه في أمره ويجانسه في طريقه ويبعده عن الحق . وعلى الثانى معناه . ومن إيف استعداده فى الأصل ، وشق فى الأزل بمعنى القلب عن إدراك حقائق الذكر ، وقصر عن فهم معناه (نُقَيِّضْ لَهُ وَشَيْطَانًا) من نفسه أو جنسه ، يقارنه فى ضلالتة وغوايته . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ)

« وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ » قال ابن جرير^(١) : أى : وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الذين يمشون عن ذكر الله ، عن سبيل الحق ، فيزينون لهم الضلالة ، ويكرهون لهم الإيمان بالله ، والعمل بطاعته . « وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ » أى يظن هؤلاء المشركون بالله ، بتزيين الشياطين لهم ما هم عليه ، أنهم على الصواب والهدى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ يَدُنِي وَإِنَّكُم بِعَذَابٍ مُّشْتَرِكٍ إِنَّمَا تَلْفِظُ بِهِ قُلُوبُ بَنِي آدَمَ)

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا » أى العاشى « قَالَ » أى لشیطانہ « يَلَيْتَ يَدُنِي وَإِنَّكُم بِعَذَابٍ مُّشْتَرِكٍ » أى بعد المشرق من المغرب . فغلب المشرق على المغرب ، ثم نثى . وقيل المراد مشرق الصيف والشتاء . والتقدير من المغربین ، فاختصر . « إِنَّمَا تَلْفِظُ بِهِ قُلُوبُ بَنِي آدَمَ » أى حتى إذا حضر عقابنا اللازم لاعتقاده وأعماله ، والعذاب المستحق لمذهبه ودينه ، تمنى غاية البعد بينه وبين شيطانہ الذى أضله عن الحق ، وزین له ما وقع بسببه في العذاب ، واستوحش من قرينه واستقدمه ، لعدم الوصلة الطبيعية ، أو انقطاع الأسباب بينهما بفساد الآلات البدنية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

« وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ » قال القاشانى : أى لن ينفعكم التمنى وقت حلول العذاب واستحقاق العقاب . إذا ثبت وصح ظلمكم في الدنيا ، وتبين عاقبته ، وكشف عن حاله . لأنكم مشتركون في العذاب لا شراكم في سببه .

(١) انظر الصفحة رقم ٧٣ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أو ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب من شدته وإيلامه . أى كما ينفع الواقعين في أمر صعب ، معاوتهم في تحمل أعبائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » إنكار تعجيب من أن يكون هو الذى يقدر على هدايتهم . وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده تعالى . وقد تكرّر فى التنزيل التعبير عنهم بالصم العمى الضلال ، لأنه لا أجمع من ذلك لشرح حالهم ، ولا أبلغ منه . إذ سلبوا استماع حجج الله وهداه ، كالأصم . وإبصار آيات الله والاعتبار بها ، كالأعمى . وقصد السبيل الأمم ، كالضالّ الحائر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ)

« فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ » أى نقبضك قبل أن نظهرك عليهم « فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ » أى بالعذاب الأخرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ)

« أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ » وهذا كقوله تعالى^(١) (فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَّقُو فَيُنَبِّئَنَّكَ فَالِئِنَّا بِرُجْعُونِ) وفى تعبيره بالوعد ، وهو لا يخلف الميعاد ، إشارة إلى أنه هو الواقع . وهكذا كان . إذ لم يفلت أحد من صفاديدهم ، إلا من تحصّن بالإيمان .

(١) [٤٠ / غافر / ٧٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِيَ إِلَيْكَ ، إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » يعنى دين الله الذى أمر به وهو الإسلام . فإنه كامل الاستقامة من كل وجه . قال الشهاب : هذا تسليية له ﷺ وأمر لأمره أوله ، بالدوام على التمسك . والفاء فى جواب شرط مقدر . أى إذا كان أحد هذين واقعاً لا محالة ، فاستمسك به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ)

« وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ » أى وإن الذى أوحى إليك لشرف لك ولقومك من قریش . لما خصهم به من نزوله بلسانهم . أو المراد بقومه ، أتباعه . أى تنويه بقدرك وبقدر أمتك ، لما أعطاه لهم بسببه من العلوم والمزايا والخصائص والشرائع الملائمة لسائر الأحوال والأزمان . وجوز أن يراد بالذكر الموعظة « وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ » أى عما عملتم فيه ، من إثباتكم بأوامره ، وانتهائكم عن نواهيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ

إِلَهَةً يُعْبَدُونَ)

« وَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ »

أى : هل حكمنا بعبادة الأوثان ؟ وهل جاءت فى ملة من مللهم ؟ قال القاضى : والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد والدلالة على أنه ليس ببدع ابتدعه ، فيه كذب وعبادى له . انتهى .

والذين أمر بمسأتهم الرسول ﷺ ، هم مؤمنو أهل الكتابين التوراة والإنجيل .
فالكلام بتقدير مضاف . أى أممهم المؤمنين . أو يجعل سؤالهم بمنزلة سؤال أنبيائهم . لأنهم
إنما يخبرونه عن كتب الرسل . فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا » أى المصدق له « إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » لينهاه عن الاستعباد .
« وَمَلَئِهِ » أى لينهاهم عن التعبد له « فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى فأبان أنه
لا يستحق العبادة غيره تعالى ، وأن ليس لأحد سواه استعباد ، لأنها حق الربوبية المطلقة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ)

« فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ » فلما أتاهم بالحجج على التوحيد
والبراءة من الشرك ، إذا فرعون وقومه يضحكون . أى كما أن قومك ، مما جئتكم به من
الآيات والعبر ، يسخرون . وهذا تسلية من الله عز وجل لنبيه ﷺ ، عما كان يلقي من
مشركى قومه . وإعلام منه له أن قومه من أهل الشرك ، لن يعدوا أن يكونوا كسائر الأمم
الذين كانوا على منهاجهم فى الكفر بالله وتكذيب رسله . وندب منه نبيه ﷺ إلى الاستئنان
بهم ، بالصبر عليهم ، بسنن أولى العزم من الرسل . وإخبار منه له أن عقبي مردّهم إلى
البوار والهلاك . كسنته فى التمردين عليهم قبله ، وإظفاره بهم ، وإعلانه أمره . كالذى فعل
بموسى عليه السلام وقومه الذين آمنوا به . من إظهارهم على فرعون وملئه . أفاده ابن جرير^(١) .

(١) انظر الصفحة رقم ٧٩ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

ثم أشار إلى أن موجب الجزء لم يكن إلا لعناد ، لا لقصورها ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَمَا نُرِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ، وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[٤٩] (وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الدُّعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ)

[٥٠] (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ)

« وَمَا نُرِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا » أى السابقة عليها « وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ » أى النبوى كالسنين ، مما يلجى إلى الرجوع ، ولا أقل من رجائه « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * » وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الدُّعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ « أى من أنه لا يعذب من آمن بك ليكشف عنا العذاب « إِنَّا لَمُهْتَدُونَ » أى بما تزعم أنه الهداية « فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ » أى العهد الذى عاهدوا عليه ، ويتبادون في غيهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوْمِ الْإِنسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ

الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[٥٢] (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثْلُ مَهِينٍ وَلَا يَكَادُ بَيِّنُ)

[٥٣] (فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)

« وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوْمِ الْإِنسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي » يعنى أنهار النيل « أَفَلَا تُبْصِرُونَ » أى ما أنا فيه من النعيم والخير ، وما فيه موسى من الفقر « أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثْلُ مَهِينٍ » أى ضعيف لا شيء له من الملك

والأموال « وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » أى الكلام ، لمخالفة اللغة العبرانية اللغة القبطية « فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِيكَةُ مُقْتَرِنِينَ » أى يعينونه ويصدقونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ)

[٥٥] (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ)

« فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ » أى فاستغفرهم بهذه المغالطات ، وحملهم على أن يخفوا له ويصدقوه « فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا » أى أغضبونا بطاعة عدونا وقبول مغالطاته بلا دليل ، وتكذيب موسى وآياته ، وندائه بالساحر ، ونكث العهد « انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ » وذلك لاستغراقهم فى بحر الضلال ، الأجيال الطوال ، وعدم نفع العظة معهم بحال من الأحوال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ)

[٥٧] (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ)

[٥٨] (وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ، مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)

« فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا » أى حجة للهاالكين بعدهم « وَمَثَلًا » أى عبرة « لِّلْآخِرِينَ » أى الناجين « وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا » أى فى كونه كآدم ، كما أشارت له آية^(١) (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ وَ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ وُكُنْ فَيَكُونُ) والمعنى : لما بين وصفه الحق من أنه عبد مخلوق منعم عليه بالنبوة ، عبادته كفر ، ودعاؤه شرك ، إذ لم يأذن الله بعبادة غيره « إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ » أى من مثله المضروب ووصفه المبين « يَصِدُّونَ » أى يعرضون ولا يعون « وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ » يعنون بألهتهم الملائكة الذين عبدوهم ،

(١) [٣ / آل عمران / ٥٩] .

زعماء منهم أنهم بنات الله تعالى . كما ذكر عنهم ذلك في أول السورة . أى أنهم خير من عيسى وأفضل ، لأنهم من الملائكة الأعلى والنوع الأسنى ، فإذا جازت عبادة المفضول وهو عيسى ، فبالأولى عبادة الأفضل وهم الملائكة . كأنهم يقررون على شركهم أصولاً صحيحة . وبينون على تمسكهم أقيسة صريحة . وغفلوا ، لجهلهم ، عن بطلان المقيس والمقيس عليه . وأن البرهان الصادع قام على بطلان عبادة غيره تعالى ، وعلى استحالة التوالد في ذاته العلية . وإذا اتضح الهدى فما وراءه إلا الضلال ، والمشاغبة بالجدال . كما قال تعالى « مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا » أى ماضربوا لك هذا القول إلا لأجل الجدل والخصومة ، لاعن اعتقاد ، لظهور بطلانه « بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ » أى شديدو الخصومة بالباطل تمويهاً وتلبيساً . وفي الحديث^(١) ماضل قوم يعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل وما ذكرناه في تفسير هذه الآية ، هو الجلى الواضح ، لدلالة السياق والسباق . فقابل بينه وبين ما حكاه الغير وأنصف . ثم جلى شأن عيسى عليه السلام ، بما يرفع كل لبس ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ)

« إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ » أى بالنبوة والرسالة « وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ » أى آية لهم وحجة عليهم ، بما ظهر على يديه ، مما أيد نبوته ورسالته وصدق دعواه

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ)

« وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ » أى بدلهم « مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ » أى يكونون مكانكم . إيماد لهم بأنهم في قبضة الشئنة في إهلاكهم ، وإبدال من هو خير منهم .

(١) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٤٣ - سورة الزخرف ، عن أبي أمامة .

كما في قوله تعالى^(١) : (وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ)
وقيل معنى (لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ) لولدنا منكم ملائكة ، كما ولدنا عيسى من غير أب ، لتعرفوا
تميزنا بالقدرة . واللفظ الكريم يحتمله . إلا أن الأظهر هو الأول ، لما جرت به عادة التنزيل ،
من خواتم أمثال ما تقدم ، بنظائر هذا الوعيد ، والله أعلم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلْسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

[٦٢] (وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

« وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلْسَّاعَةِ » الضمير إمَّا القرآن كما ذهب إليه قوم ، أى وإن القرآن الكريم
يعلم بالساعة ويخبر عنها وعن أهوالها . وفى جعله عين العلم ، مبالغة . والعلم بمعنى العلامة .
وقيل الضمير لعيسى عليه السلام . أى إن ظهوره من أسراط الساعة . ونزوله إلى الأرض
فى آخر الزمان داليل على فناء الدنيا . وقال بعضهم : معناه أن عيسى سبب للعلم بها . فإنه هو
ومعجزاته من أعظم الدلائل على إمكان البعث . فالآية مجاز مرسل علاقته المسببية . إذ أطلق
المسبب وهو العلم ، وأراد السبب وهو عيسى ومعجزاته . كقولك (أمطرت السماء نباتا) أى
مطرا يتسبب عنه النبات . وقرئ (وَإِنَّهُ لَعَلَّمٌ لِلْسَّاعَةِ) بفتحتين . أى أنه كالجبل الذى
يهتدى به إلى معرفة الطريق ونحوه . فبعيسى عليه السلام يهتدى إلى طريقة إقامة الدليل على
إمكان الساعة وكيفية حصولها . انتهى . وهو جيد « فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ » أى
اتبعوا هداى أو شرعى أو رسولى . أو هو أمر للرسول أن يقوله « هَذَا » أى القرآن ،
أو ما أَدْعُوكُمْ إليه « صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ » أى عن الاتباع « إِنَّهُ
لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ
بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[٦٤] (إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

«وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي
تَخْتَلَفُونَ فِيهِ» أي من أحكام التوراة وغيرها . كاختلاف اليهود في القيامة ، لعدم صراحتها
في كتبهم . وقد جاء في نحوها آية^(١) (وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ) وقد
وضع عن اليهود شيئاً من إضر التوراة وأغلال الناموس ، كما فعل في يوم السبت . خفف
شدة حكمه .

قال بعض المحققين : وإنما لم يقل (ولأبين لكم كل ما تختلفون فيه) لأنه لم يفعل ذلك .
بل ترك بيان كثير من الأشياء ، كالفساد الذي دخل في أغلب كتبهم للفارقليط (محمد ﷺ)
الذي يأتي بعمده ، لعدم استعداد الناس في زمنه لقبول كل شيء منه . كما قال هو نفسه في
(إنجيل يوحنا) في الإصحاح السادس عشر . وخصوصاً إذا تمرّض للطعن في كتبهم ، وهي
رأس ما لهم الوحيد وتراث أجدادهم . ولو فعل ذلك لشكّ فيه الكثيرون منهم وكذبوه ،
ولما اتبعه إلا الأقلون أو النادرون ، فتضيع الفائدة من بعثته التي بينها في المتن . وهي التي
بعت من أجلها .

وأما قول الله تعالى عن لسانه^(١) (وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ) فالمراد بمثل
هذا التعبير ، أنه بمجيئه عليه السلام تحققت نبوات التوراة عنه ، وبه صحت وصدقت . وكلمة
(التوراة) تطلق على كتب المهد القديم . فالمعنى أن مجيء عيسى كان وفق ما أنبأ به النبيون
عنه من قبل . ولولاه لما صدقت تلك النبوات ، فإنها لا تنطبق إلا عليه . وليس المراد أن

(١) [٣ / آل عمران / ٥٠] .

عيسى يقرّ كل ما في التوراة ، كما يتوهم النصارى الآن من مثل هذه الآية . وإلا لما قال بعدها مباشرة^(١) (وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ) فكيف يقرّها وهو قد جاء ناسخاً لبعض ما فيها ؟ فتدبر ذلك ولا تكن كهؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون . ويفسرون ما لا يفهمون . انتهى كلامه . وهو وجيه جدا .

« فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ » قال ابن جرير^(٢) : أى إن الله الذى يستوجب علينا إفراده بالالوهية وإخلاص الطاعة له ، ربى وربكم جميعا . فاعبدوه وحده لا تشركوا معه فى عبادته شيئا . فإنه لا يصح ولا ينبغي أن يعبد شيء سواه « هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » أى هذا الذى أمرتكم به ، من اتقاء الله وطاعته ، وإفراد الله بالالوهية ، هو الطريق القويم . وإذا كان هذا قول عيسى عليه السلام ، فلا عبرة بقول الملحدين فيه والمفترين عليه ما لم يقله . ثم أشار إلى وعيد من خالف الحق بعد وضوحه ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَأُخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلِيمٍ)

« فَأُخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ » أى الفرق المتحيزة اختلافاً نشأ « مِنْ بَيْنِهِمْ » أى لا من قوله تعالى ، ولا من قول عيسى . بل ظلموا وعنادا « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلِيمٍ » أى مؤلم من شدة الأهوال وكثرة الفضائح ، وظلمهم بترك النظر فى الدلائل العقلية والنقلية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٦٧] (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ)

(١) [٣ / آل عمران / ٥٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٩٣ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« هَلْ يَنْظُرُونَ » أى قريش « إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ *
 إِلَّا خِلَاءَ يَوْمٍ مِثْلِهِ » أى المتخالون على المعاصى والفساد، والصدّ عن الحق يوم القيامة « بَعْضُهُمْ
 لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » أى معادٍ ، يتبرأ كل من صاحبه « إِلَّا الْمُتَّقِينَ » أى المتصادقين فى طاعة
 الله ومحبته . قال القاشانى : الخلة إما أن تكون خيرية ، أو لا . والخيرية إما أن تكون فى
 الله أو لله ومحبته . وغير الخيرية إما أن يكون سببها اللذة النفسانية أو النفع العقلى . والقسم الأول هو
 المحبة الروحانية الذاتية المستندة إلى تناسب الأرواح فى الأزل ، التى قال ^(١) فيها (فما تمارف منها
 اثتلف) فهم إذا برزوا فى هذه النشأة ، وتوجهوا إلى الحق ، وتجددوا عن مواد الرجس ،
 فلما تلاقوا تمارفوا ، وإذا تمارفوا تحابوا ، لتجانسهم الأصلى ، وتوافقهم فى الوجهة والطريقة ،
 وتشابههم فى السيرة والغريزة ، وتجردهم عن الأغراض الفاسدة والأعراض الذاتية ، التى هى
 سبب المداوة . وانتفع كل منهم بالآخر فى سلوكه وعرفانه . والتذ بلاقئه ، وتصفى بصفائه ،
 وتعاونوا فى أمور الدنيا والآخرة . فهى الخلة التامة الحقيقية التى لا تزول أبدا كمحبة الأنبياء
 والأصفياء والأولياء والشهداء . والقسم الثانى هو المحبة القلبية المستندة إلى تناسب الأوصاف
 والأخلاق والسير الفاضلة . ونشأته الاعتقادات والأعمال الصالحة . كمحبة الصالحاء والأبرار
 فيما بينهم . ومحبة العرفاء والأولياء إياهم . ومحبة الأنبياء أمهم . والقسم الثالث هو المحبة
 النفسانية المستندة إلى الذات الحسية والأغراض الجزئية . كمحبة الأزواج لمجرد الشهوة .
 ومحبة الفجار والفساق المتعاونين فى اكتساب الشهوات واستلاب الأموال . والقسم الرابع
 هو المحبة العقلية المستندة إلى تسهيل أسباب المعاش ، وتيسير المصالح الدنيوية . كمحبة التجار
 والصناع . ومحبة المحسن إليه للمحسن . فكل ما استند إلى غرض فإن سبب زائل ، زال

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٢ - باب الأرواح جنود مجندة ،

الحديث رقم ١٥٧٦ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٤٥ - كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ١٥٩ (طبعتنا) .

بزواله ، وانقلب عند فقدانه عداوة . لتوقع كل من المتحابين ما اعتاد من صاحبه ، من اللذة الموهودة والنفع المألوف . وامتناعه لزوال سببه . ولما كان الغالب على أهل العالم أحد القسمين الأخيرين ، أطلق الكلام وقال (الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) لا تقطاع أسباب الوصلة بينهم ، وانقضاء الآلات البدنية عنهم ، وامتناع حصول اللذة الحسية والنفع الجسماني وانقلابهما حشرات وآلاما وضررا وخسرانا . قد زالت اللذات والشهوات ، وبقيت العقوبات والتبعات . فكل يمتص صاحبه ويغضه . لأنه يرى مابه من العذاب ، منه وبسببه . ثم استثنى المتقين المتناولين للقسمين الباقيين لقلتهم ، كما قال ^(١) (وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ) ^(٢) (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) ولعمري ، إن القسم الأول أعز من الكبريت الأحمر . وهم الكاملون في التقوى ، البالغون إلى نهايتها ، الفائزون بجميع مراتبها . ويلهم القسم الثاني . وكلا القسمين ، لا اشتراكهما في طلب مرضاة الله وطلب ثوابه واجتناب سخطه وعقابه ، نسبهم سبحانه إلى نفسه بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (يَسْعَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)

« يَسْعَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ » أى لأنهم من العذاب « وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ » أى على فوات لذات الدنيا . لكونهم على الله منها وأبهج ، وأحسن حالا وأجمل .

القول في تأويل قوله تعالى :

(الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ)

« الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا » أى صدقوا بكتاب الله ورسله ، وعملوا بما جاءهم به رسالهم « وَكَانُوا مُسْلِمِينَ » أى أهل خضوع لله بقلوبهم ، وقبول منهم لما جاءهم به رسالهم عن ربهم ، على دين إبراهيم عليه السلام ، حنفاء ، لا يهود ولا نصارى ولا أهل أوثان .

(١) [٣٨ / ص ٢٤] . (٢) [٣٤ / سبأ / ١٣] .

القول في تاويل قوله تعالى :

[٧٠] (اَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ)

« اَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ » أى تُسَرُّون سرورا يظهر حَبَّاره ،
أى أثره على وجوهكم ، كقوله تعالى ^(١) (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) .

القول في تاويل قوله تعالى :

[٧١] (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ

الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ، وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

[٧٢] (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ » الصحاف جمع (صحفة) وهى آنية
الأكل . والأكواب جمع (كوب) وهو ما يشرب منه كالسكر . إلا أن الكوب
ملا عروة له . قال الشهاب : العروة ما يمسك منه ويسمى أذنا . ولذا قال من الغز فيه :

وذى أذنٍ بلا سمعٍ له قلبٌ بلا قلبٍ

إذا استولى على صَبٍّ فقل ما شئتَ فى الصَّبِّ

ومن اللطائف هنا ما قيل : إنه لما كانت أوانى المأكولات أكثر بالنسبة لأوانى
المشروب عادة ، جمع الأول جمع كثرة ، والثانى جمع قلة . « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ
وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ » أى بمشاهدته « وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى من الخيرات والأعمال الصالحات . وقد شبه ما استحقوه بأعمالهم
الحسنة ، من الجفة ونعيمها الباقى لهم ، بما يخلفه المرء لورثته من الأملاك والأرزاق .
ويلزمه تشبيه العمل نفسه بالمورث (على صيغة اسم الفاعل) فهو استمارة تبعية أو تمثيلية .

(١) [٨٣ / المطففين / ٢٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ)

« لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ » أى ما اشتبهتم . و (من) إما ابتدائية أو تبعية . ورجح بدلالته على كثرة النعم ، وأنها غير مقطوعة ولا ممنوعة ، وأنها مزينة بالثمار أبدا ، موقرة بها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)

[٧٥] (لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)

« إِنَّ الْمُجْرِمِينَ » أى الذين اجترموا الكفر والمعاصى فى الدنيا « فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ » أى لا يخفف ولا ينقص « وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ » أى مستسلمون يأسون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ)

« وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ » أى بهذا العذاب « وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ » أى بكفرهم الله وجحودهم توحيده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ، قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ)

[٧٨] (لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ)

« وَنَادَوْا » أى بعد إدخالهم جهنم « يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ » أى ليقضنا . أى سله أن يفعل بنا ذلك . تمنوا تعطيل الحواس وعدم الإحساس ، لشدة التألم بالعذاب الجسماني .

« قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ » أى لا بشون « أَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ » أى لا تقبلونه وتنفرون منه . وعبر (بالأكثر) لأن من الأتباع من يكفر تقليدا .
لطيفة :

قال القاشانى : سعى خازن النار (مالكا) لاختصاصه بمن ملك الدنيا وآثرها .
لقوله تعالى^(١) (فَأَمَّا مَنْ طَفَى * وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى)
كما سعى خازن الجنة (رضوانا) لاختصاصه بمن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (أَمْ أَبْرِمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

« أَمْ أَبْرِمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ » أى أم أبرم مشركو مكة أمراً فأحكموه ،
يكيدون به الحق الذى جاءهم ، فإننا محكمون لهم ما ينجزيهم ويذلهم ، من النكال .
كقوله تعالى^(١) (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ، بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)

« أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ » أى ما أخفوه من تناجيهم
بما يمحرون ، فلا ينجزيهم عليه خفائه علينا « بَلَىٰ » أى نسمعهما ونطلع عليهما
« وَرُسُلُنَا » بمعنى الحفظة « لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ » أى ما تسكتموا به ولفظوا من قول .
ثم أشار إلى رد إفكهم فى أن الملائكة بنات الله تعالى ، ختماً للسورة مما بدئت به ، المسمى
عقد البديعيين (رد العجز على الصدر) فقال سبحانه :

(١) [٧٩ / النازعات / ٣٧-٣٩] . (٢) [٥٢ / الطور / ٤٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ)

« قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ » أى لذلك الولد . والأولية بالنسبة إلى المخاطبين ، لا لمن تقدمهم . قال الشهاب : ولو أبقي على إطلاقه ، على أن المراد إظهار الرغبة والمسارة ، جاز . انتهى .

قال القاشاني : وهذا إما أن يدل على نفي الولد عن الله سبحانه بالبرهان ، وإما أن يدل على نفي الشرك عن الرسول بالمفهوم . أما دلالة على الأول ، فلما دلّ قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)

« سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » على نفي التالى . وهو عبادة الولد . أى أوحده . وأنزهه تعالى عما يصفونه من كونه مماثلاً لشيء . لكونه ربّاً خالقاً للأجسام كلها . فلا يكون من جنسها . فيفيد انتفاء الولد على الطريق البرهاني . وأما دلالة على الثانى فإذا جعل قوله (سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ) الخ من كلام الله تعالى ، لا من كلام الرسول ، (أى نزه رب السموات عما يصفونه) فيكون نفياً للمقدم ويكون تعليق عبادة الرسول من باب التعليق بالمحال . والمعلق بالشرط عند عدمه فحوى بدلالة المفهوم ، أبلغ عند علماء البيان من دلالة المنطوق . كما قال فى استبعاد الرؤية^(١) (فَإِنْ أَسْتَقَرَّ مَسْكَنُهُ وَفَسَوْفَ تَرَانِي) . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَذَرَهُمْ يَخْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَمُوتُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

« فَذَرَهُمْ يَخْضُوا » أى فى باطلهم « وَيَلْعَبُوا » أى فى دنياهم « حَتَّى يَمُوتُوا يَوْمَهُمُ »

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٣] .

الَّذِي يُوعَدُونَ» قال ابن جرير^(١) : وذلك يوم يُصليهم الله بفريتهم عليه ، جهنم ، وهو يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) « وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ » أى المعبود فيهما بلا شريك « وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ » أى فى تدبير خلقه وتسخيرهم لما يشاء بمصالحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[٨٦] (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ » أى الشفاعة لهم عند الله ، كما زعموا أن أندادهم شفعاء « إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أى من آمن بالله وأقرّ بتوحيده ، وهم يعلمون حقيقة توحيده . أى وحدوه وأخلصوا له على علم منهم ويقين ، كقوله^(٢) (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى) قال ابن كثير : هذا استثناء منقطع . أى لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم ، فإنه تنفع شفاعته عنده ، بإذنه له . اهـ .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٤ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٨] .

تنبيه :

قال الشهاب : استدل الفقهاء بهذه الآية على أن الشهادة لا تكون إلا عن علم ، وأنها تجوز وإن لم يشهد .

وفى (الإكليل) قال إلكيا : يدل قوله تعالى (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) على معنيين : أحدهما - أن الشهادة بالحق غير نافذة إلا مع العلم ، وأن التقليد لا يغنى مع عدم العلم بصحة المقالة . والثاني - أن شرط سائر الشهادات في الحقوق وغيرها ، أن يكون الشاهد عالماً بها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)

« وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » أى : خلقنا لتعذر المكابرة فيه من فرط ظهوره « فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » أى بصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ)

« وَقِيلَ لَهُ » أى قيل لمحمد صلوات الله عليه ، شاكياً إلى ربه تبارك وتعالى ، قومه الذين كذبوه وما يلقى منهم « يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ » أى الذين أمرتني بإنذارهم ، وأرسلتني إليهم لدعائهم إليك « قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ » أى بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر . كقوله تعالى (١) (وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

(١) [٢٥ / الفرقان / ٣٠] .

« فَأَصْفَحْ » أى أعرض « عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ » أى لكم أو عليكم . أو أمرى سلام .
أى متاركة ، فهو سلام متاركة لا تحية .

وقال الرازى : احتج قوم بهذه الآية على أنه يجوز السلام على الكافر . ثم قال : إن صح هذا الاستدلال فإنه يوجب الاختصار على مجرد قوله (سلام) وأن يقال للمؤمن (سلام عليكم) والمقصود التنبيه على التحية التى تذكر للمسلم والكافر . اهـ .

وفيه نظر ، لأنه جمود على الظاهر البحت هنا ، والغفلة عن نظائره . من نحو قول^(١) إبراهيم عليه السلام لأبيه (سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي) وآية^(٢) (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) على أن الأكثر على أن الخبر هنا محذوف ، أى (عليكم) والمقدر كالمذكور ، والمحذوف لعله كالثابت . فالصواب أن السلام للمتاركة . والله أعلم « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ »
أى حقيقة ما أرسلت به ، بسمو الحق وزهوق الباطل .

تنبيه :

قرئ (وقيله) بالنصب عطفا على (سرّهم ونجواهم) وضعف بوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، بما لا يحسن اعتراضا . أو على محل (الساعة) لأنه فى محل نصب ، لأنه مصدر مضاف لمفعوله . أو بإضمار فعله . أى وقال قيله . وقرئ بالجر عطفا على (الساعة) أو الواو للقسمة . والجواب محذوف . أى لأفعلن بهم ما أريد ، أو مذكور وهو قوله (إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ) وقرئ بالرفع عطفا على (علم الساعة) بتقدير مضاف . أى وعنده علم قيله . أو مرفوع بالابتداء ، وجمله (يارب) الخ هو الخبر . أو الخبر محذوف . أى وقيله كيت وكيت ، مسموع أو مقبل . وفى (الحواشى) مجازيات جدلية . فازدد بمراجعتها علما .

(١) [١٩ / مريم / ٤٧] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٤ - سُورَةُ الدَّخَانِ

قال المہاجمی : سمیت به لدلالة آيته على أنه جزاء غشيان أَدْخَنَ النفوس الحبيثة ، بصائر قلوب أهلها وأرواحهم . ولذلك رأوا الدلائل شبهات الشياطين . وجعلوا المميز بينهما مجفونا . وإن القرآن كشف عنه ككشف الدخان المحسوس عنهم ، وهي مكية . وآيها خمسون وتسع . روى ^(١) الترمذی مرفوعا : من قرأ (حمّ الدخان) في ليلة ، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك . ثم قال : غريب . وعمر بن أبی خثعم راويه ، يضعف . قال البخاری : منكر الحديث . أفاده ابن كثير .

(١) أخرجه في : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ٨ - باب ما جاء في فضل (حمّ الدخان) ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (حَمَّ)

[٢] (وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ)

[٣] (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ، إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ)

« حَمَّ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ » يعنى ليلة القدر التى قدر فيها سبحانه إنزال ذكره الحكيم . وكانت فى رمضان . كما قال سبحانه ^(١) (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) قال ابن كثير : ومن قال إنها ليلة النصف من شعبان ، فقد أبعد النجعة . فإن نص القرآن أنها فى رمضان . وما روى من الآثار فى فضلها ، فثله لاتعارض به النصوص . هذا على فرض صحتها . وإلا فهى ما بين مرسل وضعيف . والبركة اليمن . ولا ريب أنها كانت أبرك ليلة وأيمنها على العالمين ، بتنزيل ما فيه الحكمة والهدى ، والنجاة من الضلال والردى . قال القاشانى : ووصفها بالمباركة ، لظهور الرحمة والبركة ، والهداية والعدالة فى العالم بسببها . وازدياد رتبته ﷺ وكاله بها . كما سماها (ليلة القدر) لأن قدره وكاله إنما ظهر بها « إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ » أى من خالف مقتضى الحكمة وقوة الدلائل ، واختار المذام وتذلل للهوى ولم يكتف بهداية الله ، ولم يقت روحه بقوت معارفه ، وذلك لتقوم حجة الله على عباده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ)

« فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ » أى يفصل ويبين كل أمر تقتضيه الحكمة ، على

(١) [٢ / البقرة / ١٨٥] .

وجه متين محمود عند الكمل تقتات به أرواحهم ، وترحم به نفوسهم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

[٦] (رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا » نصب على الاختصاص . أى أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلًا من عندنا على مقتضى حكمتنا . وهويان لفخامته الإضافية ، بعد بيان نغامته الذاتية « إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ » * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ « أى مرسلين إلى الناس رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، رحمة منه تعالى بهم ، لمسيس الحاجة إليه . كما قال تعالى ^(١) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) وجوز كون (رحمة) علة للإزال . أى رحمة تامة كاملة على العالمين بإزاله ، لاستقامة أمورهم الدينية والدنيوية ، وصلاح معاشهم ومعادهم ، وظهور الخير والكمال والبركة والرشاد فيهم بسببه . والوجه هو الأول . وهو كونه غاية للإرسال . لإفصاح تلك الآية عنه « إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ » أى لدعوة حقائق الأشياء بمقتضياتها « الْعَلِيمُ » أى بمقادير قابلياتها ، فلا يبعد عليه الإرسال والإزال . قاله المهايى . وقال القاشانى : أى : السميع لأقوالهم المختلفة في الأمور الدينية الصادرة عن أهوائهم ، (العليم) أى بمقائدهم الباطلة وآرائهم الفاسدة وأمورهم المختلة ومعايشهم غير المنتظمة . فلذلك رحمهم بإرسال الرسول الهادى إلى الحق فى أمر الدين . الناظم لمصالحهم فى أمر الدنيا ، المرشد إلى الصواب فيهما ، بتوضيح الصراط المستقيم ، وتحقيق التوحيد بالبرهان ، وتقنين الشرائع وسنن الأحكام لضبط النظام .

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧]

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٧] (رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ)
 [٨] (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)
 [٩] (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ)

« رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ » قال أبو مسلم : أى إن كنتم تطلبون اليقين وتريدونه ، فاعرفوا أن الأمر كما قلنا . كقولهم (فلان منجد متهم) أى يريد نجدا وتهامة . اه . وقيل : معناه إن كنتم موقنين بما تقرون به ، من أنه رب الجميع وخالقه « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ » أى بل ليسوا بموقنين فى إقرارهم بربوبيته . لأن الإيقان يستتبع قبول البرهان . وإنما هو قول ممزوج بلبس ، اغشيان أذخنة أهوية نفوسهم ، بصائر قلوبهم وأرواحهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١٠] (فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ)
 [١١] (يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)
 [١٢] (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ)

« فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » أى انتظر لمجازاتهم ذلك اليوم الهائل . ولا يستعمل (الارتقاب) إلا فى أمر مكروه . وللسلف فى معنى الدخان ثلاثة أوجه : الأول - قال بعضهم : كان ذلك حين دعا رسول الله ﷺ على قريش أن يؤخذوا بسنين كسنى يوسف . فأخذوا بالجماعة . قالوا : وعنى بالدخان ما كان يصيبهم حينئذ فى أبصارهم من شدة الجوع ،

من الظلمة كهيمته الدخان . روى ابن جرير^(١) عن مسروق قال : كما عند عبد الله بن مسعود جلوسا وهو مضطجع بيننا . فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن : إن قاصا عند أبواب كعدة يقصّ ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار ، يأخذ المؤمنين منه كهيمته الزكام . فقام عبد الله وجلس وهو غضبان ، فقال : يا أيها الناس ! اتقوا الله . فمن علم شيئا فليقل بما يعلم . ومن لا يعلم فليقل (الله أعلم) . فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم (الله أعلم) وما على أحدكم أن يقول لما لا يعلم (لا أعلم) فإن الله عز وجل يقول^(٢) لَنُبَيِّنَنَّ لَكَ لَنُبَيِّنَنَّ لَكَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (إن النبي ﷺ لما رأى من الناس إدارا قال : اللهم سبعا كسبع يوسف . فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف . ينظر أحدهم إلى السماء فيرى دخانا ، من الجوع . فأتاه أبو سفيان بن حرب فقال : يا محمد ! إنك جئت تأمرنا بالطاعة وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله لهم . قال الله عز وجل^(٣) (فَأَرْقُبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ) إلى قوله^(٤) (إِنَّكُمْ عَمَّا يُدُونَ) قال : فكشف عنهم^(٥) (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ) فالبطشة يوم بدر . وقد مضت آية الروم وآية الدخان . والبطشة والالزام .

قال ابن كثير : وهذا الحديث مخرج في الصحيحين^(٦) ورواه الإمام أحمد^(٧) في مسنده

(١) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣٨ / ص / ٨٦] . (٣) [٤٤ / الدخان / ١٠] .

(٤) [٤٤ / الدخان / ١٥] . (٥) [٤٤ / الدخان / ١٦] .

(٦) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤٤ - سورة الدخان ، ٢ - باب

يَعْتَسِي النَّاسُ هَذَا عَذَابُ أَلِيمٍ ، حديث رقم ٥٧٠ ، عن عبد الله بن مسعود .

وأخرجه مسلم في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث رقم ٣٩ (طبعتنا) .

(٧) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٨٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٣٦١٣ (طبعة المعارف) .

وهو عند الترمذى^(١) والنسائى فى تفسيرهما، وعند ابن جرير^(٢) وابن أبى حاتم من طرق متعددة وقد وافق ابن مسعود رضى الله عنه على تفسير الآية بهذا ، وأن الدخان مضى، جماعة من السلف كمجاهد وأبى العالية وإبراهيم النخعى والضحاك وعطية العوفى، وهو اختيار ابن جرير. قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : والظاهر أن مجيء أبى سفيان كان قبل الهجرة. لقول ابن مسعود (ثم عادوا) ولم ينقل أن أبى سفيان قدم المدينة قبل بدر. وعلى هذا فيحتمل أن يكون أبو طالب كان حاضرا ذلك. فلذلك قال^(٣) :

* وَأَبْيَضَ يَسْتَسْقَى الْغَامُ بِوَجْهِهِ * البيت .

لكن روى ما يدل على أن القصة المذكورة وقعت بالمدينة . فإن لم يحمل على التعدد ، وإلا فهو مشكل جداً . والله المستعان . انتهى .

وذكر ابن قتيبة فى تفسير الدخان على هذا معنيين : أحدهما - أن فى سنة القحط يعظم يبس الأرض بسبب انقطاع المطر ، ويرتفع الغبار الكثير ، وبظلم الهواء . وذلك يشبه الدخان . ولهذا يقال لسنة المجاعة (الغباء) ثانيهما - أن العرب يسمون الشر الغالب بالدخان . فيقولون (كان بيننا أمر ارتفع له دخان) . والسبب فيه أن الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه ، أظلمت عيناه ، فيرى الدنيا كالمملوءة من الدخان . انتهى .

وقال الشهاب : الظاهر أن هذه التسمية استعارة . لأن الدخان مما يتأذى به . فأطلق على كل مؤذٍ يشبهه ، أو على ما يلزمه ، ولذا قيل :

تريد مهذباً لا عيبَ فيه وهـل عودٌ يفوحُ بلادُ دُخانٍ

(١) أخرجه فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٤٤ - سورة الدخان ، ١ - باب حدثنا محمود بن غيلان .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١١ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) وعجز البيت : * تَمَلُّ الْيَتَامَى عِصْمَةً لِلْأَرَامِلِ * .

وهذا البيت من قصيدة أبى طالب ، عمّ مولانا وسيدنا رسول الله ﷺ ، ومطلعها :

خَلِيلٌ مَا أَذْنَى لِأَوَّلِ عَاذِلٍ بِصَفْوَاءَ فِي حَقِّ وَلَا عِنْدَ بَاطِلٍ

الوجه الثانى فى الآية - أنه دخان يظهر فى العالم . وهو إحدى علامات القيامة . ولم يأت بعدُ ، وهو آت وهو قول حذيفة . وىروى عن علىّ وابن عباس وجمع من التابعين . قال الرازى : واحتج القائلون بهذا القول بوجوه : الأول - أن قوله (يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ) يقتضى وجود دخان تأتى به السماء . وما ذكرتموه من الظلمة الحاصلة فى العين بسبب شدة الجوع ، فذاك ليس بدخان أتت به السماء . فكان حمل لفظ الآية على هذا الوجه ، عدولا عن الظاهر ، لا لدليل منفصل ، وإنه لا يجوز . الثانى - أنه وصف ذلك الدخان بكونه مبينا . والحالة التى ذكرتموها ليست كذلك لأنها عارضة تعرض لبعض الناس فى أدمغتهم . ومثل هذا لا يوصف بكونه دخانا مبينا . والثالث - أنه وصف ذلك الدخان بأنه يغشى الناس . وهذا إنما يصدق إذا وصل ذلك الدخان إليهم واتصل بهم ، والحالة التى ذكرتموها لا تغشى الناس إلا على سبيل المجاز . وقد ذكرنا أن العدول من الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلا لدليل منفصل . الرابع - ماروى عن النبىّ ﷺ من عدة الدخان من الآيات المنتظرة .

أما القائلون بالقول الأول ، فلا شك أن ذلك يقتضى صرف اللفظ عن حقيقته إلى المجاز . وذلك لا يجوز إلا عند قيام دليل يدل على أن حمله على حقيقته ممتنع ، والقوم لم يذكروا ذلك الدليل ، فكان المصير إلى ماذكروه مشكلاً جداً . فإن قالوا : الدليل على أن المراد ماذكروه ، أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون (رَبَّنَا أَكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) وهذا ، إذا إذا حملناه على القحط الذى وقع بمكة ، استقام . فإنه نقل أن القحط لما اشتد بمكة مشى إليه أبو سفيان وناشده بالله وبالرحم ، ووعد أنه إن دعا لهم وأزال الله عنهم تلك البلية ، أن يؤمنوا به . فلما أزال الله تعالى عنهم ذلك رجعوا إلى شركهم . أما إذا حملناه على أن المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة ، لم يصح ذلك . لأن عند ظهور علامات القيامة ، لا يمكنهم أن يقولوا (رَبَّنَا أَكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) ولم يصح أيضا أن يقال لهم (إِنَّا كَاشِفُوكَ الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) والجواب : لم لا يجوز أن يكون ظهور هذه العلامة جاريا مجرى

ظهور سائر علامات القيامة ، في أنه لا يوجب انقطاع التكليف ، فتحدث هذه الحالة . ثم إن الناس يخافون جدا فيتضرعون . فإذا زالت تلك الواقعة عادوا إلى الكفر والفسق . وإذا كان هذا محتملا ، فقد سقط ماقلوه ، والله أعلم . انتهى كلام الرازي .

وهكذا رجح الإمام ابن كثير الوجه الثاني، ذهابا إلى ماصح عن ابن عباس، ترجمان القرآن ومن وافقه من الصحابة والتابعين ، مع الأحاديث المرفوعة الصحاح والحسان وغيرهما ، التي أوردوها ، مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة ، على أن الدخان من الآيات المنتظرة . مع أنه ظاهر القرآن . قال الله تبارك وتعالى (فَأَرْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ) أى بين واضح يراه كل أحد . وعلى مافسر به ابن مسعود رضى الله عنه ، إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد . وهكذا قوله تعالى (يَغْشَى النَّاسَ) أى يتغشاهم ويغمهم . ولو كان أمرا خياليا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه (يغشى الناس) . وقوله تعالى (هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى يقال لهم ذلك ، تقريبا وتوبيخا . كقوله عز وجل ^(١) (يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ) أو يقول بعضهم لبعض ذلك . وقوله سبحانه وتعالى (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) أى يقول الكافرون إذا عابثوا عذاب الله وعقابه ، سائلين رفته وكشفه عنهم . كقوله جلّت عظمته ^(٢) (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُفِّقُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكْذِبُ رَّبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) وكذا قوله جل وعلا ^(٣) (وَأُنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ) وهكذا قال جل جلاله .

(١) [٥٢ / الطور / ١٣ و ١٤] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٧] .

(٣) [١٤ / إبراهيم / ٤٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (أَنِّي لَأَهْمُ الَّذِي كَرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ)

[١٤] (مُتَمِّتًا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ)

أَنِّي لَأَهْمُ الَّذِي كَرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ « أى كيف لهم بالتذكر ، وقد أرسلنا إليهم رسولا بين الرسالة والنفذارة . ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه . بل كذبوه وقالوا معلم مجنون . وهذا كقوله جلت عظمتة ^(١) (يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَىٰ) الآية . وكقوله عز وجل ^(٢) (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فُتِحُوا فَلَا قُوَّةَ وَأَخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ) إلى آخر السورة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ)

« إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ » يحتمل معنيين : أحدهما - أنه يقول تعالى ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا ، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب . كقوله تعالى ^(٣) (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّنْ ضُرٍّ لَلَجَّوْا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) وكقوله جلت عظمتة ^(٤) (وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَآ أُهْلُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) والثاني - أن يكون المراد إنا مؤخروا العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم ، وأنتم مستمررون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال . ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم . كقوله تعالى ^(٥) (إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم .

(١) [٨٩ / الفجر / ٢٣] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٥١] .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ٧٥] . (٤) [٦ / الأنعام / ٢٨] .

(٥) [١٠ / يونس / ٩٨] .

بل كان قد انعقد سببه عليهم . ولا يلزم أيضا أن يكونوا قد أقبلوا عن كفرهم ثم عادوا إليه . قال الله تعالى ، إخبارا عن شعيب عليه السلام ؛ أنه قال لقومه حين قالوا ^(١) (لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعْمُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عِدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا) وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وضريقتهم . وقال قتادة : (إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) إلى عذاب الله . وقوله عز وجل :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ)

« يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ » فسر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه بيوم بدر . وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود رضي الله عنه على تفسيره الدخان بما تقدم . وروى أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية العوفي عنه وعن أبي بن كعب رضي الله عنه وجماعة عنه ، وهو محتمل . والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضا . قال ابن جرير ^(٢) : حدثني يعقوب . حدثنا ابن علية . حدثنا خالد الحذاء عن عكرمة قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما : قال ابن مسعود رضي الله عنه : البطشة الكبرى يوم بدر . وأنا أقول هي يوم القيامة . وهذا إسناد صحيح عنه . وبه يقول الحسن البصري وعكرمة في أصح الروايتين عنه . والله أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

فصل :

وممن رجح الوجه الأول ، وهو أن المراد بالدخان يوم الجماعة والشدة مجازا ، بذكر المسبب وإرادة السبب . أو بالاستعارة ، العلامة أبو السعود حيث قال : والأول هو الذي يستدعيه

(١) [٧ / الأعراف] ٨٨ و ٨٩ .

(١) انظر الصفحة رقم ١٧٧ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

مسايق النظم الكريم قطعاً . فإن قوله تعالى (أَنِّي لَأَهْمُ أَلَدِ كَرِيٍّ) الخ ، ردّ لسكلامهم واستدعائهم الكشف ، وتكذيب لهم في الوعد بالإيمان ، المنبي عن التذكر والاتعاظ بما اعتراهم من الداهية . أى كيف يتذكرون ؟ أو من أين يتذكرون بذلك ويفنون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم ؟ (وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ) أى والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر ، وموجبات الاتعاظ ما هو أعظم منه في إيجابها . حيث جاءهم رسول عظيم الشأن ، وبين لهم مناهج الحق ، بإظهار آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة ، تخرّجها صمّ الجبال (ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ) عن ذلك الرسول وهو هو ، ربنا يشاهدون منه ما شاهدوه من العظائم الموجبة للإقبال عليه . ولم يقتنعوا بالتولى (وَقَالُوا) في حقه (مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ) أى قالوا تارة : يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف . وأخرى مجنون . أو يقول بعضهم كذا وآخرون كذا . فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير ؟ وما مثلهم إلا كمثل السكب إذا جاع ضعف ، وإذا شبع طغى . وقوله تعالى (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) جواب من جهته تعالى عن قولهم (رَبَّنَا كُشِفَ عَنَّا الْعَذَابُ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) بطريق الالتفات ، لمزيد التوبيخ والتهديد . وما بينهما اعتراض . أى إنا نكشف العذاب المعهود عنكم كشفاً قليلاً ، أو زماناً قليلاً . إنكم تعودون إثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العتوّ والإصرار على الكفر . وتنسون هذه الحالة . وفائدة التقييد بقوله (قَلِيلًا) الدلالة على زيادة خبثهم . لأنهم إذا عادوا قبل تمام الانكشاف ، كانوا بعده أسرع إلى العود . وصيغة الفاعل في الفعلين ، للدلالة على تحققهما لا محالة . ولقد وقع كلاهما حيث كشفه الله تعالى ، بدعاء النبي ﷺ . فما لبثوا أن عادوا إلى ما كانوا عليه من العتوّ والعناد . انتهى ما قاله أبو السعود بزيادة .

فصل :

وأما الوجه الثالث في الآية ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي . حدثنا جعفر بن مسافر .

حدثنا يحيى بن حسان . حدثنا ابن مهيعة . حدثنا عبد الرحمن الأعرج فى قوله عز وجل (يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) قال : كان يوم فتح مكة . قال ابن كثير : وهذا القول غريب جداً بل منكر . انتهى .

أى لأنه لم يرو مرفوعاً ولا موقوفاً على ابن عباس ، ترجان القرآن . أو غيره من الصحب . إلا أن عدم كونه مأثوراً لا ينافى احتمال لفظ الآية له ، وصدقها عليه . لا سيما ، ويؤيده قوله تعالى فى آخر السورة (فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ) مما هو وعد بظهوره عليهم . وكان ذلك يوم الفتح . وحينئذ ، فعنى قوله تعالى (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ) أى ما ينزل بهم يومئذ ، برفع القتل والأسر عنهم . ومعنى (عَائِدُونَ) أى إلى لقاء الله ومجازاته .

فصل :

يظهر مما نقلناه عن السلف فى هذه الآية من الأقوال الثلاثة ، أن هذه الآية من الآى اللاتى أخذت من الصحب ، عليهم الرضوان ، اهتماماً فى معناها ، وعناية فى البحث عن المراد منها . حتى كان ابن مسعود مصرّاً على وجهه ، وعلى ابن عباس وحذيفة على وجه آخر . على ما أسند عنهم من طرق . ولعمر الحق ! إن هذه الآية لجديرة بزيادة العناية . وهكذا كل ما كان من معارك الأنظار للأئمة الكبار . وسبب الاختلاف هو إيجاز الأسلوب الكريم ، وإيثاره من الألفاظ أرقها ، وأوجزها . مما يصدق لبلاغته حقيقة تارة ومجازاً أخرى . هذا أولاً . وثانياً ، لما كان كثير من الأحاديث المروية تتشابه مع الآيات ، كان ذلك مما يقرب بينهما ويدعو إلى اتحاد المراد منهما . لما تقرر من شرح السنة للكتاب . وهذا ما درج عليه المحدثون قاطبة . فترى أحدهم إذا رأى فى خبر ما يشير إلى آية ، قطع بأنه تفسيرها ووقف عنده ولم يتعده . وأما من فتح للتدبر باباً ومهد للنظر مجالاً ، ورأى أن الأثر قد يكون من محمولات الآية وما صدقتها ، وأنها أعم وأشمل ؛ أو إن حمل الخبر عليها اشتباه أفضى إليه التشابه ،

فذاك وسعٌ للسالك المسالك ، وفتح للمريد المدارك . ورقاه من حظيرة العقل إلى فضاء العقل .
ولسكل وجهه .

إذا علمت ذلك ، رأيت أن من فسر هذه الآية بالحجاجة التي حصلت لقريش ، أمكنه تطبيق
الآية عليها مجازاً في بعض مغرداتها ، وحقيقة في بقيتها وفي وقوع مصداقها ، في رأيه . ومن
فسرها بالدخان المنتظر ، المروي من أشراف الساعة ، وقف مع المروي ورأى أنه تفسيرها .
لأن الأصل التوافق والجل على المعهود . لأنه الأقرب خطورا والأسبق حضورا . ومن فسرهما
بالظهور عليهم يوم الفتح ، رأى أنها من بليغ المجاز وبديع الكناية في ذلك . وأن الوعد
بالارتقاب . كثر أشباهه ونظائره في غير ما آية ، مراداً به الفتح . كآية ^(١) (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِبْرَاهِيمُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ) فهذا وأمثاله يبين مأخذ الأئمة
ومداركهم في التأويل . وبه يعلم أن أطراف المدارك قد تتجاذب اللفظ فتستوقف الرأي عن
التشيع لمدرك دون آخر . ما لم يكن نعمة ما يرشح أحدها وقد يظن الواقف على كلام الرازي
المتقدم ، واحتجاجه للوجه الثاني بما أطل به ، أن لا منتدح ، بعد ، عنه . مع أن للذهاب إلى
غيره أن يجيب عن احتجاجه بما أسلفنا من صحة المجاز . بل وقوته هنا . لأن المقام مقام إندار
وإبعاد . والدوق أكبر حاكم وإليه مراد البلاغة . ولا يلزم المتأول نسكرانه للدخان المنتظر .
كما قد يتوهم . بل يعترف بأنه آية آتية يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وينقلب
هذا النظام إلى نشأة ثانية . وأنه لا يلزم من الاشتراك اللفظي اتحاد التلو والمروي . وبالجملة ،
فاللفظ السكريم يتناول المعاني الثلاثة . وسببه تحقق مصداق الجميع . وأما تعيين واحد منها
للمراد ، فصعب جداً فيما أراه . لاسيما ولم يتفق الصحب على رأى فيها . هذا ما نقوله الآن .
والله العالم . وقوله تعالى :

(١) [٣٢ / السجدة / ٢٨ - ٣٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ)

« وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ » أى ابتلينا ، قبل هؤلاء المشركين ، قوم فرعون ، بإرسال موسى عليه السلام إليهم ليؤمنوا . فاختاروا الكفر على الإيمان « وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ » أى على الله والمؤمنين . أو فى نفسه . فعلى الأول كريم بمعنى مكرم أى معظم . وعلى الثانى ، من المكرم بمعنى الاتصاف بالخصال الحميدة ، حسبا ونسبا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ، إِنِّي لَكُمُ رَسُولٌ أَمِينٌ)

« أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ » أى أرسلوا معى بنى إسرائيل ، لأسير بهم إلى بلادنا الأولى . وأطلقوهم من أسرهم وحبسهم . فإنهم قوم أحرار ، أبوا ، للضيم ، هذه الديار « إِنِّي لَكُمُ رَسُولٌ أَمِينٌ » أى على وحيه ورسالته ، التى حملتها إليكم ، لأنذرهم بأسه إن عصيتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ، إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ)

« وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ » أى بإنكار ربوبيته ، ودعوى الربوبية لأنفسكم ، وتكذيب رسوله وغضب عباده « إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ » أى حجة واضحة على ربوبية الله ، ونفى ربوبيتكم . وعلى رسالتى . وعلى أن بنى إسرائيل عباده الخاصة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ)

« وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ » أى اعتصمت به من رجسكم . يعنى القتل ، فعضمتنى ، فلا ينالنى منكم مكروه ، مع أنه لا يعصم من افتري عليه . وقصد بهذه الجملة

إظهار مزيد شجاعته وثباته في موقف تضطرب فيه الأفئدة ، وتزل الأقدام ، خوفا ورعبا .
وما ذاك إلا لإيوانه إلى عصمة الله وتأيمده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزِلُونِ)

« وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزِلُونِ » أى فكونوا بمعزل عني . فلست بوالٍ منكم أحدا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَدَعَا رَبَّهُ - أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ)

« فَدَعَا رَبَّهُ » أى لما تابوا عن إجابته « أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ » أى مشركون

مفسدون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ)

« فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا » أى فأجاب دعاءه ، وأوحى إليه بأن سر بقومك ليلا « إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ » أى إن فرعون وقومه من القبط متبعوكم . إذا شخصتم عن بلدكم وأرضهم ليرجعوكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَأَتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ، إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ)

[٢٥] (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

« وَأَتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا » أى فإذا قطعت البحر أنت وأصحابك ، فاتركه ساكنا على حاله
التي كان عليها حين دخلته ، ولا تضربه بمصاك ليدخله القبط فيغرقوا « إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ »
كَمْ تَرَكُوا « أى بعد هلاكهم بالغرق « مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ » أى بساتين وعيون يسقى
منها ويتنعم بالنظر فيها ، هذا في التفكه والتنزه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ)

«وَزُرُوعٍ» أى قائمة فى مزارعهم للقوت «وَمَقَامٍ كَرِيمٍ» أى محافل مزينة ومنازل مزخرفة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ)

«وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ» أى متنعمين من نساء وأموال وحشم، ومالا يحصى من المشتهيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ)

«كَذَٰلِكَ» أى أخرجناهم مثل هذا الإخراج . فالكاف، أو الجار والمجرور صفة مصدر مفهوم من الترك . أو هو خبر محذوف . أى الأمر كذلك . والمراد به التأكيد والتقريب «وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ» يعنى من خلفهم بعد مهلكهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)

«فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ» قال الزمخشري : إذ مات رجل خضير، قالت العرب فى تعظيم مهلكه : بكى عليه السماء والأرض . وبكىه الريح وأظلمت له الشمس . قال جرير^(١) :

* تَبْكِي عَلَيْكَ نَجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا *

(١) قطعة من ثلاثة أبيات رثى بها عمر بن عبد العزيز . وصدر البيت .

* فَالْشَّمْسُ كَاسْفَةٌ لَيْسَتْ بِطَالِمَةٍ *

(الديوان ج ١ ص ٣٠٤)

وقالت الخارجية^(١) :

أَيَا شَجَرَ الْخَابِرِ مَالِكَ مُورِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل ، مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه . وكذلك ما يروى عن ابن عباس رضى الله عنه من بكاء مصلى المؤمن وآثاره في الأرض ، ومساعد عمله ومهابط رزقه في السماء : تمثيل . ونفى ذلك عنهم في قوله تعالى^(١) (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ) فيه تهكم بهم وبجأهم ، المنافية لحال من يعظم فقده . فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض . وعن الحسن : فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون ، بل كانوا بهلا كهم مسرورين . يعنى : فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض « وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ » أى مؤخرين بالعقوبة . بل عوجلوا بها ، زيادة سخط عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

« وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ » يعنى استعباد فرعون وقتله أبناءهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (مِنْ فِرْعَوْنَ ، إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ)

« مِنْ فِرْعَوْنَ » بدل من العذاب ، على حذف مضاف . أو جعله عذابا ، مبالغة لإفراطه فى التعذيب . أو حال من (المهين) بمعنى واقعا من جهته « إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا » أى متكبرا على الناس « مِّنَ الْمُسْرِفِينَ » أى المتجاوزين الحد ، فى العتو والشر .

(١) البيت للمبلى بنت طريف الشيباني . ترى أخاها الوليد ، وكان يزيد بن مزيد قتله .

والقصيدة مطلعها :

يَقْتُلُ بُنَاتًا رَّسْمُ قَبْرِ كَأَنَّهُ عَلَى عِلْمٍ فَوْقَ الْجِبَالِ مُنِيفٍ

(الأغاني ج ١٢ ص ٩٣ ، طبعة الدار) . (٢) [٤٤ / الدخان / ٢٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)

« وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » أى فضلناهم لأجل علمهم ، على عالمي زمانهم .
أو عالمين بأنهم أحقاء بأن يختاروا ويؤثروا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَءَاتَيْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ)

« وَءَاتَيْنَاهُمْ » أى زيادة على اختيارهم وتفضيلهم « مِّنَ الْآيَاتِ » أى المعجزات والكرامات « مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ » أى نعمة ظاهرة ، لأنهم حجة واضحة على أعدائهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّ هَآؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ)

[٣٥] (إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُخْشَرِينَ)

« إِنَّ هَآؤُلَآءِ » أى مشركي قريش « لَيَقُولُونَ » إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ « أى المتعقبة للحياة . كأنهم أرادوا إلا موتتنا هذه . وليس القصد إلى إثبات ثانية . قال الإسفوي في (التمهيد) : الأول في اللغة ابتداء الشيء ثم قد يكون له ثان وقد لا يكون . كما تقول : هذا أول ما اكتسبته . فقد تكتسب بعده شيئاً وقد لا تكتسب . كذا ذكره جماعة ، منهم الواحدى في تفسيره ، والزجاج . ومن فروع المسألة ، ما لو قال : إن كان أول ولد ولدته ذكراً فأنت طالق ، تطلق إذا ولدته ، وإن لم تلد غيره ، بالاتفاق . قال أبو علي : اتفقوا على أنه ليس من شرط كونه أولاً ، أن يكون بعده آخر . وإنما الشرط أن لا يتقدم عليه غيره . انتهى .
وما ذكر أظهر مما للزخشرى هنا « وَمَا نَحْنُ بِمُخْشَرِينَ » أى مبعوثين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)

« فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » أى فى بعثنا بعد بلأئنا فى قبورنا . قال ابن كثير : وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة . فإن المعاد إنما هو يوم القيامة ، لافى دار الدنيا . بل بعد انتقضائها وذهابها وفراغها ، يعيد الله العالمين خلقا جديدا . ويجعل الظالمين لئار جهنم وقودا . ثم أئذرهم تعالى بأسه الذى لا یرد ، كما حلّ بأشباهم من المشركين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأویل قوله تعالى :

[٣٧] (أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

« أَهُمْ خَيْرٌ » أى فى القوة والمنفعة « أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ » إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ » أى أهلكناهم بجرمهم . وهو كفرهم وفسادهم . وهم ما هم . فابال قريش لا تخاف أن يصيبها ما أصابهم ؟ وقوم تبع هم حمير وأهل سبأ . أهلكهم الله عز وجل وفرقهم فى البلاد شذر مذر . كما تقدم فى سورة (سبأ) قال ابن كثير : وقد كانوا عربا من قحطان . كأن هؤلاء عرب من عدنان . وكانت حمير كلما ملك فيهم رجل سموه تبعا . كما يقال (كسرى) لمن ملك الفرس و (قيصر) لمن ملك الروم . و (فرعون) لمن ملك مصر كافرا . و (النجاشي) لمن ملك الحبشة . وغير ذلك من أعلام الأجناس ، ولكن اتفق أن بعض تباعثهم خرج من اليمن وسار فى البلاد حتى وصل إلى سمرقند . واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه . واتسعت مملكته وبلاده وكثرت رعاياه . وهو الذى مصر الحيرة . فاتفق أنه مر بالمدينة النبوية ، وذلك فى أيام الجاهلية ، فأراد قتال أهلها فأنعوه وقتلوه بالنهار وجعلوا يقرؤنه بالليل . فاستحيا منهم وكف عنهم . واستصحب معه حبرين من أحبار يهود ، كانا قد نصحاه وأخبراه أن لا سبيل له على هذه البلدة ، فإنها مهاجر نبي يكون فى آخر الزمان . فرجع عنها وأخذها معه إلى بلاد اليمن . فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة . فنهاه عن ذلك أيضا ، وأخبراه بعظمة

هذا البيت ، وأنه من بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام . وأنه سيكون له شأن عظيم على يدى ذلك النبىِّ المبعوث فى آخر الزمان . فعظمها وطاف بها وكساها الملاء والوصائل والخبر . ثم كرّر راجعا إلى اليمن ، ودعا أهلها إلى اليهود معه . وكان إذ ذاك دين موسى عليه الصلاة والسلام ، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام ، فيهود معه عامة أهل اليمن . وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق فى كتابه (السيرة) . وترجمه الحافظ ابن عساكر فى (تاريخه) ترجمة حافلة . وذكر أنه ملك دمشق . وساق ما روى فى النهى عن سبه ولعنه . قال ابن كثير : وكأنه ، والله أعلم ، كان كافرا ثم أسلم ، وتابع دين السكليم على يدى من كان من أحبار اليهود فى ذلك الزمان على الحق . قبل بعثة المسيح عليه السلام . وحج البيت فى زمن الجرهيميين وكساه الملاء ، والوصائل من الحرير والخبر . ونحر عنده ستة آلاف بدنة . وعظمه وأكرمه . ثم عاد إلى اليمن . وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر من طرق متعددة مطولة مبسوبة ، عن أبيّ بن كعب وعبد الله بن سلام وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم ، وكعب الأحبار . وإليه المرجع فى ذلك كله ، وإلى عبد الله بن سلام أيضا . وهو أثبت وأكبر وأعلم . وكذا روى قصته وهب بن منبه ومحمد ابن إسحاق فى (السيرة) كما هو مشهور فيها . وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر فى بعض السياقات ، ترجمة تبع هذا ، بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل . فإن تبعا هذا المشار إليه فى القرآن أسلم قومه على يديه . ثم لما توفى عادوا بعده إلى عبادة الثيران والأصنام . فعاقبهم الله تعالى ، كما ذكره فى سورة سبأ . وتبع هذا هو تبع الأوسط . واسمه أسعد أبو كرب . ولم يكن فى حمير أطول مدة منه . وتوفى قبل مبعث النبىِّ ﷺ بنحو من سبعمائة سنة وذكروا أنه لما ذكر له الخبران من يهود المدينة ، أن هذه البلدة مهاجرة نبىِّ فى آخر الزمان اسمه أحمد ، قال فى ذلك شعرا . واستودعه عند أهل المدينة . فكانوا يتوارثونه ويروونه خلفا عن سلف . وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارى ، الذى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى داره ، وهو :

شهدتُ على أحمدٍ أنه رسولٌ من الله باري النّسمِ
فلو مدَّ عُمرِي إلى عُمرِهِ لَكنتُ وزيراً له وابنَ عمِّ
وجاهدتُ بالسيفِ أعداءَهُ وفَرَجْتُ عن صدرِهِ كُلَّ غَمِّ

ثم ساق ابن كثير آثارا في النهي عن سبه : وبالجملـة فإن قصته المذكورة والمروى في شأنه ، وإن لم يكن سنده على شرط الصحيح ، إلا أن ذلك مما يتحمل التوسع فيه ، لكونه نبأ محضاً مجردا عن حكم شرعى . نعم ، لا يشك أن قريشا كانت تعلم من نخامة نبئه المروى لها بالتواتر ، ما فيه أكبر موعظة لها . ولذا طوى نبأه ، إحالة على ما تعرفه من أمره ، وما تسمر به من شأنه . وما القصد إلا العظة والاعتبار ، لا قصّ ذلك خبرا من الأخبار ، وسمران الأسرار ، كما هو السر في أمثال نبئه . وبالله التوفيق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبِينِ)

[٣٩] (مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبِينِ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ »
أى الاستدلال على خالقهما ، لعبادته وطاعته « وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى حكمة خلقها ، فيعرضون عنه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٤١] (يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)

[٤٢] (إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

« إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ » أى فصل الله بين الخلائق وقضاءه عليهم ، ليجزيهم بما أسلفوا

من خير أو شرّ « مِمَّنْهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا » أى من إثابة أو تحمل عقاب « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ » أى بأن وفقه للإيمان والعمل الصالح « إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ » أى الغالب فى انتقامه من أعدائه « الرَّحِيمُ » أى بأوليائه وأهل طاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ)

« إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ » أى التى هى أخبث شجرة معروفة فى البادية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (طَعَامُ الْأَثِيمِ)

« طَعَامُ الْأَثِيمِ » أى الفاجر الكثير الآثام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ)

[٤٦] (كَغَلَى الْحَمِيمِ)

« كَالْمُهْلِ » وهو دردى الزيت ، أى عكره فى قعره « يَغْلِي فِي الْبُطُونِ » أى يضطرب فيها من شدة الحرارة فيقلق القلوب ويحرقها . وقوله « كَغَلَى الْحَمِيمِ » أى الماء الحار الذى انتهى غليانه . وقوله (فِي الْبُطُونِ) كقوله^(١) (نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطْلِعُ عَلَى الْآفِئْدَةِ) وهذه الآية كآية الصافات^(٢) (أَذَلِكَ خَيْرٌ نَزَّلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ) .

(١) [١٠٤ / الحمزة / ٧٥٦] . (٢) [٣٧ / الصافات / ٦٢-٦٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

« خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ » أى ادفعوه بعنف « إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ » أى وسطها ومعظمها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ)

« ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ » أى لتستوفى جميع أجزاء بدنه نصيبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)

« ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » أى يقال له ذلك ، على سبيل الهزؤ والتهكم ،

فيم له ، مع العذاب الأول ، وهو الحسى ، العذاب العقلى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ)

« إِنَّ هَذَا » أى العذاب أو الأمر « مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ » أى تشكون ،

مع ظهور دلائله . أو تمارون وتلاحون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ)

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ » أى يأمن صاحبه من الخوف والفرع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[٥٣] (يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّيِلِينَ)

« فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ » أى مارق من الحرير وكثف « مُتَّعًا يَلْبَسُونَ » أى فى مجالسهم أو أماكنهم ، لحسن ترتيب الغرف ، وتصنيف منازلهم .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

« كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ » أى قرناهم بما فيه قرة أعينهم واستئناس قلوبهم ، لوصولهم بمحبوبهم ، وحصولهم على كمال مرادهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَلَكَهَةٍ آمِنِينَ)

« يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَلَكَهَةٍ آمِنِينَ » أى يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه ، آمنين من كل ضرر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ، وَوَقَّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

[٥٧] (فَضَلًا مِّن رَّبِّكَ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[٥٨] (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

[٥٩] (فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ)

« لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ » قال ابن جرير ^(١) : أى لا يذوق هؤلاء المتقون فى الجنة ، الموت بعد الموت الأولى ، التى ذاقوها فى الدنيا .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٧ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وكان بعض أهل العربية يوجه (إِلَّا) هنا بمعنى (سوى) أى سوى الموتة الأولى . انتهى .
يعنى أن الاستثناء منقطع . أى لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا « وَوَقَّعَهُمْ
عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضَلًّا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ »
أى سهلناه حيث أنزلناه بلغتك ، وهو فداكك للسورة « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى يتعظون
بغيره وعظاته وحججه ، فيمنبوا إلى طاعة ربهم ويدعنوا للحق « فَأَرْتَقِبْ » أى ما يحل بهم
من زهوق باطلهم « إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ » أى منتظرون عند أنفسهم غلبتك . أو هو قولهم
(نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ) وهذا وعده ﷺ بالنصرة والفتح عليهم ، وتسليمة
ووعيد لهم . وقد أنجز الله وعده ، كما قال سبحانه ^(١) (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي)
وقوله تعالى ^(٢) (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهُدُ) .

(١) [٥٨ / المجادلة / ٢١] . (٢) [٤٠ / غافر / ٥١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٥ - سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

سميت بها لتضمن آيتها بيان سبب تأخير البعث إلى يوم القيامة . لأجل اجتماع الأمم محاكمة إلى الله تعالى ، وفصله بينهم يوم القيامة . وهي من المطالب الشريفة في القرآن . وتسمى (سورة الشريعة) لتضمن آيتها وجه نسخ هذه الشريعة ، سائر الشرائع ، وفضلها عليها . وهو أيضا من المطالب العزيزة فيه . قاله المهايى .

وهي مكية . واستثنى بعضهم منها آية^(١) (قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا) فإنه قيل إنها مدنية ، نزلت في شأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كما سيأتى ، وآياتها سبع وثلاثون آية .

(١) [٤٥ / الجاثية / ١٤] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حم)

[٢] (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

« حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » قال المهايى : فعزته تقتضى إفاضة الحجج التى بها الغلبة على الخصوم . وإفاضة الكمالات التى يعسر الوصول إليها . وأنواع السعادات ، وحدة النظر ، والحكمة تقتضى محو الشبه وإزالة النقائص وإحراق الشقاوة وتمهيد الفكر . وقد نزل من مقام عزته بمقتضى حكمته ، لتكميل القوة النظرية والعملية ، ليتوسل بها إلى الكمالات الحقيقية ، من الإيمان والإيقان والعقل . وذلك بالنظر إلى أنواع الآيات المتضمنة للحجج ، ورفع الشبه . فنها آيات الأجسام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ)

[٤] (وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

[٥] (وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ

الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

« إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ » أى مطر . سقى رزقا لأنه سببه « فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » أى عن الله ، ما وعظهم به ودعاهم إليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

« تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ » أى الدالة على كمال قدرته وحكمته وإرادته « تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ » أى بعد آياته ودلائله الباهرة . وتقديم اسم الله للمبالغة والتعظيم . كما فى قولك (أعجبني زيد وكرمه) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَيَلُكِلْ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

« وَيَلُكِلْ أَفَّاكٍ » أى كذاب يتكلم فى حق الله وصفاته على خلاف الدليل « أَثِيمٍ » أى بترك الاستدلال ، لاسيما إذا لم يترك عن غفلة ، بل مع كونه ،

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

[٩] (وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)

[١٠] (مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[١١] (هَٰذَا هُدًى ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ)

[١٢] (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ » أى لا بالإخبار عنها بالغيب ، بل « تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ » أى على إنكارها « مُسْتَكْبِرًا » أى عن قبولها ، لا يتأثر بها أصلاً « كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا » استهانة بها « أَوْ لَأَمَّا لَكُمْ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مَن وَرَّاهِمُ جَهَنَّمَ » أى من بعد انقضاء آجالهم ، عذابها « وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا » أى من الأموال والأولاد « شَيْئًا » أى من عذاب الله « وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ » يعنى آلهتهم التى عبدوها ، أو رؤساءهم الذين أطاعوهم فى الكفر واتخذوهم نصراء فى الدنيا « وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَذَا » أى القرآن « هُدًى » أى بيان ودليل على الحق ، يهذى إلى صراط مستقيم من اتبعه وعمل بما فيه « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ أَلِيمٍ * اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَىٰ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ » أى بتسخيره « وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » أى باستفادة علم وتجارة وأمتعة غريبة ، وجهاد وهداية وغوص فيه ، لاستخراج لآليه ، وصيد منه « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى نعمة هذا التسخير . فتعبدوه وحده ، وتصرفوا ما أنعم به عليكم ، إلى ما خلقتم له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى آيات الله وحججه وأدلته . فيمتبرون بها ويتفكرون . قال الهامى : منها أن ربط بعض العالم ببعض دليل توحيده . وجعل البعض سبب البعض ، دليل حكمته . وجعل الكل مسخراً للإنسان ، دليل كمال جوده . فن أنكر هذه الآيات ولم يشكر هذه النعم ، استوجب أعظم وجوه الانتقام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا » أى صدقوا بالله واتبعوا « يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ » أى لا يخافون بأس الله ونقمه ووقائمه بأعدائه « لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى من عملهم . ومنه العفو والتجاوز عن بعض ما يؤذى ويوحش . وقد روى أنها نزلت فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد شتمه رجل من غفار ، فهم أن يبطش به . فتكون الآية مدنية . قيل : يؤيده ما أورد على كونها مكية ، من أن من أسلم بها كانوا مقهورين فلا يمكنهم الانتصار منهم . والعاجز لا يؤمر بالعفو والصفح . وأجيب بأن المراد أنه يفعل ذلك بينه وبين الله بقلبه ، لثواب عليه . مع أن دوام عجز كل أحد منهم غير معلوم . فالصواب أن الآية مكية كالسورة . ومعنى نزولها فى عمر - إن صح - صدقها على قضيتها . والاستشهاد بها لساحه . كما حققنا المراد من النزول ، غير ما مرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)

« مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ » أى لكونه افتسكها من العذاب « وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا » أى أساء عمله بمعصية ربه ، فعلى نفسه جنى ، لأنه أوبقها بذلك « ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ » أى تصيرون . فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ)

«وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ» أى التوراة «وَأَلْحَكُمُ» أى الفهم بالكتاب والعلم بالسنن التى لم تنزل بالكتاب «وَالنَّبُوءَةَ» أى جعلنا منهم أنبياء ورسلا إلى الخلق «وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ» يعنى المن والسلوى «وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» أى على أهل زمانهم ، بإيتائهم ما لم يؤت غيرهم . كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَمَا تَتَنَزَّلُ مِنْ أَمْرِ، فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا يَنْهَاهُمْ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) «وَمَا تَتَنَزَّلُ مِنْ أَمْرِ» أى حججاً وبراهين وأدلة قاطعات، تأبى الاختلاف، ولكن أبوا إلا الاختلاف «فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا يَنْهَاهُمْ» أى ظلماً وتعدياً منهم، لطلب الحظوظ العاجلة «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» أى بالمؤاخذه والمجازاة . قال ابن كثير : وهذا فيه تحذير لهذه الأمة، أن تسلك مسلكهم ، وأن تقصد منهمجهم . ولهذا قال جل وعلا :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) «ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ» أى على طريقة وسنة ومنهاج من أمر الدين ، الذى أمرنا به من قبلك من رسلنا «فَاتَّبِعْهَا» أى تلك الشريعة الثابتة بالدلائل والحجج «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» يعنى المشركين وماهم عليه من الأهواء التى لا حجة عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ)

« إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » أى لن يدفعوا عنك من غضبه وعقابه شيئاً ما ،
 « وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » أى أعوان وأنصار على المؤمنين وأهل الطاعة .
 أو فى التحزّب والتقوى . ولكن ماذا تغنيهم ولايتهم لبعضهم وقد تخلّت عناية الله ونصرته
 عنهم ؟ « وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ » أى من اتقاه بعبادته وحده ، وخشيته بكفائته من بغى عليه ،
 وكاده بسوء . والأظهر تفسير الآية بآية ^(١) « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ
 إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُ طُغُوتٍ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ » .
 القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

[٢١] (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

« هَذَا » أى القرآن « بَصَائِرُ لِلنَّاسِ » أى يبصرون به الحق من الباطل ، ويعرفون به
 سبيل الرشاد . قال الزمخشري : جعل مافيه من معالم الدين والشرائع ، بمنزلة البصائر فى القلوب
 كما جعل روحاً وحياة . أى فهو تشبيهه بليغ « وَهُدًى » أى من الضلالة « وَرَحْمَةٌ » أى من
 العذاب لمن آمن وأيقن « لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » أى يطلبون اليقين « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا
 السَّيِّئَاتِ » أى اكتبوا سيئات الأعمال « أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى من عدم التفاوت . قال الزمخشري : والمعنى
 إنكار أن يستوى المسيئون والمحسنون محياً ، وأن يستووا مماتاً . لافتراق أحوالهم أحياء
 حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات ، وأولئك على ركوب المعاصى . ومماتاً حيث مات
 هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب الله ورضوانه ، وأولئك على اليأس من رحمة الله
 والوصول إلى هول ما أعدّ لهم . انتهى .

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] .

وزد عليه : حيث عاش هؤلاء على الهدى والعلم بالله وسنن الرشاد وطمانينة القلب ، وأولئك على الضلال والجهل والعمى بالفساد واضطراب القلب وضيق الصدر ، بعدم معرفة المخرج المشار إليه بآية^(١) (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » أى بالحكمة والصواب . قال ابن جرير^(٢) : أى للعدل والحق ، لا لما حسب هؤلاء الجاهلون بالله ، من التسوية بين الأبرار والفجار . لأنه خلاف العدل والإنصاف « وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » قال الزمخشري : معطوف على (بالحق) لأن فيه معنى التعليل . أو على معلن محذوف ، تقديره ، خلق الله السموات والأرض ليدل بها على قدرته ، ولتجزى كل نفس « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى فى جزاء أعمالهم .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

[٢٤] (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

« أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ » أى من ترك متابعة الهدى إلى متابعة الهوى . فكأنه يعبد . فجعله إلها تشبيهه بليغ أو استعارة . قال القاشانى : الإله المعبود ، ولما أطاعوا الهوى فقد عبدوه وجعلوه إلها . إذ كل ما يعبد الإنسان بحبته وطاعته ، فهو إله ولو كان

(١) [٢٠ / طه / ١٢٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٩ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

حجرا ! « وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ » ، أى عالما بحاله ، من زوال استعدادده ، وانقلاب وجهه ، إلى الجهة السفلية . أو مع كون ذلك العابد للهوى عالما بعلم ما يجب عليه فعله في الدين . على تقدير أن يكون (عَلَىٰ عِلْمٍ) حالا من الضمير المفعول في (أَضَلَّهُ اللَّهُ) لامن الفاعل . وحينئذ يكون الإخلال لمخالفته علمه بالعمل ، وتخلف القدم عن النظر ، لتشرب قلبه بمحبة النفس وغلبة الهوى . أو على علم منه غير نافع . لكونه من باب الفضول . ليس فيه إلى الحق سلوك ووصول « وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ » أى بالطرد عن باب الهدى ، والإبعاد عن محل سماع كلام الحق وفهمه ، لكان الرين وغلظ الحجاب ، فلا يعقل منه شيئا « وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاةً » أى عن رؤية حجج الله وآياته « فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ » أى فمن يوفقه لإصابة الحق بعد إضلال الله إياه « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا » أى ما الحياة أو الحال غير حياتنا هذه التى نحن فيها « نَمُوتُ » أى بالموت البدنى الطبيعى ، « وَنَحْيَا » أى الحياة الجسمية الحسية ، لاموت ولا حياة غيرها « وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ » أى مرّ الليالى والأيام وطول العمر « وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » أى : وما يقولون ذلك عن علم ولكن عن ظن وتخمين . و (ذَلِكَ) إشارة إلى نسبة الحوادث إلى الدهر ، أو إلى إنكار البعث ، أو إلى كليهما . قال الرحشرى : كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالى هو المؤثر فى هلاك الأنفس ، وينفكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله . وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان . وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام^(١) (لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر) أى فإن الله هو الآتى بالحوادث لا الدهر . انتهى .

وقال الخطابى ، معناه أنا صاحب الدهر ومدير الأمور التى تنسبونها إلى الدهر . فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور ، عاد سبه إلى ربه الذى هو فاعلها . وإنما الدهر (١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٢٢٩ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) عن أبى قتادة .

زمان جعل ظرفاً لمواقع الأمور . وكان عادتهم إذا أصابهم مكروه أضافوه إلى الدهر فقالوا (بؤساً للدهر) و (تبا للدهر) . انتهى .

قال ابن كثير : وقد غلط ابن حزم . ومن نحاً نحوه من الظاهرية ، في عدّهم الدهر من الأسماء الحسنى ، أخذاً من هذا الحديث . انتهى .

تنبيه :

في هذه الآية ردّ على الدهرية ، وهم المعطلة ، بأن متمسكهم ظن وتخمين . لم يشم رائحة اليقين . وما هذا سبيله ، فباب القبول في وجهه مسدود ^(١) (إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) قال الشهرستاني في معطلة العرب : فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة ، وقالوا بالطبع المحيي والدهر المميت . وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد ^(٢) (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا) إشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلي . وقصر الحياة والموت على تركبها وتحللها . فالجامع هو الطبع ، والمهلك هو الدهر (وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) فاستدل عليهم بضرورات فكرية ، وآيات فطرية ، في كم آية وكم سورة فقال تعالى ^(٣) (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ، مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ) ^(٤) (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقال ^(٥) (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ) وقال ^(٦) (قَالَ أَتُنْكُمُ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ) وقال ^(٧) (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ) فثبتت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق . فإنه قادر على الكمال ، إبداء وإعادة . انتهى .

ولى في الرد على الدهريين ، وهم الماديون والطبيعيون ، كتاب وسمّته (دلائل التوحيد) فليرجع إليه المرید ، فليس وراءه ، بحمده تعالى ، من مزيد .

(١) [١٠ / يونس / ٣٦] . (٢) [٤٥ / الجاثية / ٢٤] .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٨٤] . (٤) [٧ / الأعراف / ١٨٥] .

(٥) [١٦ / النحل / ٤٨] . (٦) [٤١ / فصلت / ٩] . (٧) [٢ / البقرة / ٢١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَتَّبِعْتِ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا اأْتُوا بِآبَاءِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَتَّبِعْتِ » أى بأن الله باعث خلقه يوم القيامة « مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا اأْتُوا بِآبَاءِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى انشروهم أحياء ، حتى نصدق ببعثنا أحياء بعد مماتنا . وإطلاق الحجة على ذلك ، إما حقيقة بناء على زعمهم ، فإنهم ساقوه مساق الحجة ، أو هو مجاز تهكم بهم . كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة . بمعنى أن لا حجة لهم البتة . وفيه مبالغة لتنزيل التضاد منزلة التجانس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قُلِ اللّٰهُ يُحْيِيكُم مِّمَّنْ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« قُلِ اللّٰهُ يُحْيِيكُم مِّمَّنْ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى قل لهم فى جواب قولهم (وَمَا يُهْدِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ) : قل الله يحييكم ثم يميتكم ، لا الدهر . لما عرف من وجوب رجوع العالم إلى واجب الوجود ، هو سبب الأسباب ، ومصدر الكائنات . أو قل لهم (فى جواب إنكارهم البعث) : بأن من قدر على الإبداء ، قدر على الإعادة . والحكمة اقتضت الجمع للمجازاة ، على ما مرّ مرارا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَلِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْحَسِرُ الْمُبْطِلُونَ)

« وَلِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى فلا مالك غيره ، ولا معبود سواه « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْحَسِرُ الْمُبْطِلُونَ » أى الذين أنوا بالباطل فى أقوالهم وأفعالهم ، وهم عبدة غيره تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَآئِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٢٩] (هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٣٠] (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

[٣١] (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ)

«وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَآئِيَةً» أى باركة، مستوفزة على الركب لاجراك بها . شأن الخائف المنتظر لما يكره . وذلك عند الحساب أوفى الموقف الأول ، وقت البعث قبل الجزاء «كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا» أى اللوح الذى أثبت فيه أعمالها . ويعطى يمين من كان سعيداً . وشمال من كان شقيماً «الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ» أى يشهد عليكم بما عملتم بلا زيادة ولا نقصان . وإنما أضاف صحائف أعمالهم إلى نفسه تعالى ، لأنه أمر الكتبة أن يكتبوا فيها أعمالهم «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ» أى نستكتب الملائكة «مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ «أى ما صالح به حالهم فى المعاد الجسماني» «فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ» * «أى فى جنته» ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا «أى يقال لهم «أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ» أى يكسب الآثام ، والكفر بالله ، وعدم التصديق بعماد ، ولا الإيمان بشواب وعقاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ)

« وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ »
 أى : أى شىء هى ؟ أى : لانستيقن بها « إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ » أى
 انها كائنة وآتية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)
 [٣٤] (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ)

[٣٥] (ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ أَتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءًا وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

« وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا » أى قبائح أعمالهم ، أو عقوبات أعمالهم السيئات « وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » معنى الجزاء « وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا » أى نترككم فى العذاب ، ترك ما ينسى ، كما تركتم التأهب له . ف (نَنسِفُكُمْ) استعمارة أو مجاز مرسل « وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ * ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ أَتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءًا وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » أى خدعتكم حتى آثرتوها على الآخرة وزعمتم أن لاهية سواها « فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا » أى من النار « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » أى ولا يطلب منهم أن يعذبوا ربهم أى يرضوه . من (الإعتاب) وهو إزالة العتب ، كناية عن الإرضاء . أو : لاهم ردون إلى الدنيا ليتوبوا ويراجعوا الإنابة ، فما بعد الموت مستعتب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[٣٧] (وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« فَلِلَّهِ الْحَمْدُ » أى الثناء الكامل . قال ابن جرير^(١) : أى لله الحمد على نعمه وأياديه عند خلقه ، فإياه فاحمدوا أيها الناس . فإن كل ما بكم من نعمة فمنه ، دون ماتعبدون من دونه ، من آلهة ووثن « رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » * وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ « أى الاستعلاء ونهاية الترفع والكبر على كل شيء . وغاية العلو والعظمة باستغنائاه عنه وافتقاره إليه « وَهُوَ الْعَزِيزُ » أى القوى القاهر لكل شيء « الْحَكِيمُ » قال القاشانى : أى المرتب لاستعداد كل شيء ، بلطف تدبيره ، المهيء لقبوله ، لما أراد منه من صفاته ، بدقيق صنعته ، وخفى حكمته (لا إله إلا هو رب العالمين) .

وافق الفراغ من تفسير هذه السورة قبيل ظهر الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة عام ١٣٢٦ بمثلنا بدمشق الشام . بقلم جامعته جمال الدين القاسمى . وهذا آخر الجزء العاشر . ويليه الجزء الحادى عشر . وأوله سورة الأحقاف . والحمد لله وحده .

تم الجزء الرابع عشر . ويليه ، إن شاء الله تعالى ، الجزء الخامس عشر . وفيه تفسير : ٤٦ - سورة الأحقاف ، ٤٧ - سورة محمد ، ٤٨ - سورة الفتح ، ٤٩ - سورة الحجرات ، ٥٠ - سورة ق ، ٥١ - سورة الذاريات ، ٥٢ - سورة الطور ، ٥٣ - سورة النجم ، ٥٤ - سورة القمر ، ٥٥ - سورة الرحمن .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

